ديانات
العصر الحجري الحديث
في بلاد الشام
تأليف
جاك كوفان
ترجمة
د. سلطان محيسن

ديانات
العصر الحجري الحديث
في بلاد الشام

ديانات
العصر الحجري الحديث
في بلاد الشام

تأليف
جاك كوفان

تعريب
د. سلطان محيسن



طبعة اولى
١٩٨٨

الكتاب : ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام
المؤلف : دكتور جاك كوفان
المترجم : دكتور سلطان محيسن
الطابع : مطبعة الشام
عدد الطبع : ٢٠٠٠
الناشر : دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع دمشق شارع بورسعيد هاتف ٢١١٠٢٢ ـ ٢١١٠٤٨ ص . ب ٥٣٧٢ تلكس ٤١٢٥٣٨ زينة

المؤلف في سطور

جاك كوفان ، مؤرخ وفيلسوف وعالم آثار كبير وشهير ، مدير ابحاث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي بدأ نشاطه في لبنان وأنجز في عام ١٩٦٨ اطروحة دكتوراة متميزة حول العصر الحجري الحديث في جبيل ، على الساحل اللبناني . ثم تابع منذ السسبعينيات وحتى الان ، ابحاثه في سورية فنقب في موقع تل المريبط في الفرات الاوسط وكشف عن معطيات جديدة تتعلق بأصل الزراعة واصل الدين في العصر الحجري الحديث وله في هذا المجال دراسات ونظريات تشد اهتمام الباحثين قاطبة يعمل مديراً لمعهد ما قبل التاريخ المشرقي ، الذي كان له فضل تأسيسه ، في مدينة جالس اقليم الاديش بفرنسا ، ويرأس عدة بعثات اثرية تهتم بدراسات ما قبل التاريخ في الشرق الادني وتنقب في سورية بخاصة (حوض الكوم وشمال تدمر) وفي تركيا (موقع كفر هويوك) . دراساته ومؤلفاته اكثر من ان تحصى نذكر منها فقط كتاب «القرى الاولى في سورية وفلسطين بين الالف التاسع والالف السابع ق.م» وكتاب «ديانات العصر الحجري الحديث في سورية ـ وفلسطين» ولا زال هذا العالم في اوج عطائه المبدع .

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

لا احد يستطيع ان يضع بين يدي القارىء العربي كتاب «ديانات العصر الحجري الحديث في سورية ـ فلسطين» افضل من الدكتور سلطان محيسن الاستاذ في جامعة دمشق والمعروف بتنقيباته في مواقع عصور ما قبل التاريخ وبمساهماته في المؤتمرات العالمية المختصة ، وانا معترف له بالجميل في نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية .

لقد كتب هذا المؤلف منذ حوالى خمسة عشر عاما وظل محافظا على اهميته رغم تقدم البحث منذ ذلك التاريخ ، فالوثائق الدينية اصبحت فقط اكثر عددا وسأحرص هنا على الاشارة الى اهمها ، وهي التي اتت بفضل الانطلاقة الرائعة لدراسات ما قبل التاريخ في سورية والاردن .

ان الجديد الرئيسي يتعلق بالقسم الاول من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري ، المسمى النيوليت ما قبل الفخار آ الذي يمتد على النصف الاول من الالف الثامن وانا لم اتمكن في عام ١٩٧٢ ، أن اقدم الا وثائق اثرية قليلة جدا وتتعلق بفلسطين فقط . وقلت في حينه انه ربما في العصر

الحجري الحديث قد ظهرت في المشرق عبادة الالهة المرأة ، فتأكد هذا الرأي بشكل رائع منذ ان تقبل موقع تل المريبط في الفرات الاوسط في سورية ، الذي يعود الى ذلك العصر ، والذي قدم ، بين عامي ١٩٧١ - ١٩٧٤ ، العديد من التماثيل النسائية ، ومعها بنفس الوقت ، آثار معاصرة لها وتدل على عبادة الثور . إن هذين المعبودين ، الالهة والثور ، اصبحا هامان جدا ، فيما بعد ، في كل المشرق الادنى وفي شرق المتوسط (في كريت مثلا) علما بانهما قد ظهرا في سورية منذ ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، اي قبل بداية الزراعة بالضبط .

فيما يتعلق بالعصر اللاحق ، اي بحضارات القسم الثاني من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري ، النيوليت ما قبل الفخار ب ، في الالف السابع ق.م ، فانني لم استطع ان اقدم في هذا الكتاب الا الوثائق الفلسطينية من اريحا ومن البيضا ، التي اكملتها بوثائق تل الرماد ، قرب دمشق ، العائدة الى المرحلة الحديثة من عصر النيولبيت ما قبل الفخار ب ، في نهاية الالف السابع ق.م وهنا ايضا اصبحت الوثائق اغنى فقد وجد هنري دوكونتنسون العديد من التماثيل النسائية ، الاقدم ، المصنعة من الطين المشوي في موقع تل اسود في غوطة دمشق ايضا ، وهي تؤرخ على بداية عصر النيوليت ما قبل الفخار ب ، اي بين ٧٠٠٠ - ٦٥٠٠ سنة ق.م . هذه التماثيل ، بصدورها وأردافها المضخمة ، هي الوريث المباشر لتماثيل تل المريبط .

وهناك اكتشاف ثالث هام ، اتى حديثا جدا على يد الامريكي رولفسون من الموقع الاردني عين الغزال في عمان . إن هذا الموقع ، المؤرخ على عصر النيوليت ما قبل الفخار ب ، قد سمي على امتداد الالف السابع وبداية الالف السادس ، وجدت فيه تماثيل نسائية من الطين المشوي ، تشبه تماثيل تل اسود ، وجماجم مليسة بالكلس وتماثيل من الحجر الكلسي ، تشبه تماثيل اريحا ، كما وجدت فيه بخاصة كمية كبيرة من تماثيل الثيران التي يحمل

بعضها نصيلات من الصوان ، مغروسة في صدرها مما يشير بوضوح الى دلالتها الشعائرية . إن الانجازين الرئيسيين للابحاث الحديثة هما اذا : من جهة اولى عبادة الالهة ، بشكلها الانساني ، وبدرجة ابكر واكثر اهمية مما اعتقدت في عام ١٩٧٢ ومن جهة ثانية وجود اله ذكر الى جانبها ، بشكله الحيواني ، هو الثور الذي لم يكن معروفا الا من الاناضول في الالف السابع ، مما يدل على ان عبادة الثور ظاهرة قديمة جدا نصادفها .

لاول مرة في نفس الوقت ، تقريبا ، الذي ظهرت فيه عبادة الالهة المرأة في وادي الفرات السوري مما يؤكد على ان هذه المنطقة قد لعبت دورا اساسيا في نشوء ديانات العصر الحجري الحديث ، ومن جهة اخرى من المهم ان نقرر بان بين كل التحولات التي عرفت الثورة الزراعية فإن التحولات الدينية هي التي سبقت واعلنت عن التحولات الاخرى ، وهذا السبق يمكن ان يجعلنا نتبصر في طبيعة التطور الانساني لنقول : إن التغيرات الفكرية والمعتقدات هي التي فتحت الطريق امام الانقلابات التي بدلت بشكل عميق شروط الحياة المادية .

جاك كوفان
تشرين الثاني ١٩٨٧
فرنسا

الفصل الأول

الاطــار والمنـاهـج

لقد كان العصر الذي امتد ، في الشرق الأدنى بين الألف التاسع والسابع ق.م مصيرياً لمستقبل الحضارة . فالتحول الحضاري الذي أدى الى انتقال البشرية من مرحلة الصيد والالتقاط ، في العصر الحجري القديم ، الباليوليت (Paléolithique) الى مرحلة الزراعة والتدجين ، قد حصل في تلك المنطقة قبل أي مكان آخر في العالم . وقد سمحت اعمال العشرين سنة الأخيرة في جبال زاغروس ، وحوض الأردن ، والأناضول ، بتحديد المراحل الأولى لهذا التحول . إذ كشفت الحفريات ، في فلسطين ، أن السكان النطوفيين قد بدؤوا ومنذ الألف التاسع ق.م ، أي قبل أن تظهر آثار واضحة لانتاج الطعام ، بالتجمع هنا في اطار وحدات قروية هامة نسبياً ، مبنية من مواد صلبة ودائمة ، على ما يبدو ، مع أن اقتصادها بقي وقفاً على التقاط النباتات البرية . وبلا شك فإنه بدءاً من هذا التجمع الأول وما احدثه من اثر في التنظيم الاجتماعي قد تطورت ، بشكل متصاعد ، أنشطة تدجين النباتات والحيوانات في المنطقة المذكورة . وتعتبر جارمو في زاغروس ، والبيضا في فلسطين ، وهاتشيلار وشاتال هويوك في الأناضول ،

القرى الزراعية الأولى التي نعرفها والتي قدمت ، بدرجات متفاوتة أحياناً ، الدلائل الباكرة لتدجين الحيوانات ، وهي تؤرخ على الألف الثامن أو السابع . ثم بدءاً من حوالي ٦٠٠٠ سنة ق.م ، انتشر الاستيطان الزراعي في المناطق الأكثر اعتدالاً في سواحل المتوسط . فنشأت مستوطنات رأس الشمرة ، بيبلوس ، مرسين ، تل الجديدة ، في حين بقي حوض الاردن ، شبه الجاف ، خالياً ، تقريباً ، من القرى على امتداد حوالي الألف عام التي تلت . إن التكوين العمراني ، والتقني ، والبيئوي ، لهذا التطور كان حتى الان موضوع دراسات معمقة . ونحن بأنفسنا حاولنا ، إنطلاقا من دراسة الأدوات الحجرية في الساحل اللبناني ، تحليل الطابع التقني ـ الاقتصادي لهذا الاستيطان بدءاً من الألف السابع ، وتتبع التقدم الرتيب للأنشطة الفنية والمتخصصة ، في نفس الوقت الذي تطورت فيه التبادلات التجارية بين المجتمعات .

إن كل الأبحاث لم تتطرق الا الى الحياة المادية . علماً بأنه من المؤكد بأن هذا الانقلاب العميق لشروط الحياة المادية لا يمكن أن يكون بلا أثر على نفسية ومعتقدات المجتمعات الانسانية .

لقد وصلتنا من هذه الحضارة ، غير المادية ، بقايا متفرقة : على شكل تماثيل صغيرة (Fiqurines) من الطين أو الحجر أظهرتها الحفريات بكثرة ، أو ، أحياناً ، نقوش (reliefs) ورسوم ملونة (Fresques Peintes) وأخيرا قبور (Sépultures) وأبنية نادرة يعتقد بأنه كان لها استخدام ديني .

إن الطابع الاختياري ، الفني والمدهش ، لهذه البقايا ، بين دور الانتقاء سواء في التنقيب أو في المؤلفات شبه المبتذلة والتي ساعد على مضاعفتها الاقبال الحالي على الآثار . ولكن رغم أن عملاً حديثاً (Goff 1963) صنف بشكل منتظم الرموز التشكيلية والتصويرية في بلاد الرافدين فانه لا توجد دراسة متكاملة لهذا الموضوع في سورية ـ فلسطين التي لم يحصل فيها أي جهد لتفسير شامل في هذا المجال .

إن الهدف الأول للدراسة الحالية هو إكمال هذا النقص ونحن من خلال

المنطقة السورية الفلسطينية نعالج منطقة سورية بمعناها القديم[1] التي تضم الجزء الأكبر من الجمهورية العربية السورية الحالية وفلسطين ولبنان وأما من الناحية الزمنية ، الكرونولوجية ، (Chronologie) فستكون نقطة انطلاقنا من حضارات الألف التاسع ق.م الذي ظهرت فيها أول دلائل الاستقرار ، غير الزراعي ، حتى الآن . إن التطور الديني في الأربعة الاف سنة التي تلت ذلك ، أي العصر المسمى تقليدياً ، النيوليت (Néolithique) هذا التطور يشكل هدفاً آخر لدراستنا .

لقد أظهرت ، المناطق الطبيعية المختلفة في سورية وفلسطين ، على امتداد هذا العصر ، تقارباً حضارياً كافياً لتبرير قيام دراسة واحدة ، وذلك على الرغم من بعض الاختلافات المعينة . هذا التقارب أكده التقابل الستراتجرافي (Stratyg raphie) للسويات التي ظهر فيها الفخار في سهل العمق ، في منطقة انطاكية ، وفي حوض الأردن . كما ظهرت معطيات مشابهة أخرى من المناطق المتاخمة في الأناضول وبلاد الرافدين ، تدل على التأثيرات، والعلاقات الفعالة التي وجدت بين هذه البلدان وابتدأت ، منذ الألف الثامن ق.م ، بانتقال الاوبسيديان من مصادره في الأناضول (Renfrew, Dixon et Cann 1966) ، هذا الانتقال لم يكن الا ظاهرة بين عدة ظواهر مشتركة ، أكدتها دراسة المعتقدات أيضاً .

ان تحديد هذه المعتقدات استناداً على بقايا مادية بحتة كالدمى والرسوم أو القبور ليس مهمة سهلة . لأن علماء ما قبل التاريخ لا يملكون مصادر ووسائل تحقيق شفهية كالتي تسمح للاتنولوجين ، بإحياء الأشكال التي يصفونها والتي تزداد صورتها اكتمالاً من خلال الشعائر الحيَّة المرتبطة بها . كما ينقص عالم ما قبل التاريخ النصوص المختلفة التي تمكنه من اكمال فهم العناصر الميتولوجية المتداخلة الأشكال ، هذه النصوص التي يملكها الاختصاصيون في دراسة الحضارات البائدة التي عرفت الكتابة . مما يجعل الوثيقة الدينية من عصور ما قبل التاريخ تظهر كأنها منسلخة عن الاطار الذي يعطيها معناها لذلك فإن ما يجب تقديره قبل القيام بأية محاولة تفسيرية هو فيما اذا كانت هذه المحاولة ممكنة ، أو يجب على الاقل

(١) - لا ندخل فيها المنطقة السورية الرافدية التي عالجها جف المشار إليه هنا .

تقدير حدود التفسير التي لا ينبغي تجاوزها . لذلك فانه من الأكثر ضرورية إثارة هذه المسألة المتعلقة بالشرق الأدنى في العصر النيوليني حيث ، رغم غياب الدراسة المنتظمة للظواهر الدينية ، أتت كمية كبيرة من التفسيرات المجتزأة والمتكاثرة هنا وهناك . وهذه التفسيرات كانت إما من صنع المنقبين أثناء محاولتهم شرح مكتشفاتهم أو من قبل مؤلفين عن عصور ما قبل التاريخ ولكن غير مختصين بقضايا الديانات القديمة (Paléoreligions) التي أعطوها في مؤلفاتهم بضع صفحات ، أو المؤرخين للديانات الذين يبحثون عن أصل الأشكال المقدسة (Figures divines) أو المواضيع الرمزية الكبرى التي يدرسون تطورها الأولي في الزمان وانتشارها في المكان . ونحن نعرف خاصة عددا من الدراسات التي أظهرت صورة الالهة الأم (Déesse-mére) في منطقة المتوسط في العصر ما قبل الهليني[1] والأهمية التي تعطى حالياً ، في تشكل هذه الصورة لمنطقة جنوب شرق اسيا في عصور ما قبل التاريخ ، وذلك منذ العصر الذي وجدت فيه أول التماثيل النسائية (Féminines) الرافدية ما قبل السومرية . ومن الغريب أن نرى بأن علماء ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى ، وهم غالباً آثاريون متخصصون ، يفعلون أيضا مثل سابقيهم بل انهم حاولوا بحماس أكبر تفسير مكتشفاتهم باعتبارها الأصل الذي أتت منه الأشكال المقدسة اللاحقة وذلك بدلاً من الزجوع إلى الاطار الحقيقي والفاعل لتلك المكتشفات . انه من الممكن ان نحاول الاستفادة من الاطار الميتولوجي والحضاري الأحدث ، بقدر ما يكون هذا الاطار أكثر وضوحاً ، في دراسة الأشكال الغامضة من العصور الأقدم وعليه فلقد قورنت تماثيل عصر تل حلف الرافدية بمنحوتات أتت بعدها في نفس المنطقة . بل قورنت أيضاً اشكال الآلهات ، والثيران والطيور الحلفية مع النماذج الكريتية (Mallowan 1936, Mallowan et Rose 1935) وقد أعطت الاكتشافات الحديثة من الأناضول دفعاً جديدا لهذه المقارنات مؤكدة على جوهر الإلهة الأم النيوليتية وإلى جانبها حسب ميلارت ، شريك (Parèdre) ، ذكر ، وعلى الدور المهيمن للثور في عقيدة سكان شاتال هويوك

---

(١) - خاصة James 1960, Przyluski 1950 ، وفي اطار نظريات جنع (Junq) Neu mann 1955

(Mellaart 1967) . كيف يمكن بأن لا نفكر أمام هذا الواقع بعشتار الفينيقية وبالالهة ما قبل الهلينية ، ما دام أن المقارنات ترتكز على استمرارية تاريخية مؤكدة لأن عناصر الإنتقال والانتشار ليس فقط ممكنة وانما مثبتة ؟ ولكن ما هو الهدف من وجهة نظر علماء ما قبل التاريخ ، من مثل هذه المقارنات وهل يمكن إعطاء إلهة شاتال هويوك صفات عشتار الفينيقية ، التي تتربع أيضاً ، على حيوانات متوحشة كما تحدثنا نصوص رأس الشمرة ؟ انه لا بد من التذكير بالتفريق ، الذي تحدث عنه ، مؤخراً، لوروا غوران (Leroi- Gourhan 1967) ، بين الأشكال الدينية نفسها وبين المعاني التي يمكن أن تتضمنها هذه الأشكال لدى مستخدميها . إن تمثيل الأشكال ذاتها يمكن أن يستمر ، ولكن مع تغير كـلي لاطارها ولمعناها . فلا نستطيع اعتبار إلهة الأناضول التي تتربع على حيوانات وحشية ، هي عشتار التي وصفها لوسيان (Lucien) وأسماها «هيرا» (Hēra) (Garstang 1913) في معبد هيليوبوليس ، أو اعتبارها سيبيل (Cebéle) التي ظهرت على نقود روما الامبراطورية ، لأن من الواضح بأن المحيط الديني لروما يأخذنا بعيداً عن محيط النيوليت الأناضولي ومن غير الممكن ايضاح الواحد من خلال الآخر . ولكن هذه المقارنات ، عبر العصور ،عندما تحصل داخل منطقة جغرافية معينة ، حيث الاشكال المقدسة استطاعت أن تستمر وتنتقل فعلاً ، يكون لها أهمية أكيدة لمؤرخ الفن والديانات بقدر ما تتعلق بدراسة «الرداء» الشكلي للمعتقدات أكثر من المضمون الحقيقي لها . وبلا شك فان «شيئاً ما» من دلالة التصوير الميتولوجي (Mythogramme) قد انتقل واستمر أيضاً عبر العصور . ولكن مهمة العلوم التاريخية هي التمييز ، قبل التوحيد ، كما أن استخدام المعطيات المتأخرة زمنياً يمكن أن يكون خطيراً عندما نكون في صدد البحث عن الأصل والدلالات الأولى لهذه المعطيات .

وبدون أن نستطيع هدم هذا النمط من الاستقراء ، كلياً ، حتى لا يشعر الباحث في عصور ما قبل التاريخ بانه مجرد من قدرته التفسيرية ، فانه يجب أ لا نعطي ذلك الإستقراء إلا دوراً مؤشراً «ودالاً» آخذين بعين الاعتبار التحولات في نمط الحياة وفي البنى الاجتماعية التي يمكن أن تقلب جذرياً ، كيفية تحديدنا لما هو

«إلهي» (Divin) وهكذا نرى بأن الرجوع المستمر للتطور الإجتماعي وللمعطيات القديمة التي ظهرت في المجال الديني ، هو ضروري من أجل تفادي اخطاء خطيرة .

هذه الاحتياطات هي بالأحرى اكثر ضرورة أثناء المقارنات الناتجة عن محيط التحول الفاعل للأعمال الحضارية . ونحن لن نعاود هنا نقد الطريقة الاتنوغرافية في دراسات ما قبل التاريخ ، والمقاربات التي أوجدتها هذه الطريقة ، مرات عديدة وانطلاقاً من معطيات دينية خارجة عن اطارها ، فسّرت بشكل متباين في دقته وتحت تأثير النظرية السائدة[1] .

بلا شك فإنه يمكن تفسير بعض التقارب الجريء ، بين أشياء ، تفصلها عن بعضها ليس فقط آلاف السنين بل ومسافات ضخمة ، بالاعتقاد بأنه توجد أنواع من «الدرجات الأساسية» (catégories fondamentales) للفكر الديني تعبر عن الروح الإنسانية وترتبط بها . هذا الاعتقاد يظهر الان أكثر عمقاً والابحاث الحديثة حول الديانات البدائية قد حددت الحقل التخيلي الذي تكون فيه التقاربات ممكنة . وقد أصبح النقاش حول مفاهيم أيضاً غامضة مثل «قوى الطبيعة» (Mana) والطوطمية البدائية ، (Totémisme Primitif) التي استخدمت بشكل أعم وأكثر من العمل على تحديد مضمونها غير الدقيق ، هذا النقاش أصبح الآن لحسن الحظ في عالم الماضي فلا ينسب الآن للفكر القديم هذا النوع من الاختلاط العاطفي الذي أيدته نظريات ليفي برول (Levi-Brühl) والذي أصبح حسب مفهومنا شديد التنوع ودفع في هذا الاطار إلى تصورات عشوائية كثيرة . ويقبل الآن غالباً وأكثر من ذي قبل بأنه بقدر الفاعلية المنطقية والجادة التي نملكها نحن في الميدان التقني والعملي فان «البدائيين» قد طرحوا عدة أسئلة جوهرية حول مصير جنسهم وأوجدوا حول هذا الموضوع فكراً دينياً قيماً . ولا يمكننا الاستمرار في اعتبار معتقداتهم وأساطيرهم كبني لا يمكن فهمها من قبلنا بعد أن أظهرت انتصارات علم النفس (Psychologie des Profondeurs) ، شمولية وظيفة الرمز ، واستمرار اساطير ولاهوتيات

---

(١) ـ انظر في هذا الموضوع ، الفصل الثامن من : Laming- Emperaire الفصل الثامن 1962 .

قديمة جداً بقيت في المخيلة البشرية ، (Eliade 1952 P. 18-24) ، وان بشكل خفي ، وهكذا فانه يعود للتحليل النفسي الفضل في رد الاعتبار العلمي لفكرة الرمز ، (Symbole) وخاصة منذ أعمال جونج (Jung) ومدرسته وما فتحته من طرق جديدة امام مؤرخي الديانات مثل مرسيا الياد (Mircéa Eliade) . ولا يوجد من الآن فصاعدا أي شك بأن الأشكال الأقدم التي رغم انها لا تعيد إلا إظهار حقائق عادية (حيوانات ونباتات) فإن هذه الاعادة لم تكن الهدف الأول ، وانما هي بالواقع مثل صورة أحلامنا ، محددة أي أنها تتجاوز شكلها إلى طبيعتها النفسية . ولكن ما الذي يحصل عليه الدارس لديانات ما قبل التاريخ من ذلك ؟ لا شيء عملي في الواقع إن لم يكن شك متصاعد تجاه الموقف المبالغ فيه للطبيعيين (Naturalistes) الذين سيطروا زمناً طويلاً في هذا المجال . لقد تكلم بعض المؤلفين مؤخراً عن تطبيق اكتشافات جونج ومرسيا الياد في مجالات ما قبل التاريخ . ويخشى من أن هذه النظريات لن تكون حجة اذا لم تؤخذ بعين الاعتبار المقاربات الخارجية الشكلية ، أيضاً كما في السابق . والرموز ليس لها دلالة واحدة ثابتة دائماً فهناك بلا شك صور مقدسة ، «هيروفانيا» جوهرية (Hiérophanies Primordiales) توصل لها مرسيا الياد (1953) أثناء تحاليله المقارنة ، هي : الأرض ؛ السماء ، مركز الكون ، الرجوع الأبدي . . الخ . ولكن هذه الرموز الجوهرية ايضا هي على درجة من العمومية ، بحيث تكون فائدتها الفلسفية ليست بدرجة استخدامها الضئيل من قبل المؤرخ وخاصة الدارس لعصور ما قبل التاريخ الذي يعني بإظهار ميزة هذه الحضارة أو تلك . إن المناهج الحديثة في الانتروبولوجيا أشاعت طريقة بحث تعتمد على نسيج مركب للعلاقات بحيث تكون كل ظاهرة خاصة مرتبطة بغيرها ولا تكون هناك رموز معزولة وانما نظام رمزي حقيقي متكامل لا يمكن فهم أجزاءه إذا فصلت عن المجموع .

إنها الاسطورة (Mythe) التي تنير الرمز عموماً . ومع أننا لا نملك أية اسطورة شفهية أو مكتوبة ، ولكننا في أفضل الأحوال نرتب المعطيات بشكل جيد نرى من خلاله التجسيد المادي لهذه الأساطير من خلال تحديد مكاني وزماني لأفعال اسطورية حصلت ، مع أنه يغيب عنا بدرجة كبيرة نظام صيرورتها .

ومن جهة أخرى فإن الطريقة التي قدمت فيها الحقائق الطبيعية ، فدخلت بذلك اطار التجسيد الميتولوجي ، سواء بنفسها مباشرة أو من خلال صفات أشكال بشرية تؤكد قوتها ودلالتها ، ترتكز بشدة على دلالة نابعة من تجارب واقعية عاشتها الشعوب صاحبة العلاقة . لقد أكد جونسن (Jensen) على «الاتجاه العام للبناء الروحي على أساس مادة محددة وقوية» (1954 p. 142) . إن اتجاه تجسيد الإله بشكل حيوان ، والمنتشر بشكل عام لدى الشعوب البدائية يدل على العلاقة الواقعية بين الانسان والأنواع الحيوانية ، وعلى الدور ، الايجابي أو السلبي ، الذي لعبته هذه الأنواع في الحياة ، سواء في شكلها أو سلوكها ، مما أدى الى تحريض الخيال حولها . ونحن نعلم أنه ، لدى مجتمعات الصيد ، غالباً ما يكون الحيوان الذي يصاد بشكل أكبر هو المقدس وهو الذي يكون «سيد الحيوانات» (Seigneur des animaux) عندما يجسد بشكله الحيواني . وهذه حالة الفيل لدى شعوب البجمة (Pygmées) في الغابون ، والرنة لدى الاسكيمو في لابرادور (Labrador) (Jensen, ibid, p. 155- 158) وعلى هذا المستوى فإن التنوع الكبير بين الحضارات يكون طبيعياً لأنه ليس الاختيار فقط ولكن طبيعة الرمز أيضا هي نتيجة تأثير البيئة على كل من تلك الحضارات. وحتى بوجود أشكال مقدسة(هيروفانيا) عامة كالأرض يكون لهذه الأرض تركيب متباين؛ كما لاحظ الياد (1953 p.214)، يعتمد على كون الزراعة معروفة أم لا . ونجد من غير المفيد تعداد أمثلة أخرى . ونضيف بأن المعرفة الدقيقة لمختلف البيئات هي التي تسمح ، وحدها ، بإنارة الحقائق الطبيعية الأساسية وطرق التقديس التي ظهرت فيها . إن نقطة الانطلاق العملية تعتمد على أعطاء قيمة ايديولوجية لأنواع حيوانية كان لها دور غذائي بارز . ولكن ذلك لا يكفي لأنه هناك أنواع دورها الاقتصادي عادي ومع ذلك كان لها دور ديني هام من الصعب تفسيره على ضوء «وظيفة» الرمز[1] إن الحقائق الطبيعية المنوعة يمكن أن تكون موضوع تصنيف يعتمد على توافقات ، وتدخل إطار الاساطير وتحمل بدورها طابعاً مقدساً ، إن المعنى الرمزي لكل نوع هو نتيجة

---

(١) - انظر ليفي - ستراوس ١٩٦٢ ص ٩٢ (Levi- Strauss, 1962 p. 92) .

للملاحظة البسيطة والشكل الفيزيولوجي والسلوك من جهة اولى ، كما انه من جهة ثانية نتيجة اختيار الفكر الانساني لصفات تعتبر متميزة لهذا النوع وتبرر الموقف الايديولوجي المتخذ حياله . وهذا الاختيار يرتكز بشكل كبير على البنية الشاملة لكل نظام بشكل تلتقي نفس الدلالات في كل مكان . لذلك فإنه لا يمكن الفصل بين الرموز . في اطار البحث الاتنولوجي يكون الـمُخْبِر موجودا وهو الذي يحدد المفاهيم الخاصة في ديانته ولكن دراسات ما قبل التاريخ محرومة من هذه الميزة . . لذلك فانه من الصعب انطلاقاً من تمثيل الأشكال الحية أو البائدة أن نعيد فهم سبب اختيار هذه الأشكال ومعرفة الظروف الخاصة التي أعطتها معناها . بل ان ذلك من المستحيل الا اذا كان الشكل نفسه يبوح بجزء من مضمونه من خلال علاقات تصويرية قائمة بين هذا الشكل وبين حقائق انسانية وطبيعية اخرى ، وهذا غالباً ما يحصل عندما يمكن اعادة تصور «الفعل»[1] أو عندما يمكن استنباط هذه العلاقات من خلال معطيات شكلية ، طوبوغرافية ، خاصة ومن اطار الاكتشاف نفسه .

إن هذه الاعتبارات المسبقة ليس لها من هدف إلا تبرير طرق التحليل التي ستطبق في هذا الكتاب ، وفي نفس الوقت اظهار حدود فاعلية هذه الطرق . ان مهمة الباحث في عصور ما قبل التاريخ هي أن يجرب طرقه في البحث غير المباشر بهدف الاحياء الجزئي جدا ، لنظام علاقات ذات دلالة ، لا يبوح عن نفسه فوراً .

لقد أنجزت خطوة هامة في هذا الإتجاه من قبل لامنغ ـ أمبرير (A. Laming-Emperaire) ولورواغوران ، في تفسير الرسوم الباليوليتية . التي يظهر فيها تجميع عشوائي لحشد غير منتظم من الأشكال الحيوانية والانسانية التي تبدو مبعثرة ولا تتضح علاقتها ببعضها ، ولكن تبين أنه يوجد ترافق مقصود ، بين أنواع محددة ، ونظام واقعي في توزيع الاشكال على السطح . ومنذ ذلك الحين ظهرت بداية

(١) ـ يعتبر الفن الجداري في المعابد الأناضولية من هذه الناحية اكثر ايحائية من الفن الفرانكو- كانتابري (Fronco- Cantabrique) لأنه لا يقدم أعمالا تبدو غير منتظمة انما بعض مشاهد حقيقية .

تفسير للكون باعتباره كلاً منظماً . ولكن الطرق المستخدمة في دراسة العصر النيوليتي لن تكون هي نفسها التي طبقت في الدزاسات البالوليتية ، لأنه لا توجد من العصر النيوليتي رسوم واشكال (Iconographie) غنية ، خاصة وان الطرق الاحصائية التي أدخلها لوروا غوران ، لا يمكن تطبيقها هنا حتى الآن . ولكننا نقوم هنا ايضا ، علاوة على الجرد الوصفي للأشياء ، باستنباط «انسجام الوثائق» استنادا على كل من مضمون واطار الأشكال الممثلة (Laming- Emperaire 1962 p. 169) .

إن مبادىء الدراسة سوف تكون كالآتي :

١ ـ ان المبدأ الأول لتفسير المواد الدينية هو البحث في اطار نفس الحضارات التي أتت منها هذه الوثائق . لأن معرفتنا لهذه الحضارات ، وخاصة من حيث تأثرها المتبادل بالبيئة الطبيعية ، قد حققت تقدما ضخماً في العشرين سنة الأخيرة . لدرجة اصبح من الممكن السعي لإنارة المعتقدات الدينية . فقد اهمل الاثاريون ، حتى زمن قريب ، معطيات العلوم الطبيعية ودراسة البقايا النباتية والحيوانية ، التي كانت ترافق مكتشفاتهم ، وانكبوا فقط على دراسة هذه المكتشفات من خلال طريقة المقارنة حصراً . ولكننا ، على العكس هنا ، سوف نعير أهمية كبيرة للمعطيات الحيوانية القديمة (Paléozoologie) والنباتات القديمة (Paléobotanie) وذلك بالاضافةالى المكتشفات الأثريةالبحتة . يقول جونسن انه من غير الممكن ، في الدراسات الاتنولوجية ، فهم نظام التفكير لدى مجتمعات الصيد دون أن نبدأ مطولا «بمراقبة العلاقات بين الإنسان والحيوان» (نفس المصدر Ibid, p.153) . ورغم ان هذا النوع من المراقبة هو غير مباشر وجزئي في عصور ما قبل التاريخ ، فانه من غير الممكن اهماله خوفاً من الوقوع في طروحات نظرية بحتة .

٢ ـ في تحليل الوثائق نفسها سوف ينصب الجهد الرئيسي على تمييز العلاقات الدالة بين الحقائق المقدسة وتحليل هذه العلاقات على أمل أن نستطيع كشف «مواضيع» (Thémes) معينة . ولا يتوقف ذلك على دراسة العلاقات الواضحة نسبياً ، التي تظهرها الاشكال المصورة ، التي أتت بوفرة من الأناضول ، ولكنها شبه غائبة من المنطقة المدروسة هنا . بل ان كل قبر وكل مكان مقدس صنعه الانسان هو بحد ذاته كل منظم نستطيع من خلاله ، بفضل التوزع الطوبوغرافي

لممارسة الشعائر ، الحصول على أجزاء غنية توضح وجود علاقات جديدة تربط بين الأشكال المكتشفة وبين البقايا الانسانية والحيوانية وأدوات الأثاث المنوعة ، التي أسيء تفسيرها واقتصر على دورها العملي ، دون أن تشارك بشكل أكبر أو أصغر ، في البنية الرمزية . ولسوء الحظ فان التنقيبات القديمة لم تتطرق لهذه النقاط ، وتلاحظها بدقة ، كما أن التنقيبات الأخرى لا زالت قيد التنفيذ ولم ينشر عنها إلا تقارير أولية غير نهائية مما يبقي هذا النوع من الوثائق ، في الشرق الأدنى ، غير كاف في العديد من الحالات .

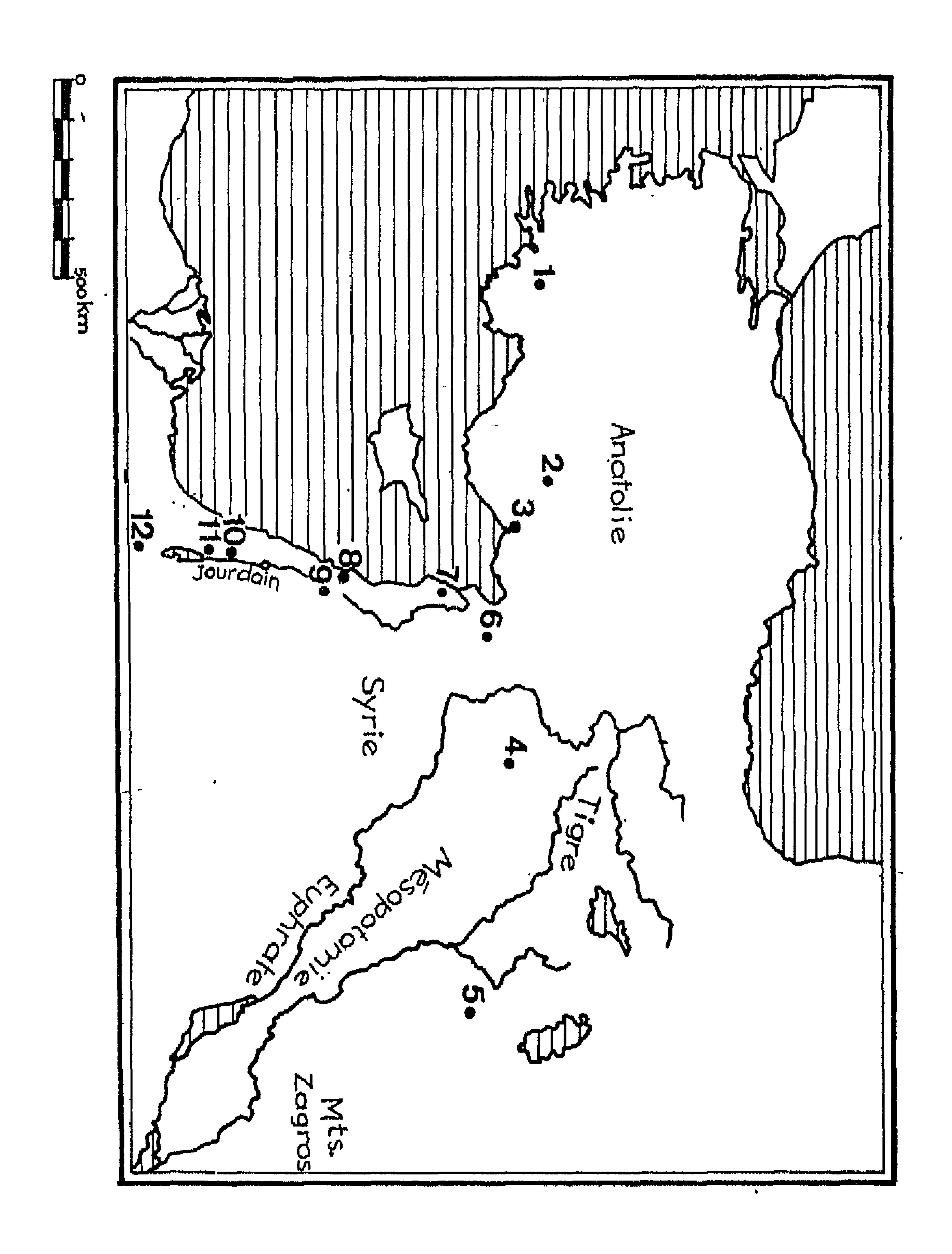
٣ ـ كما فعل جوف (Goff) في دراسة الفن النيوليتي الرافدي فسوف نعطي الأهمية الأكبر للتحول ، وللتشويه المقصود ، الذي خضعت له الحقائق المجسدة ، وأحيانا فإن المبالغة في اظهار صفة ما ، هي التي تعطي الصورة معناها ونحن لم نكن لنتكلم عن «الخصب» لدى «فينوس» في عصر الباليوليت لو لم يقم الفنانون أنفسهم بجعل تماثيلهم «مقروءة» من خلال تضخيم أجزاء معينة في الجسم . وتعتبر هذه الحالة سهلة نسبياً كما سنرى ، لأن الايديولوجيا تحاول التعبير أحياناً من خلال صورة فيها تحريف غريب للواقع .

٤ ـ ان طرق المقارنة لا تستخدم إلا لإكمال البحث ، لأن بعض الترافقات التي تظهرها الوثائق ما قبل التاريخية ، تدل على قيمة متجددة ودلالة واضحة إذا ثبت استمرارها في نفس المنطقة في العصور التاريخية اللاحقة مباشرة . إن إبدال آلهة ما قبل التاريخ بأخرى معروفة لدينا بواسطة الاشكال والنصوص الكتابية ، يمكن أن يساهم في تفسير تلك الآلهة الأولى . . ولكن يجب التنويه أيضاً إلى أن ظهور الكتابة ، التي تسهل مهمتنا ، ليس الا احد مظاهر التحول الأكثر عمقا وانتشارا ، الذي حصل في الألف الثالث ق.م واطلق عليه اسم «الثورة العمرانية» (Révolution Urbaine) التي هي بلا شك ، بتخصصها ووظائفها الاجتماعية وتنظيمها المراتبي ، مظهر آخر لهذا التحول . إن التنظيم الجديد للمجتمع الانساني انعكس في مجمع الآلهة (Panthéon) الذي يمكن تفسيره من خلال تجزئة الآلهة البدائية الى اشكال أكثر تخصصاً ، مثل حال عبدة هذه الآلهة في ذلك الوقت . لذلك فإن قائمة الوظائف الخاصة ، لهذا الاله الفينيقي أو ذاك

السومري لا تسعفنا إلا قليلاً . وبالمقابل فإن ما يقدمه علم اللاهوت الحديث حول استمرار الاشكال الحيوانية ، وطريقة فهم الحقائق الطبيعية الخالصة ودمجها في النظام القائم ، هو ليس عديم الفائدة لنا هنا ، ولكن بقدر ما يكون هناك استمرار تاريخي مباشر وفي نفس المنطقة ، بل تشكل ضمانة بأن هذه المؤسسات الرئيسية لم تتغير كثيراً . فمن المؤكد مثلاً بأن العلاقة التي أقامها الفينيقيون بين الثور والعاصفة ، التي يذكر بها خوار الثور ، واعتبروها صفة عامة للرب حدد . هذه العلاقة هي نوع من التصوير المقدس (هيروفانيا) الذي لم تخفيه أشكال شاتال هويوك أيضا . كما أن الثنائية المتناقضة بين الثور والفهد التي كرستها المنحوتات الرافدية ، كانت موجودة أيضاً في شاتال . وسوف نصادف نماذج أخرى منها في سورية ـ فلسطين أيضاً .

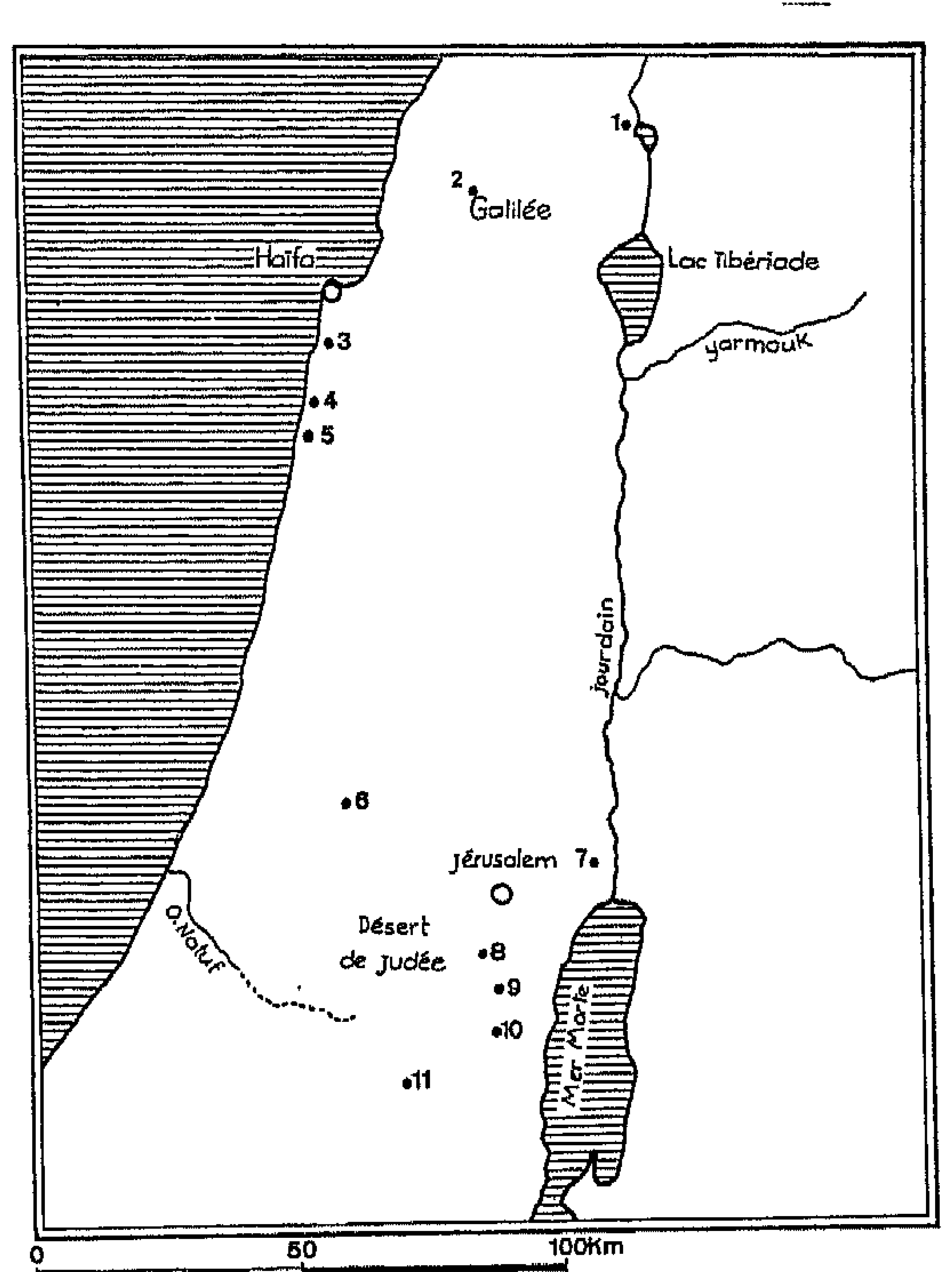
في المقارنات التي تحصل بين مناطق بعيدة عن بعضها والتي يمكن تقريرها عبر الاعتبارات العامة «للديانات البدائية» ، لا يمكن ايضا اهمال الدور الايحائي لهذه المقارنات ، ومع ادراك الانتشار والتنوع الضخم للمواد فانه من الصعب أن نطلب أكثر من هذا الدور .

وأخيراً فرغم انه ليس من هدفنا أن نطور كثيراً وجهة النظر هذه ولكن لا يجب أن ننسى بأن الأهمية الحقيقية لتاريخ الديانات قد بدأ وميضها ، رغم ضعفه ، وسوف تساعد الأبحاث الحالية والمستقبلية ، على انارة معتقدات ما قبل التاريخ . لأنه اذا كانت توجد ديانات «بدائية» فعلاً ، ولكن بالمعنى الزمني (الكرونولوجي) فقط لهذه الكلمة ، فإننا نقصد تماما تلك الديانات . . وغالباً جداً ، ضمن الاطار التطوري الذي اقترحه المؤرخون للديانات ، فإن فكرة «الدين البدائي» ارتكزت على «الاستمرارية» وكانت مجرد اسقاط للمعطيات الاتنوغرافية المعاصرة على الماضي . ولكن مع حقيقة كون بعض الشعوب لا زالت تقف على هامش الحضارة المعاصرة ، وتحمل بعض الصفات القديمة التي تعتبر بالنسبة لنا ما قبل تاريخيه ، فهناك صعوبة في ترتيب ظواهر «الاستمرارية» زمنياً وفي تقرير درجة «البدائية» . وأحد مظاهر هذه الصعوبة هو تعدد النظريات التي ظهرت على يد مؤرخي الحضارات والاتنولوجيين الذين عملوا على كشف المظاهر الدينية التي



الشكل ١ : الشرق الأدنى النيوليتي . المواقع الرئيسية :
١ـ هاتشيلار . ٢ ـ شاتال هويوك . ٣ ـ مرسين . ٤ ـ تل حلف . ٥ ـ جارمو .
٦ ـ تل الجديدة . ٧ ـ رأس الشمرة . ٨ ـ جبيل . ٩ ـ تل الرماد ١٠ ـ منهاتا
١١ ـ اريحا ١٢ ـ البيضا .

يمكن اعتبارها أصلية (originelles) ، وإنه من الطبيعي أن يكون لباحث ما قبل التاريخ ، وهو الوحيد الذي يبحث عن الماضي البعيد الغامض ، كلمته وذلك حتى يسمع صوت أصيل وتقدم ملاحظات مستمدة من المواد المدروسة قبل أن نلصق بهذه المواد الفرضيات التطورية المعدَّة بواسطة الاتنولوجي والتي لم تخضع لنقد مسبق . إن الاتنولوجي يقوم ، بسبب غزارة الوثائق التي يملكها ، بطرح الفرضيات ، ولكن لعلماء ما قبل التاريخ عموما تعود مهمة التحقق من هذه الفرضيات ، ومن المستحيل انجاز هذا العمل ما لم تتكاثر الملاحظات بشكل كبير ، فلنأمل على الأقل ، بأن تسهل الوثائق القليلة ، المجموعة هنا ، على المختصين في تاريخ الديانات الاستفادة من المعطيات المتوفرة حالياً حول الديانة النيولينية للشرق الأدنى .



الشكل ٢ : فلسطين في العصر النطوفي
١ ـ عين الملاحة ٢ ـ هايونيم ٣ ـ ناحال اورن ٤ ـ مغارة الواد ٥ ـ مغارة الكبارا ٦ ـ شقبة ٧ ـ أريحا ٨ ـ عرق الأحمر ٩ ـ عين صخري ١٠ ـ الخيام ١١ ـ ام

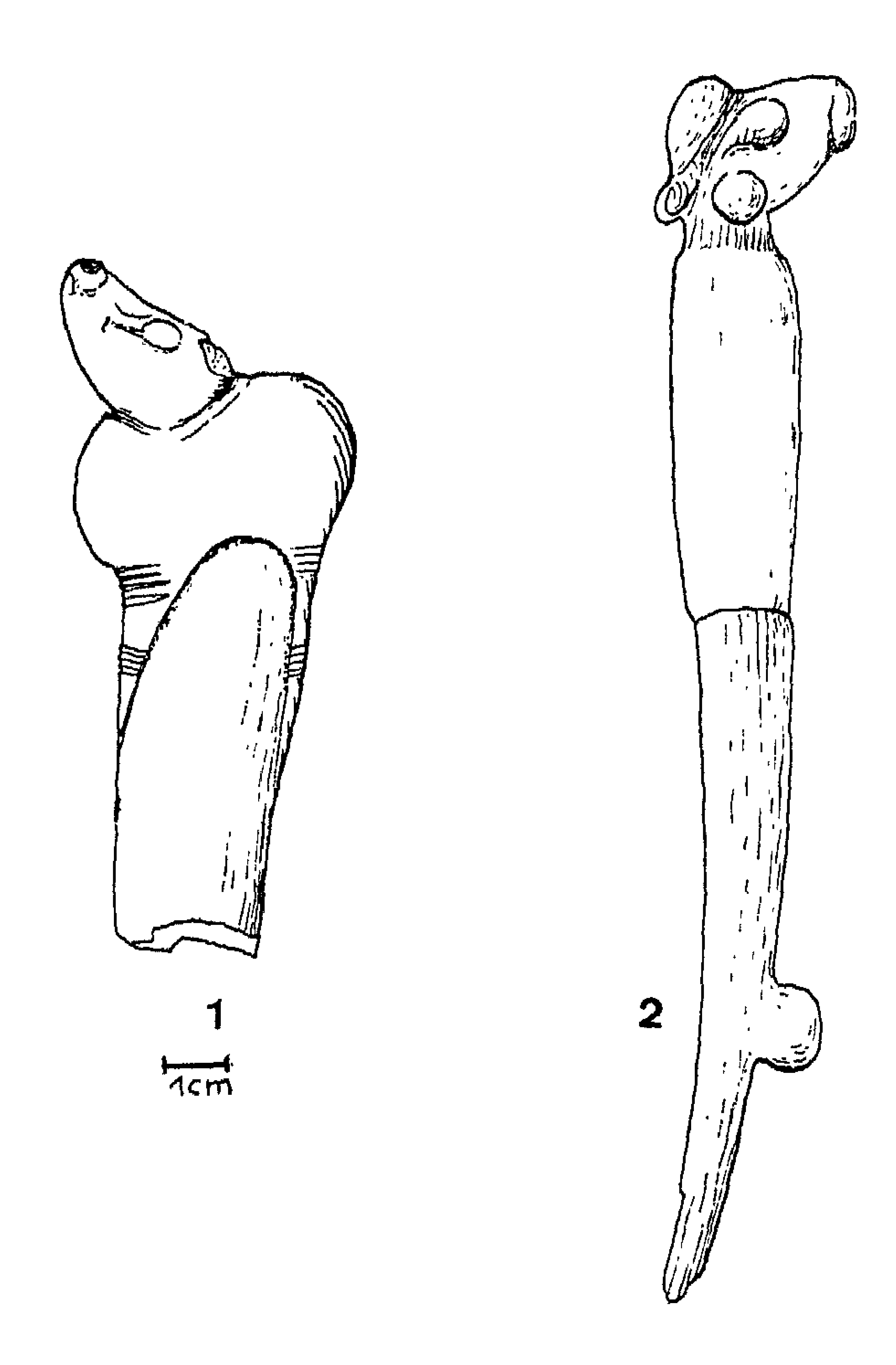
الفصـل الثـانـي

الديانة النطوفية

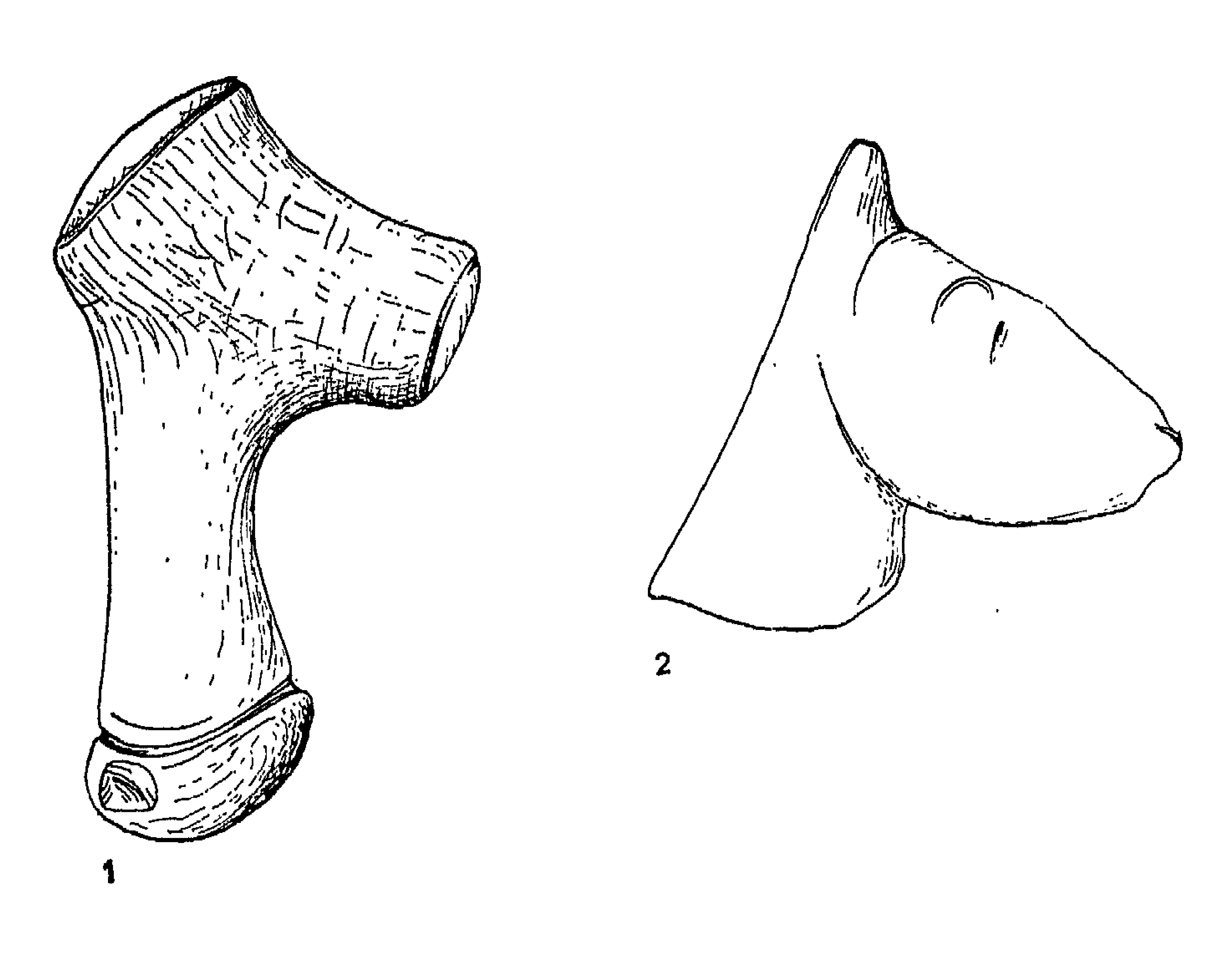
لا نعرف إلا القليل عن عصور ما قبل التاريخ التي سبقت الألف الثامن في سورية الشمالية ، ولكن المنطقة التي تضم كل فلسطين وسورية حتى مستوى بيروت ، لتصل دلتا النيل جنوباً قد شُغِلت في الألف التاسع من قبل حضارة أصبحت معروفة الآن بشكل جيد : إنها الحضارة النطوفية . لقد حصلت الاكتشافات الاولى لهذه الحضارة من قبل مالون (A. Mallon) وغارود (D.Garrod) (Garrod 1932) في موقع شقبه في وادي النطوف بفلسطين . وهناك مغارتان في جبل الكرمل هما مغارة الواد ومغارة الكبارا (Turville- Petre 1932)و (Garrod et Bate. 1937) ومواقع فلسطينية أخرى هي عرق الأحمر ، ام الزويتينة ، عين صخري ، اكتشفت من قبل نوفيل (Neuville 1951) اضافة الى السوية النطوفية في يبرود في سورية (Rust, 1950) والتنقيبات الأخيرة في اريحا (Kenyon 1957) وعين الملاحة (Perrot, 1966- b) والخيام (Echegaray, 1966) وناحال اورن (Stekelis et,Yizarely 1963) . الخ هذه المواقع أكملت المعلومات المتوفرة حول ذلك العصر (الشكل ٢) إن الأدوات الحجرية في العصر النظوفي كانت تتميز بوفرة الأدوات الميكروليتية الهندسية

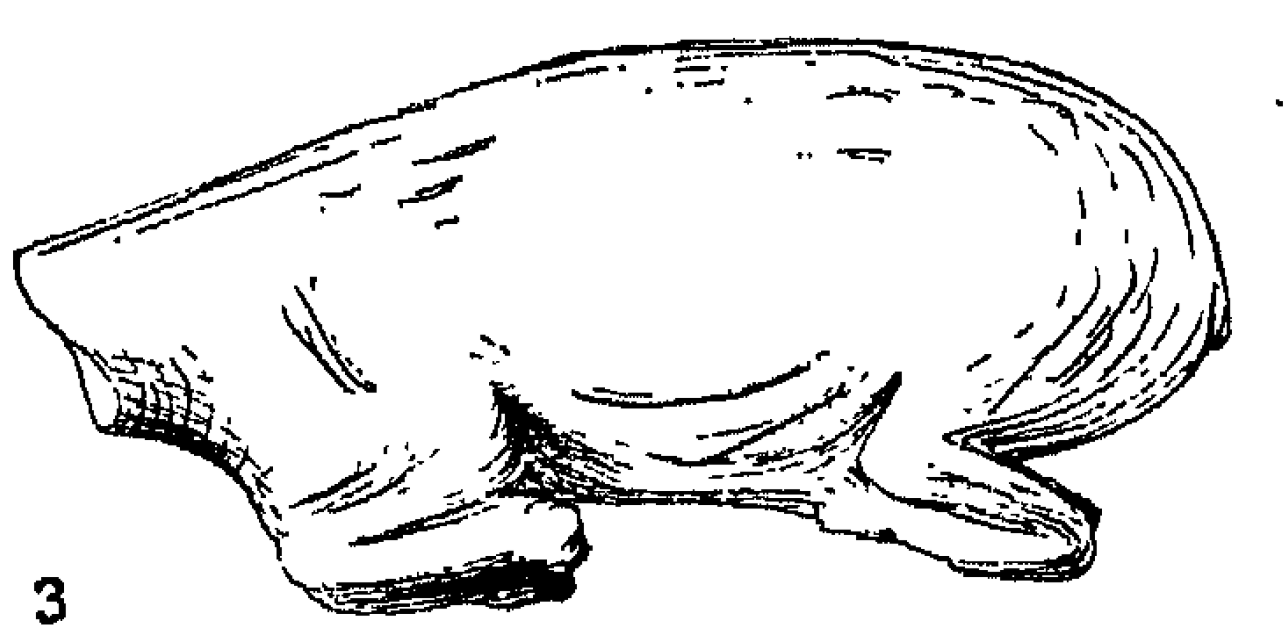
(Epipaléolithique) مثل الصناعات الباليوليتية المتأخرة (Microlithes- geométriques) ، وخاصة الأدوات الصغيرة (Segments) التي تشبه شكل الهلال (Croissants) اضافة الى القليل من الأدوات الهندسية الأخرى ، على شكل مثلث او مستطيل ، والعديد من النصيلات المظهرة والنصال والحراب المظهرة ، والأزاميل والمكاشط وأدوات أخرى مصنعة على الوجهين (معاول). إن النسب المتتالية لتواجد أنواع هذه الأدوات تبدو متباينة كثيراً (M. C. Cauvin 1966) وعليه فقد كان من المتعذر أن نعرِّف النطوفي ، ولا حتى أي من أنواعه المحلية ، كصناعة ثابتة كمياً كما هو الحال في صناعات الباليوليت الأعلى . إن هذا الواقع يدل على مرونة جديدة في التكيف ضمن بيئات جغرافية خاصة ، وقد انعكس ذلك على شكل انشطة متباينة بين مجتمع وآخر (J. Cauvin 1969 p. 326) .

إن النشاط الغذائي لا زال يعتمد على الصيد والالتقاط ، كما أن العديد من النصال ؛ ذات اللمعة الخاصة ، التي اتت من جبل الكرمل وعين الملاحة وأم الزويتينية يدل على نشاط مكثف في التقاط النباتات البرية . وتعتبر المجاريش وأدوات السحق من الأثاث المنزلي الطبيعي ، في حين انتشر صيد الاسماك من البحيرات والمستنقعات وبعض المجاري المائية الدائمة التي اقام النطوفيون بجوارها . وقد دلت على هذا الصيد الخطاطيف والصنانير وبقايا عظام الأسماك التي وجدت . كما كان صيد الحيوانات نشاطاً هاما أيضاً ، دلت عليه البقايا العظمية وقد طال هذا الصيد الحيوانات التي ساعدت الظروف المناخية ، التي سادت في فلسطين ، على تكاثرها بجوار المواقع السكنية . فالغزال حيوان يعيش في الأماكن المكشوفة (السهوب) حيث المناخ الجاف قليل الأمطار ، لذلك فقد ساد هذا الغزال بشكل واضح في كل المناطق . وهناك ، بنسب متفاوتة ، الايل الأسمر الرافدي (Daim de Mésopotamie) والايل ، واليحمور ، والخنزير البري (هذا الخنزير وجد بكثرة في عين الملاحة). بينما استمرت ، هنا أو هناك ، بعض الحيوانات التي تعيش في الغابات المغطاة بالأشجار التي سادت في العصر المناخي الرطب السابق . كما وجد الثور البري ، في كل مكان تقريباً ، والخيليات التي أثار تمييزها تبايناً بين الباحثين . ان كل هذه الحيوانات كانت برية وغير



الشكل ٣ : قبضات مناجل منحوتة من العصر النطوفي :
١ ـ مغارة الواد ٢ ـ مغارة الكبارا (عن غـارود رقم ١ وتورفيل بيتر، رقم ٢)





الشكل ٤ : تماثيل حيوانية نطوفية : ١ ـ ٢ ناحال اورن، ٣ ـ أم الزويتينة (عن ستكليس رقم ١-٢، نوفيل رقم ٣) .

مدجنة وقد اعتبر الكلب الحيوان المدجن الوحيد ، حيث عثر بات (Bate) على جمجمة كلب من نوع : (Canis Familiaris) في مغارة الواد السوية B ، ولكن كلوتن بروك ، رفضت هذا الرأي (Clutton-Brock 1962) وهكذا فلا توجد براهين حقيقية على تدجين الكلب قبل عصر النيوليت ما قبل الفخاري في اريحا . كما أنه لا يوجد تغير أساسي في الاقتصاد الغذائي بين العصر البالوليتي وعصر النطوفيين الذين تأقلموا مع التغيرات البيئوية الجديدة ، ولكن حصلت ، في ذلك العصر ، الخطوات الأولى على طريق الاستقرار الذي قاد في العصور اللاحقة ، إلى الزراعة والعمران. لقد سكن النطوفيون ، عموماً، امام المغائر والملاجىء، مثل سابقيهم في الباليوليت، ولم يتركوا إلا القليل من آثار البناء. ولكن عين الملاحةتعتبر النموذج الحقيقي للقرية التي ضمت أبنية وتجمعاً سكانياً دائماً . لقد حفرت «البيوت» في الأرض وكان لها جدران دائرية من الحجر بقيت محفوظة أحياناً حتى ارتفاع متر واحد . الأرضيات كانت غالباً مرصوفة بالحصى ومحفورة فيها المواقد والأحواض . إن الابنية ، اضافة الى الأثاث الثقيل الذي وجد فيها وما أظهرته الدراسات حول مصادر الغذاء ، قادت بيرو (Perrot) الى اعتبار عين الملاحة مركزاً سكنياً دائماً ، قدر عدد بيوت السوية الواحدة فيه بخمسين بيتاً أقام فيها بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ انساناً . وفيما يخص الديانة النطوفية التي تعنينا فاننا نملك ، من جهة ، عدة قطع منحوتة من الحجر أو من العظم ، ومن جهة أخرى ، العديد من القبور ، أتت كلها من المواقع النطوفية .

التماثيل الصغيرة

إن الستة عشر تمثالاً صغيراً المعروفة لدينا تدل على تقنية متطورة للنقش تصحبها واقعية متجذرة . ولكن في حالات أخرى هناك تبسيط شديد ، سببه ليس دائماً طبيعة مقاومة المواد الخام ، مما يجعل تفسير مثل تلك الحالات صعباً ، علماً بأن هذين النمطين ، الواقعي والمبسط ، يمكن أن يتواجدا معاً في الموقع الواحد . والتماثيل عبارة عن تصوير للحيوانات أو للبشر . الفنون الحيوانية تضم حوالي عشر قطع احداها هي التمثال الرائع لحيوان مجتر وجده نوفيل (Neuville)

في ام الزويتينية (الشكل ٤ رقم ٣) . لقد صنع هذا التمثال من الحجر الرمادي وهو يجسد ، بواقعية كبيرة ، حيواناً مجتراً ، بلا رأس ، يظهر جالساً ، رقبته طويلة وذيله قصير وقوائمه رفيعة ، يذكر شكله بالغزال الذي وجدت عظامه بكثرة في هذا الموقع (Vaufrey, 1951, p 214) وقد كان التمثال مطلياً بالمغرة الحمراء . وهناك أيضاً رأس مختزل بشدة ، نسب من قبل ستكليس (Steklis) ويزرائيلي (Yizraely) لغزال ، وجد في السويد النطوفية ، من موقع ناحال اورن في جبل الكرمل (الشكل ٤ رقم ٢) كما وجد في هذا الموقع أيضاً ، تمثال آخر اكثر اختزالاً ، صنع من حجر الكالسيت ، وله وجه مزدوج ، نهايته تشبه رأس حيوان غامض ، يفصله عن الجسم «عنق» طويل فيه دائرتان على شكل العيون (الرقم ١) وفي نفس الموقع عثر على قرن غزال فتي ، محروق ومصقول ، يحمل في نهايتيه آثار نقش احداها تمثل حيواناً مجتراً بعيون كبيرة (Stekelis 1958 p. 772) .

وفي موقع آخر في جبل الكرمل ، هو مغارة الواد ، التي نقيت من قبل غارود ، عثر على قبضة منجل من العظم منحوتة بشكل واقعي جدا تمثل ، حسب مكتشفها ، إيلاً فتياً يرضع[1] الشكل ٣ رقم ١) .

وأخيراً فقد وجد تورفيل ـ بيتر (Turville- Petre) في مغارة الكبارا خمسة مقابض مناجل ، من العظم ، اربعة منها تنتهي على شكل رأس حيوان مجتر (رقم ٢) وقد مثلث العيون ، كما في مغارة الواد ، ضخمة ، وكانت هذه صفة دائمة ، ميزت الأشكال الفتية خاصة .

---

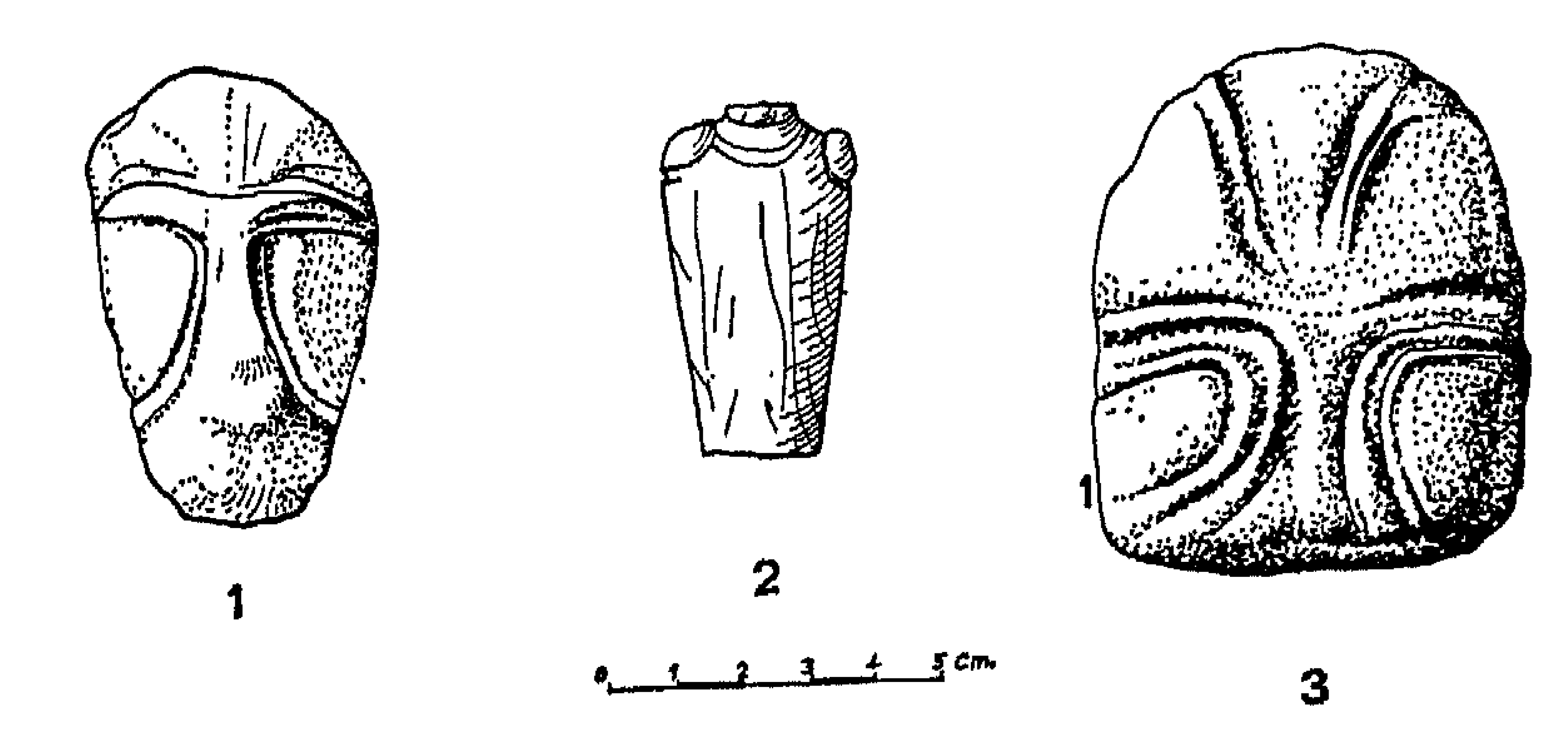
(١) ـ ان الاعتقاد بكونها إيلاً (Daim) يقوم حسب غارود ، على وجود «مجرى دمعي» أمام العين ، هذا المجرى يكون واضحا لدى هذا النوع من الحيوانات ، ولكن الغزال الذي وجد بكثرة في فلسطين يتميز بوجود خط يصل بين العين والشفة ، ويمكن أن يكون هذا الخط قد جسد عبر حزوز على التمثال . ومن جهة اخرى فان الايل ، على العكس من الغزال ، لم يصطاده النطوفيون في جبال الكرمل ، وغيابة في هذا العصر ، في حين أنه تواجد في العصر المطير السابق ، يشكل ، حسب بات ، دليلا على سيادة مناخ جاف جدا في العصر النطوفي . ولكن ذلك لا يعني عدم وجود بعض الايلة في ذلك العصر مع اننا يجب أن نتساءل بشكل جدي حول مدى واقعية تشخيص السيدة غارود لهذا الأثر ، علما بأن هذا التساؤل لم يطرح من قبل .

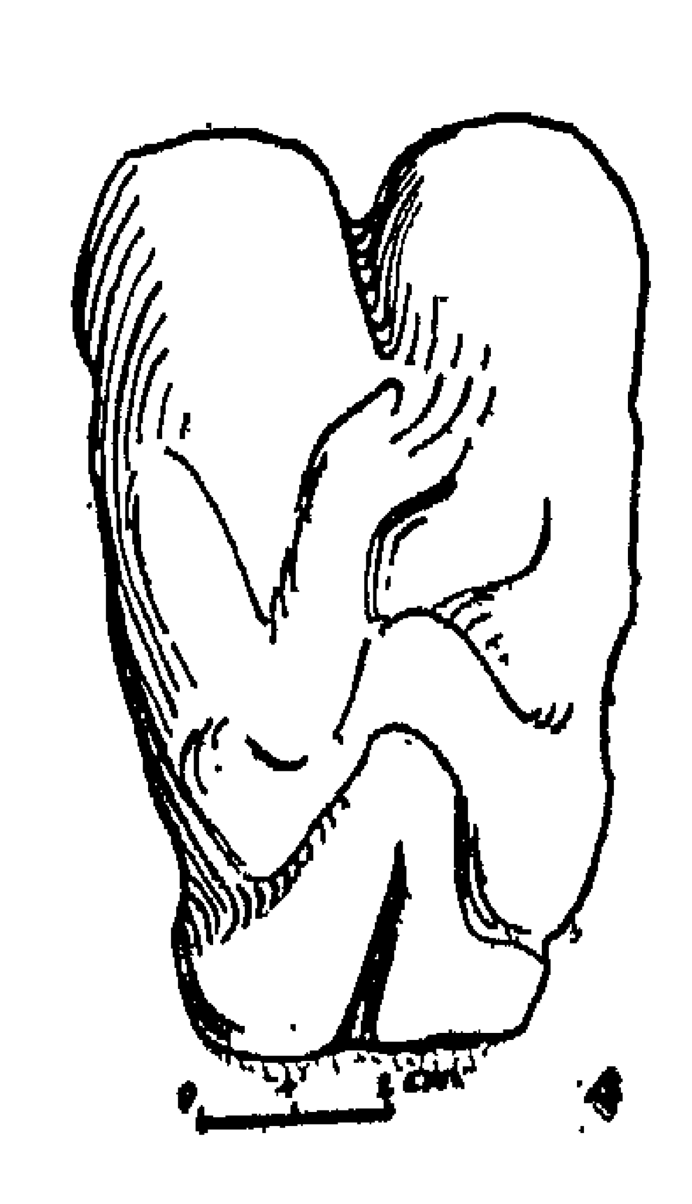
أما الأشكال الانسانية فهي تضم قبل كل شيء التمثال الغرامي الرائع الذي حصل عليه القس بروي (Breuil) من البدو ويعتقد نوفيل أن أصل التمثال من موقع عين صخري ، في وادي خريطوم (Neuville 1933 et 1951 p.133) . لقد صنع هذا التمثال ، من حجر الكالسيت ، (الشكل ٥ رقم ٤) الذي نحت بطريقة التخطيط والصقل ، وهو يمثل عملية جماع لشخصين جالسين صدراً بصدر . ونحن نتساءل فيما اذا كان التمثال الحجري الآخر الذي وجده ستكليس ويزرائيلي في ناحال اورن ، واعتبر ، مرة ، نطوفياً (Stekelis. 1961 - b pl. 97 n2) ومرة نيوليتياً (Stekelis et Yizraely 1963) ، فيما اذا كان هذا التمثال يجسد ، بشكل مختزل ، نفس الموضوع . ومن جهة ثانية فلقد عثر في مغارة الواد ، على رأس صغير من الكالسيت وهو رغم خشونته يجسد إنسانا واضحا (رقم ٥) . وأخيراً فقد وجد بيرو في عين الملاحة (1466-b) تمثالاً انسانيا (رقم ٢) من الكلس مطلي بالمعزة الحمراء ، فُقِد رأسه واقتصرت ذراعاه على جذع بسيط مما يجعل من الصعب تحديد جنس هذا التمثال . وهناك «حصوتان» (Galets) من الكالسيت وجدتا في نفس الموقع ، وتحملان نقشاً اعتبره بيرو يمثل وجهاً انسانياً (رقم ١و٣) مع انه لا يمكن قبول هذا التفسير بلا تحفظ [1] ، كما وجد بيرو أيضا (نفس المصدر الشكل ٢١) حجرين يحملان أشكالا هندسية هي خطوط متوازية ، مستقيمة أو معوجة ، يصعب تفسيرها .

هذه هي التماثيل النطوفية التي يجب أن نضيف لها ، بعض أدوات الزينة التي وجدت في القبور والتي تدل أيضا على ايديولوجيا ذلك العصر وهذه الأدوات عبارة عن صدف وأسنان ، ومن مغارة الواد وجدت اقراط من العظم ، ذات فصين ، من قطعة واحدة (الشكل ٦ رقم ٢) أ و من قطعتين متصلتين (رقم ١) وهذه الأقراط تذكر بأنواع مشابهة «أقراط مجنحة» (Perles à ailettes) تعود الى عصر الكالكوليت وجدت في غرب اوربا . وهناك أقراط أخرى (وجدت في الواد ،

---

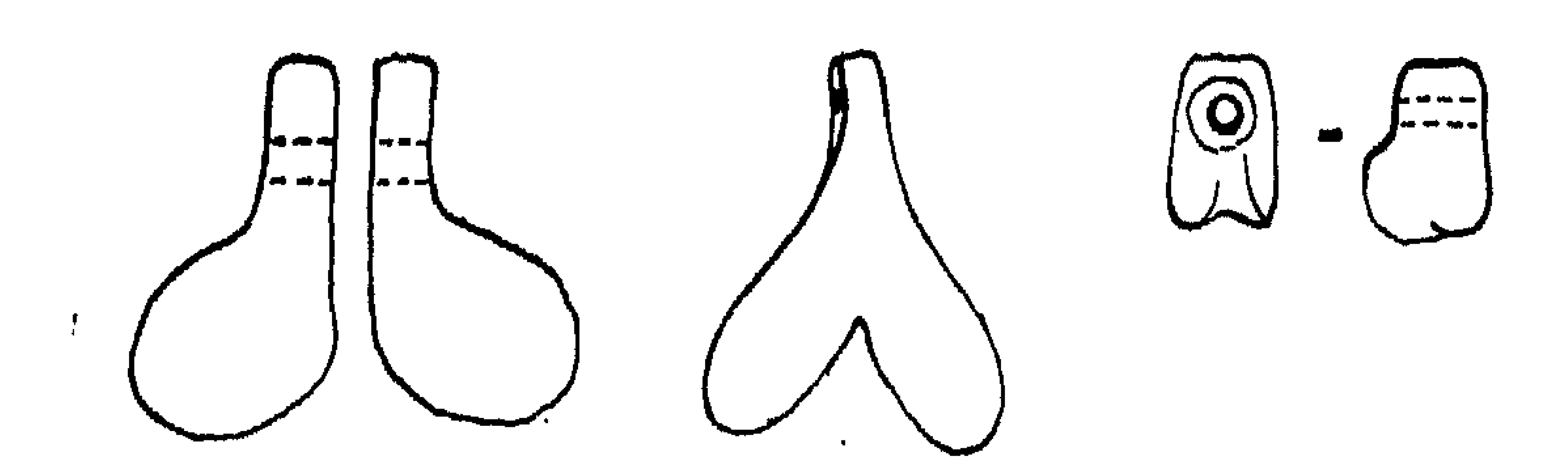
(١) ـ ويمكن أن نرى في الشكل رقم ٣ تجسيدا مختزلا لمشهد جنسي كما في تمثال عين صخري رقم ٤ .







الشكل ٥: تماثيل نطوفية: ١ ـ ٣ عين الملاحة ، ٤ ـ عين صخري ٥ ـ مغارة الواد (عن بيرو رقم ١-٣، نوفيل رقم ٤، غـارود رقم ٥) .



الشكل ٦: حلق من العصر النطوفي من مغارة الواد (عن غارود)

عرق الأحمر ، عين الملاحة) صنعت من النهايات البارزة لأصابع الغزال «العراقيب» (Phalanges) ، التي كان شكلها ، ذا الفصين ، الدافع لاختيارها . إننا نلاحظ سيادة موضوعين في التماثيل النطوفية ، الأول تصوير حيوانات مجترة كانت تشكل فرائس الصيد الرئيسية لدى النطوفيين ، والموضوع الثاني ، الذي يعيره أناتي (Anti 1963) أهمية كبيرة ، يعتمد على تصوير المواضع الجنسية . وفي الواقع فإن هذا الموضوع لا يظهر جلياً الا في تمثال عين صخري . ولكن ليس من المستحيل أن تكون الأقراط ، ذات الفصين ، تمثل بدورها الأعضاء الجنسية كما أن أناتي (Ibid 1965 p 161) يعتبر المدقات البازلتية في عين صخري ، والاحجار المصقولة التي وجدت في مغارة الواد ، رمزاً لقضيب الذكر . ويجب القول بأنه من الصعب أن لا تذكر المدقة مهما كانت «بالقضيب» مع أن الزخارف التي تحملها هذه المدقات لا تشكل دعماً كافياً ، لهذا التفسير[1] .

القبـــور

لقد وجدت التماثيل التي ذكرناها إما في داخل أو بجوار القبور مباشرة وهذه القبور هي إما فردية او جماعية . وتعتبر غارود أن القبور الفردية ، في مغارة الواد ، هي الأحدث . وتتواجد المدافن الفردية في كل المواقع ، بل انها تشكل القاعدة العامة في ناحال اورن ، حيث لا يوجد الا مدفنين مزدوجين ، وفي مغارة شقبة أيضا ، (Garrod 1942) . لقد دفنت الجثث بشكل مثني ، أو مقلص جداً (ناحال اورن) ودون توجه خاص وغالباً ما سند الرأس بالحجارة (ناحال اورن ، عين الملاحة) بينما غطت أحجار كبيرة المفاصل .

وقد تألفت القبور الجماعية من حفر دفن مغطاة من الأعلى بألواح من الأحجار المسطحة (الواد ، عرق الأحمر ، عين ملاحة) وأحيانا ، في عين ملاحة ، غطيت بلوح حجري واحد كبير . وفي عين الملاحة كان جدار احدى

---

(١) ـ انظر نوفيل ١٩٥١ الشكل ٥٨ وغارود ١٩٥٨ الشكل ١ : حيث توجد حالتان في الزخرفة على شكل اخايد هامشية او شعاعية لا تدل على شيء . وفي حالة ثالثة من الواد نحتت المدقة على شكل حافر حيوان مجتر مما يدل على رمز حيواني .

هذه الحفر مغطى بطلاء سميك من الطين والرمل عليه اثار طلاء أحمر ، بينما احاط جدار صغير ، من الحجر ، بالألواح الحجرية للغطاء . وكان هذا النوع من القبور يضم بين ثلاثة الى سبعة أشخاص في الواد ، وسبعة أشخاص في عرق الأحمر . وقد لاحظت السيدة غارود انه ، في موقع الواد ، لم تكن الهياكل مرصوفة بانتظام وانما موضوعة الواحد فوق الاخر وقد اضرت بها الأحجار الكبيرة (1957 p 220) . وفي عرق الأحمر لم يعثر إلا على جثة واحدة كاملة بينما تَمثَّل بقية الموتى من خلال جماجمهم فقط . وقد كانت هذه الجماجم في أوضاع متباينة جدا وبقرب كل منها وضع سن حصان . إن الطابع الجماعي لهذا المدفن يظهر من خلال اعادة دفن ثنائية لستة أشخاص اضافة الى سبعة سبقوهم الى نفس المدفن . وقد توصل بيرو إلى نتيجة مشابهة من عين الملاحة حيث عثر على مدفن جماعي معظم هياكله أضيفت فيها بعد بينما اقتصر الدفن الأولي فيه على شخص أو شخصين دفنا معاً (1966- b,p. 461)[(١)] إن حقيقة كون الجماجم تحظى بالاهتمام الأكبر (علما بان الاهتمام لم يكن وقفاً عليها) بين بقية الأجزاء المدفونة[(٢)] يدل على المكانة الخاصة للرأس في معتقدات المجتمعات النطوفية المتعلقة بما بعد الموت . ولكن ذلك لا يبرهن على أي شيء أكثر . رغم التفسيرات الشعائرية ، المبالغ فيها ، من قبل أنـاتي (نفس المصدر 178 -70 .pp) [(٣)] .

---

(١) - اثناء التنقيبات الحديثة (بار يوسف ١٩٧١) في تسعة قبور من موقع هايونيم النطوفي لوحظ ترافق القبور الفردية والجماعية وفيها دفن أولي وثنائي ولكن عكس القبور السابقة الأخرى فان معظم القبور الجماعية فيها دفن اولي فقط وهي قبور عائلية لازواج وأطفال .

(٢) - في موقع شقبه بين ثمانية قبور فردية لكبار واطفال ، يوجد فقط قبر واحد ثنائي وهو يضم اضافة الى الجمجمة عظام العضد والزند والفخذ ومجموعة سلاميات .

(٣) - لقد أدهش اناتي وجود فقرتين للرقبة مع جمجمة في عين الملاحة واستنتج وجود عادة قطع الرأس ، بعد الموت أو قبله ، كما لاحظ أن بعض العظام المدفونة ،عظام الساعد والفخذ ، قد حافظت على اتصالها (بيرو نفس المصدر ص ٤٦١) واعتبر ذلك دليلا على عادة تقطيع جثة الميت بشكل عام . وفي الواقع فان الفترة الزمنية القصيرة التي تفصل بين مرحلتي الدفن ، الاول والثاني ، من الممكن أن تكون قد ساعدت على بقاء بعض الأعضاء متصلة مع بعضها .

ويلاحظ أخيراً الوجود الكثيف لأجزاء من المغرّة الحمراء في الحفر كالحفرة رقم ٢٥ في عين ملاحة ، التي وجدت فيها ثلاثة عراقيب غزلان مما يؤكد الأهمية الرمزية ، لهذا الحيوان ، التي دلت عليها التماثيل أيضاً .

استنتاج حول الديانة النطوفية

إن جدولة الوثائق الفنية والدينية النطوفية تظهر عدة قضايا ، أولها ، أهمية الفن الحيواني (٦٠٪ من التماثيل) وذلك منذ بداية الحضارة النطوفية ، لأن الطبقة التي حوت آثار ذلك الفن في مغارة الواد كانت الأكثر قدماً . إن الاتجاه نحو تجسيد الآلهة على شكل حيوانات هو تقليد باليوليتي ، استمر وشكل الصفة العامة لمجتمعات الصيد . ولقد كانت هذه الحيوانات موضوع اختيار ايديولوجي أيضاً ، أكثر مما كان الحال في الباليوليت (انظر لوروا-غوران ١٩٦٥ ص ٨٢) لأن أنواع الحيوانات التي صورت هي أقل بكثير من الأنواع التي تم اصطيادها فعلاً . فلم يتم التطرق للثور ولا للخنزير البري رغم أنه لا يمكن اهمال دورهما الغذائي الهام . وانما وقع الاختيار على حيوانات مجترة كالغزال وربما الايل الاسمر . إن كون الغزال يمثل الحيوان الذي تم اصطياده بشكل رئيسي في العصر النطوفي قد يدل على أن الاختيار الفني قد كان له دوافع اقتصادية ، ولكن ذلك لم يكن الحالة السائدة دائماً[1] . انه من المستحيل ان نقرر فيما اذا كان الدور الغذائي للغزال يكفي لتفسير مكانته الفنية ، أو أن هناك صفات أخرى تبرر ذلك الاختيار . علماً بأن الحيوان الصغير الذي ظهر بوضعية الرضاعة يمكن أن يكون له رمز غذائي[2] كما أن الأقراط ذات الفصين ، التي اعتقد بعض الباحثين انها ترمز الى الاعضاء الذكرية ، يمكن أن تذكر بالثديين ، وذلك اذا أخذنا بعين الاعتبار شكلها المتطاول المنقسم الذي يشبه حلمات الماعز أو الغزلان . وأخيرا يلاحظ ترافق ،

(١) - لقد صور الايل أيضاً علما بأنه ، عكس الغزال كان حيواناً نادراً .

(٢) - وذلك اذا اعتبرنا شكل رأسه المرفوع ، لم تفرضه طبيعة المادة العظمية المنحوتة .

تكرر خمس مرات ، لحيوان مجتر - منجل لأن قبضات المناجل كانت مزخرفة على شكل حيوانات . ان المناجل أدوات التقاط رائعة للحبوب البرية ، التي شكلت المصدر الغذائي الثاني والهام الى جانب الصيد ، مع انه لا علاقة لهذه الأدوات بنشاط الصيد . فإذا كان لهذا الترافق من معنى ، فإن وظيفة الفن لدى البدائيين لا تسمح لنا بادراكه ، ونحن لا نرى كيف يمكن أن نفسر ذلك المعنى بعيداً عن مفهوم خصوبة الأرض الغذائية ، الذي كان أوسع انتشاراً من مفهوم الصيد الذي تدل عليه الحيوانات المجترة ، ولا بد أن تكون هناك علاقة رمزية ما بين الصيد والحصاد هذه العلاقة التي ربما تم التعبير عنها من خلال اسطورة ما ولكن ليست لدينا عن مثل تلك الأسطورة أية فكرة[1] .

كما أن وجود عراقيب الغزلان في بعض القبور يشير الى دلالة دينية لهذا الحيوان ، وربما للحصان أيضا وذلك اذا أخذ بعين الاعتبار نموذج عرق الأحمر .

كل ذلك لن يأخذنا بعيدا في التفسير بسبب غياب النماذج المترافقة الأكثر دلالة . ولكن يمكن أن نجري مقارنة مع الفرضيات التي طرحها الاتنولوجيون حول ايديولوجيا شعوب الصيد البدائية التي سبقت ظهور الزراعة . ويعتقد جونسون (1954. p. 156) أن هذه الشعوب كانت تميل بشكل مقصود ليس فقط لتمثيل الاله ، قبل كل شيء ، على شكل حيوان ، وهذا ما تؤكده الاكتشاف من عصور ما قبل التاريخ ، وانما الى تشخيص هذا الاله ، تحت صورة «سيد الحيوانات» وحامي الطرائد وسيد الحياة عموماً ، ليأخذ شكل الحيوان الذي اصطيد بشكل أكبر والذي تم تخيله بصفات منفردة كالحجم الضخم الذي يؤكد بشكل ما على جوهره الخارق للعادة . وقد تضاعف وجود مثل هؤلاء «السادة» في العصور الأحدث ، فكان لكل نوع حيواني تجسيده الخاص كما جسد الكثير من الظواهر الطبيعية . (Ibid p.158) .

(١) - إن ترافق اداة الحصاد مع حيوان صغير مجتر ، الذي تشير له الزخارف على المناجل . يمكن أن يتناسب مع دورهما المشترك وهو في هذه الحالة جسد على شكل علاقة عضوية «ابوية» بين النبات والحيوان الصغير في اطار الطبيعية المقدسة التي صورت على شكل حيوان كبير . إن ذلك ليس إلا فرضية .

من كل الذي رأيناه ، ليس هناك ما ينافي أن يكون للغزال دور في العصر النطوفي في فلسطين ، ففي النتيجة :

١ ـ كان الغزال هو الذي تم اصطياده أكثر من أي نوع آخر .

٢ ـ ويمكن أن يكون هذا الحيوان الوحيد الذي جسدّه الفن مع أن صعوبة تحديد أنواع الحيوانات التي جسدّتها التماثيل ، تجعل هذه النقطة مثاراً للشك .

٣ ـ كان للغزال رمز جنائزي لأن قرونه وجدت في القبور .

٤ ـ وهذا الحيوان (او حيوان آخر يشبهه) كان مرتبطاً بشكل رمزي بالنشاط الغذائي المتعلق بالالتقاط ، دون سواه من المملكة الحيوانية ،لذلك لسنا في حالة الغزال ، بعيدين جدا عن وجود «القدرة الشاملة» (Compétence Universelle) المنسوبة لـ «سيد الحيوانات» ولكن لا يمكننا ، على كل حال تعميم النموذج التطوري الذي اقترحه جونسون وهو : بأن «الاقتصار على واحد» (réduction à l'un) . الذي يقوم على الهيمنة الايديولوجية لنوع واحد كان ، بالضرورة ، بدائياً ، علماً بأن الفن الفرانكو ـ كانتابري الذي سبق العصر النطوفي قد جسد أنواعاً حيوانية عديدة ، ورموزاً بالغة التعقيد . ولكن ضآلة المعلومات ، في الحالة الأولى (الفن النطوفي) لا تسمح باقرار التوازي بين هذين العصرين .

وفي الواقع فإنه ليس لدينا أي مؤشر من العصر النطوفي حول الطريقة التي صنفت فيها ظواهر الطبيعية الاخرى ولا عن الأساطير التي عكست هذا التصنيف ، والدور المتميز للغزال نفسه .

كما أن الاستخدام الجنائزي لاسنان الخيليات لا يشكل الا مؤشراً معزولاً وغير كافٍ .

وفيما يخص الأشكال الانسانية ، يظهر أن دورها كان ثانوياً لكنه أكثر أهمية منه في العصر الباليوليتي .

ويريد أناتي (Ibid p.161) أن يرى في المجموعة الجنسية من عين صخري (الشكل ٥ رقم ٤) دليل وجود شعائر جنسية تتعلق بالخصب . وهذا يتجاهل المبدأ المعلن من قبل لوك (Luquet) والمكرر عبر لامنغ ـ امبرير .(Ibid p.139) والذي يقول بأن الطقس (rite) ، الذي يعتبر بحد ذاته التمثيل الحي لعمل مقدس ، لم

يكن بحاجة لأن يصور بدوره . إلا إذا افترضنا ، لدى مجتمعات ما قبل التاريخ ، سلسلة من المفاهيم المجردة التي يصعب ادراكها . ولكن على أبعد تقدير يمكن الاستنتاج بأن الفعل الجنسي كان يعتبر «كحالة ـ مفتاح» (Situation- clé) لها قيمة مقدسة ، وهذا مفهوم شائع نسبياً ، ونجده بوضوح لدى البدائيين في النيوليت الأناضولي (Mellaart 1967) . إن ما يدهش هو غياب اي دليل جنسي في مجموعة التماثيل الفردية ، فلا شيء يذكر هنا بموضوع «الربة الأم» الذي سيظهر في النيوليت اللاحق ، في نفس المنطقة، والذي ظهر في اوربا منذ العصر الباليوليتي . ونحن نتساءل فيما إذا يمكننا أن نستنتج افتراضاً يقول بأن القوة العليا التي هيمنت على الحياة قد صورت على شكل حيواني محض .

من وجهة نظر تاريخ التصوير الديني يلاحظ أنه لا توجد أية خصوصية في أسلوب الأشكال النطوفية ، تؤكد الصفات المقدسة لهذه الأشكال ، عبر ما هو مختلف عن حقائقها المميزة التي تظهر في حياتها اليومية . ويمكن أن نطلق هذا الحكم على الفن الحيواني الباليوليتي الذي بقي وفياً لنماذجه الحية ، ولم يُظهر الطابع الرمزي إلا عبر الاقتران المنظم لهذه النماذج . ولكن فيما يتعلق بـ «فينوس» فقد كانت تمثلها كائنات متخيلة انعكست من خلال تشويه الصفات التشريحية الانثوية بواسطة التركيز على صفات لها دلالتها (لوروا ـ غوران) (1965 p.64) لقد وجد في العصر النطوفي الاختزال (schématisme) الذي يبسط ويلخص الحقائق المستحضرة ولكن لا وجود للخيال الذي ينبع من العناصر المستمدة من الطبيعة ليعيد خلق كائنات غير واقعية بالكامل . ومن هذه النقطة انطلق في الشرق الأدنى التطور الذي سيتحرر تدريجياً من تلك الواقعية الأولى ليعطي دوراً أكبر للخيال الابداعي .

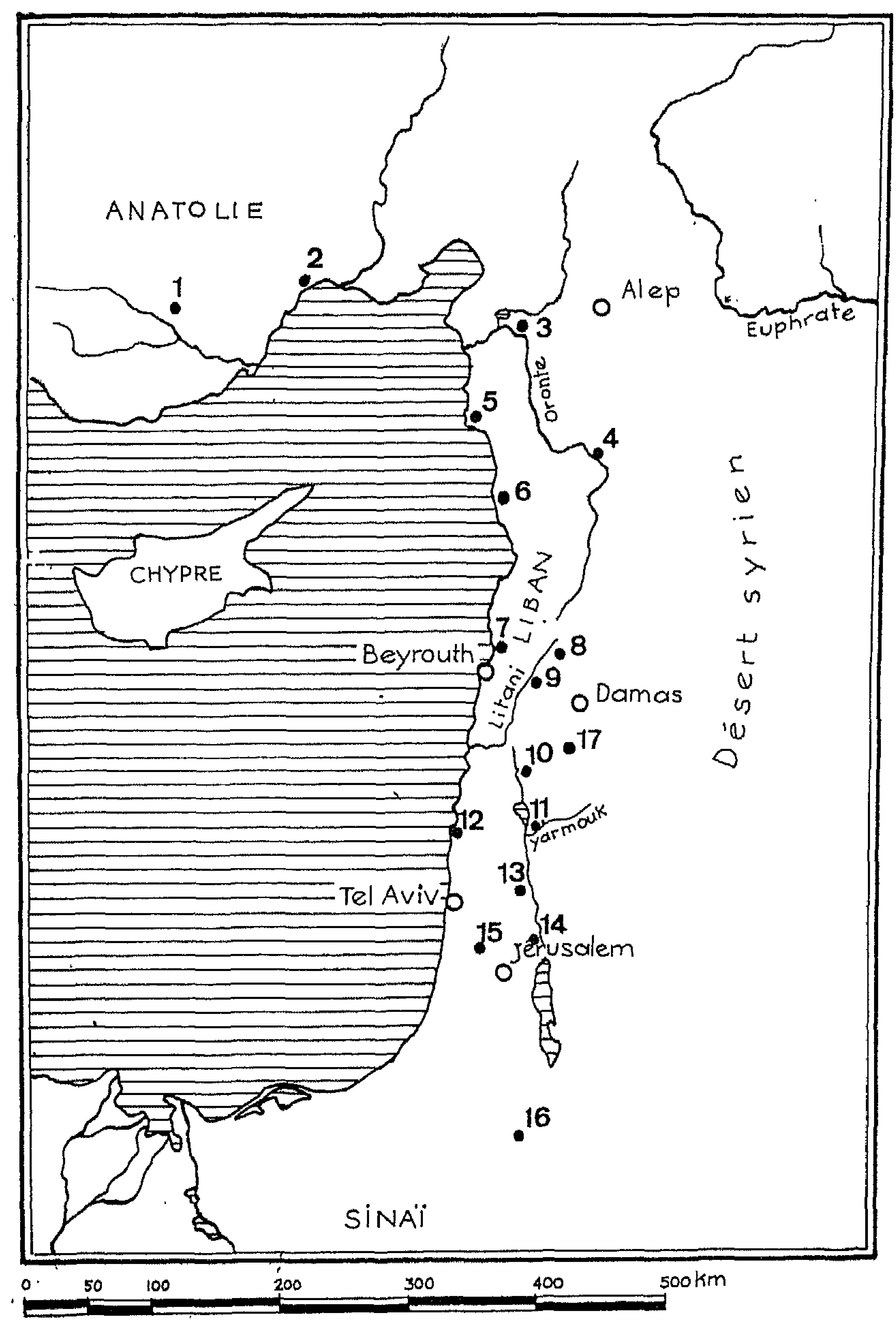
الفصل الثالث

النيوليت ما قبل الفخاري الأول في فلسطين

يمكن أن نعتبر الحضارة التي ازدهرت في الألف الثامن والسابع ق.م ، في فلسطين وفي أطرافها ، كتطور من العصر النطوفي ، هذه الحضارة تمثلت في سويات عصر «ما قبل النيوليت» (Portonéolithique) والنيوليت ما قبل الفخاري آ (Néolithique Précéramique A) في أريحا ، وفي الطبقة الثانية من ناحال اورن والسويات السادسة حتى الرابعة في البيضا ، والطبقات الحديثة ، الرابعة حتى الأولى ، في موقع الخيام (Perrot 1951, Echegaray ,1966) وفي موقع الطيبة السوري في حوران (Cauvin 1962) وربما في بعض المواقع اللبنانية في المنطقة الرملية في بيروت (Zomoffen 1900) هذه هي أهم المواقع لهذا العصر (الشكل ٧) الذي غالباً ما اسميت صناعاته «بالنطوفية الاخيرة» (Natufien Final) .

لقد وجد في أريحا وناحال اورن والبيضا بيوت دائرية على نفس مخطط البيوت السابقة من عين الملاحة ، ارضياتها من الطين ولكن جدرانها من اللبن

(١) - P.P. N. A Pre- pottery Neolithic A



الشكل ٧: المواقع النيوليتية في سورية ـ فلسطين . ٣ ـ الجديدة ٤ ـ حماه ٥ ـ رأس الشمرة ٦ ـ تبة الحمام ٧ ـ جبيل ٨ ـ تل لبوه ٩ ـ تل نبع فاعور ١٠ ـ هاغوشيرم ١١ ـ شارهاغولان ١٢ ـ ناحال اورن ١٣ ـ منهاتا ١٤ ـ اريحا ١٥ ـ ابو غوش ١٦ ـ البيضا ١٧ ـ تل الرماد . في الأناضول : ١ ـ شاتال هويوك.في كيليكيا : ٢ ـ مرسين .

النيء (Brique crue) . إن العثور في اريحا على برج دائري ضخم من الحجر ارتفاعه ثمانية أمتار ، وعلى جدار سميك يبدو محاطاً بخندق ، دفع كينيون الى استنتاج وجود نظام دفاعي قوي ودخول التطور الاجتماعي مرحلة العمران (Urbain) (Kenyon 1960 pp. 44-46) . وفي الواقع فإن المساحة الصغيرة المنقبة قياسا الى مساحة تل أريحا الكبير لا تكفي لاقناعنا بالوظيفة الدفاعية لهذا البرج الفريد من نوعه حتى الآن . واذا قبلنا بوجود الأسوار الدفاعية فإن ذلك يجب أن يدل على وجود تنظيم اجتماعي مركب ولكن الآثار الأخرى من أريحا لا تؤكد قيام مثل ذلك التنظيم الذي يرقي الى مرحلة «العمران» . مع أن السيدة كينيون حاولت البرهان على وجود المجتمع المنظم ، اعتماداً على الحاجة للري (Ibid p 45) ولكننا نعلم الآن أن السكن في بيوت جماعية دائمة لا يدل بالضرورة على ممارسة الزراعة . علماً بأنه لم يعثر لا في أريحا ولا في غيرها على دلائل زراعة من هذا العصر ، اذ لم يتم بعد تخطي المرحلة النطوفية في التقاط النباتات البرية بينما يلاحظ تطور تقني في صنع الأدوات حيث ، اضافة الى الأدوات الميكروليتية السابقة ، ظهرت رؤوس النبال كما ظهرت ، بين الأدوات الثقيلة ، المقدات الى جانب المعاول النطوفية . لقد حدد دوكو (Ducos 1966) البيئة الحيوانية في مواقع الخيام والطيبة . فتبين بأن الغزال بقي هو الحيوان المهيمن في موقع الطيبة الصغير ، في سهوب حوران ، الذي سكن من قبل جماعة من الصيادين ، كما هيمن الغزال في اريحا (Zeuner) . وقد اصطيد الغزال في موقع الخيام ، في منطقة شبه جافة ولكنه لم يشكل في ذلك الموقع أكثر من ١٤٪ من الحيوانات التي سيطر فيها الماعز وشكل ٨٣٪ . وقد برهن دوكو أن سكان موقع الخيام قد دجنوا الماعز وهكذا يكون ذلك أول دليل للتدجين في الشرق الأدنى وسوف نرى كيف أن هذا التدجين هو من النوع الخاص الذي يطرح مشاكل تتعلق بالمعتقدات الدينية .

إن التقرير الأولي الذي نشره بركنس (Perkins 1966) حول موقع البيضا لم يتضمن دراسة للبقايا الحيوانية من مختلف السويات لذلك فمن الصعب القول فيما إذا كان دليل تدجين الماعز الذي لاحظه هذا المؤلف ، في القسم الثاني من النيوليت ما قبل الفخاري في الألف السابع ، صالحاً أيضا في السويات الدنيا من

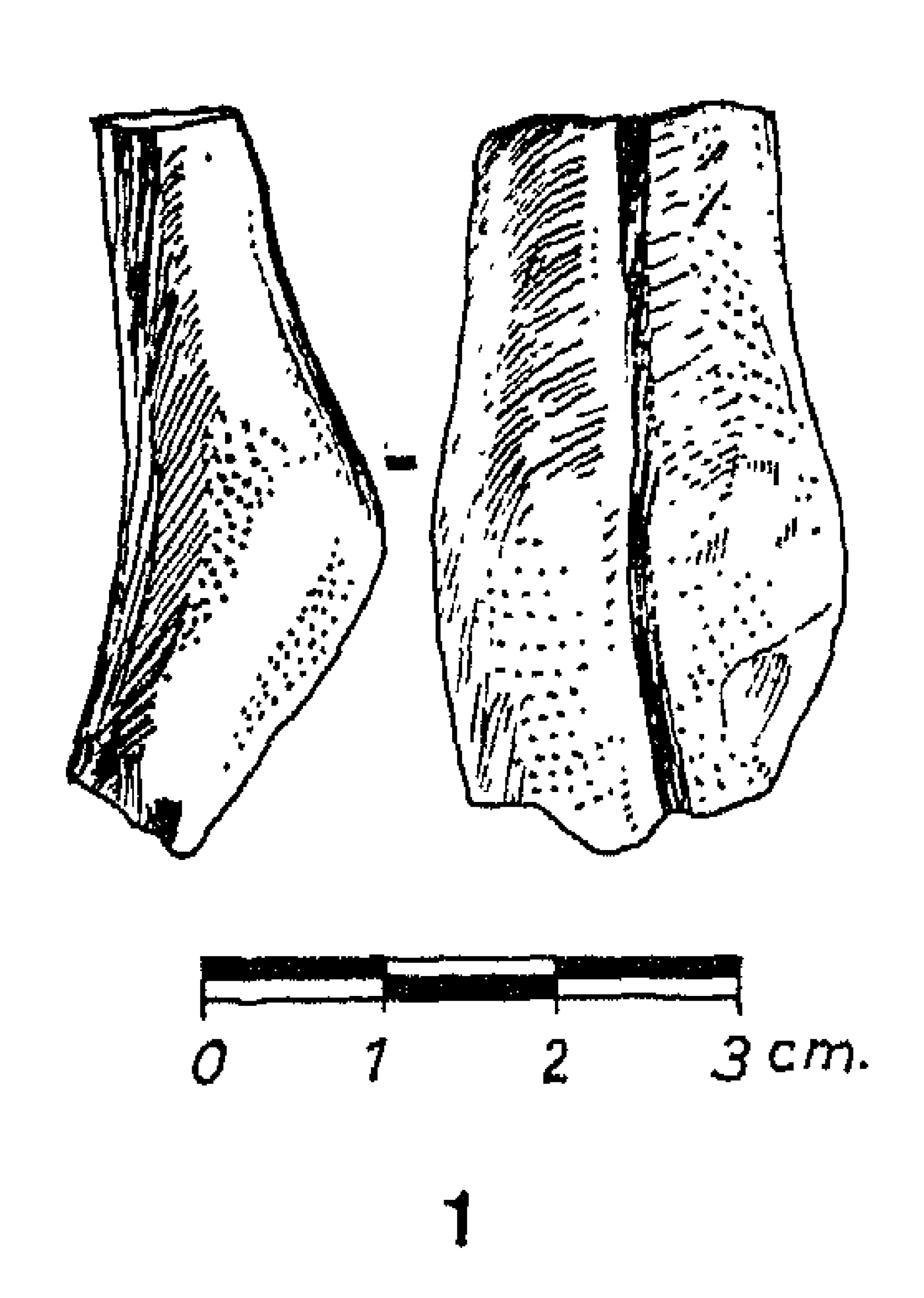
ذلك الموقع ، وهي السويات النطوفية التي تشتم منها رائحة هيمنة الماعز كما في موقع الخيام . ويعتقد زونز (1963 p 133) أن الماعز قد دجن في أريحا منذ عصر ما قبل الفخار ولكنه لم يستطع اثبات أن هذا التدجين يعود حتى عصر النيوليت ما قبل الفخار آ (P.P.N.A) .

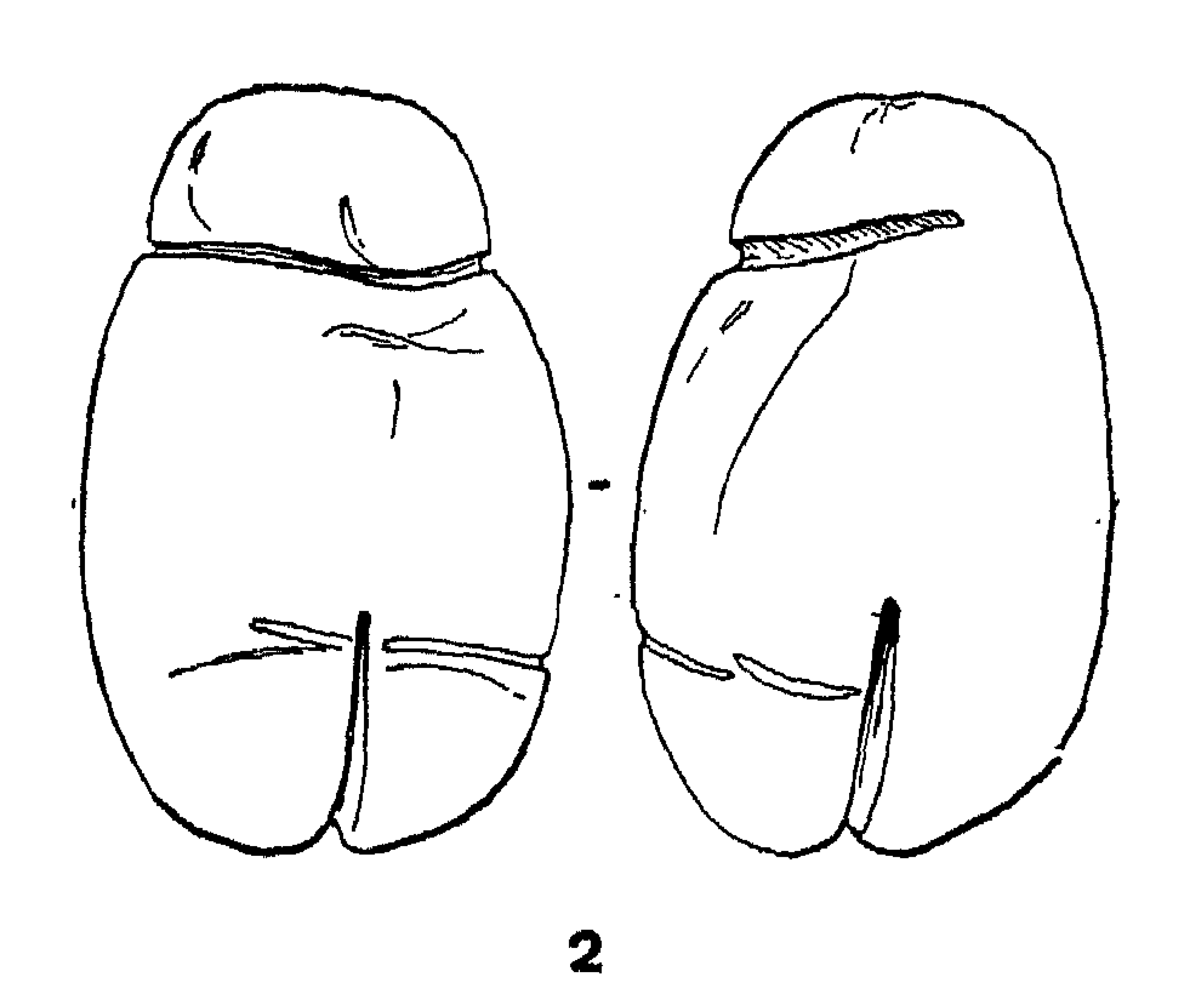
إن التجديد الأساسي الذي حصل في حياة الناس ، والذي يمكن أن يبرر استخدام التسمية التقليدية «النيوليت» ، هو بداية انتاج الطعام رغم أن ذلك بقي محصوراً في الاطار الحيواني وفي موقع واحد فقط . أما الوثائق ذات الطابع الديني فهي لا زالت نادرة ، وقد أتت فقط من أريحا والخيام وناحال اورن . وهذه الوثائق أيضاً مختلفة الطابع فهي أربعة تماثيل صغيرة من الخيام وناحال اورن ، ودلائل شعائر جنائزية من أريحا ، ودلائل شعائر التضحية بالحيوانات من الخيام ١ ـ ٢ .

إن هذه الأنماط الثلاثة يمكن أن تجتمع في اطار نظام ايديولوجي واحد ولكن المواقع المذكورة بعيدة عن بعضها لدرجة كبيرة مما يجعل قيام مثل هذا النظام غير مؤكد .

تماثيل الخيام وناحال اورن

ان السوية الرابعة في الخيام (الخيام II) توازي ، حسب منقب الموقع ، (Echegaray, 1966, p. 138) سوية ما قبل النيوليت في اريحا ، وتتبع هذه السوية مباشرة (الخيامي II) من الطبقة الخامسة التي يبدو أنها نطوفية . هذه السوية الرابعة تضمنت ، بين أدواتها ، دلائل دخول مبكر في العصر النيوليتي ، فقد ظهر فيها اضافة الى الأدوات الهندسية عدة رؤوس نبال لها فرض جانبية اسماها المنقب «نبال الخيام» كما أتى منها تمثال نسائي من الحجر الكلسي (الشكل ٨ رقم ١) تم تحديد جنسه اعتماداً على مؤخرته فقط ، التي نحتت بشكل بارز ولكن دون اظهار للتفاصيل . كما انه لم يشر الى بقية أجزاء الجسم الذي ظهر شكله الجانبي (Profil) ملتوياً مما جعل المؤخرة بارزة ، إن هذا النوع من التماثيل ذات المنظر الجانبي على





الشكل ٨: ماقبل الفخار آ في فلسطين ، تماثيل ذات شكل انساني من الحجر الكلسي : ١ـ الخيام ٤ ، ٢ـ ناحال اورن ٢ (عن ايشوجاري رقم١ ، ستكليس رقم ٢).

شكل قوس هو الذي أصبح ، في الألف الخامس ، يميز النموذج i من موقع شارها غولان (الشكل ٢٢) كما ان اظهار الجنس النسائي هو شيء جديد لكن الطابع النطوفي بقي واضحاً من خلال الواقعية الخفية وغياب المبالغة .

إن تمثال ناحال اورن (الشكل ٨ رقم ٢) هو بلا شك أحدث قليلاً كما أن الطابع النيوليتي للأدوات ، من هذا الموقع ، أكثر وضوحاً (Stekelis et Yizraely 1963) وقد وجد في سوية هذا العصر ، أبنية دائرية أرضها من التراب المدكوك (Pisé) وهذا ربما ، يسمح باعتبار هذه السوية ، في ناحال اورن معاصرة لسوية النيوليت ما قبل الفخار آ في اريحا . واما التمثال نفسه فهو من نوع مختلف جداً ، شديد الاختزال وقد أبرز شكله (الرأس والأطراف) من خلال نحت عميق على حصوة حجرية . ويعتبر هذا التمثال الأصل الذي سبق التماثيل النسائية المنفذة على الحصى والمنسوبة الى النموذج ٣ من شارها غولان (ص ٧٥) .

مشكلة التضحية بالحيوانات في الخيام

إن الملاحظات حول الطبقات ، ١ و٢ من الخيام تدل على أنها احدث من الطبقة التي أتى منها التمثال النسائي الذي ذكرناه ، والتي لم تعطِ كمية كافية من البقايا الحيوانية المحددة الأنواع . كما أن الصناعة الحجرية من تلك الطبقات تنسب ، كما ناحال اورن ، الى زمن معاصر للنيوليت ما قبل الفخار آ في أريحا . واعتماداً على التنقيبات القديمة لكل من نوفيل وبيرو ، فقد استنتج فوفري (Vaufrey 1951) إن سكان الخيام كانوا يربون الماعز. وأكد دوكو (1966) هذا الاستنتاج بعد التنقيبات الحديثة . وقد أثبتت احكام دوكو من النسبة العالية التي شكلتها عظام هذا الحيوان في الموقع (٨٣٪) وأكثرها كان من نوع: (Capra hircus) . كما اعتمد دوكو ، من جهة ثانية ، (Ibid p 1963) على الوفرة الغريبة (٢٠,٨٪) للأنواع الصغيرة جداً التي يقل عمرها عن الشهر ، هذه الوفرة التي لا تتماشى مع اقتصاد يعتمد على الصيد ، إلا إذا حصل هذا الصيد أثناء اقامة قصيرة في الموقع في وقت كان يتوالد فيه هذا الماعز ، إلا أن ذلك لا ينسجم مع حقيقة

وجود البناء في السوية الأولى ، كما أن النسبة العالية من عظام الماعز ، لا تتواجد لدى حيوانات أخرى فالغزال وهو حيوان الصيد الرئيسي في فلسطين لا يتجاوز هنا ١٤٪ . وأخيراً فإنه ليس من عادة مجتمعات الصيد التضحية بالحيوانات الصغيرة، ولكن هناك احتمال قيام هؤلاء الصيادين بمراقبة وتطوير القطيع البري الذي يعتمدون عليه في غذائهم . اما في اطار اقتصاد التدجين فإن مثل هذه التضحية معقولة ، بقدر ما تكون ممكنة ، فبدلاً من قتل الحيوانات الصغيرة لا على التعيين كما يفعل الصيادون ، فانه يجري هنا ، اختيار الأنواع المذكرة الصغيرة ، عدا تلك الضرورية من أجل التوالد .

إن فرضية التدجين هي الوحيدة التي يمكن أن تفسر الظاهرة المذكورة ، ولكن هذا التفسير لا يكون كافيا إذا بقي في اطار الاهتمامات العملية . لأن التضحية بصغار الماعز تضر بالمصالح المادية للمدجنين انفسهم ، وهكذا فان فكرة التضحية الدينية تأتي من هذا التناقض .

وحول أشكال التضحيات فهناك ظاهرتان بالغتا الأهمية لاحظهما دوكو (نفس المرجع ص ١٦٤) : الأولى هي الكمية الكبيرة للعظام ، الكاملة وهذه ظاهرة نادرة جداً في فضلات الطعام ، وخاصة عندما تكون عظام حيوانات صغيرة قليلة المقاومة وهذا يدل على أن تلحيم الضحايا حافظ على عدم تكسير عظامها كما أنها لم تتعرض الى حرارة عالية (نفس المرجع ص ١٦٤) مما يشير الى أن الضحية لم تؤكل ، أو على الأقل لم تؤكل الأقسام التي تم تحديد عظامها[١] وأما الظاهرة الثانية ذات الدلالة فهي غياب الجماجم والسلاميات ، مما يتناقض مع شروط الحفظ الطبيعية الأفضل لهذه الأجزاء ويدل على أن ذلك كان حالة مقصودة . ويفترض دوكو أنه كان هناك استخدام خاص لجلد الماعز ، وأن الرأس والنهايات السلامية قد نزعت مع الجلد . وسواء كان هذا الافتراض صحيحاً أو أن الرأس والقوائم قد فصلت لأهداف أخرى فاننا نلاحظ معاملة انتقائية لبعض

(١) ـ دراسة العظام لا يمكن أن تنفي أكل احشاء الحيوانات ، وتخرج عن اطار هذه الدراسة الأجزاء الأخرى من الهيكل العظمي التي يصعب تحديدها ، وفي حالتنا الراهنة فان الحكم يتعلق فقط بعظام الأطراف .

أعضاء الضحية ، مثل هذه المعاملة لا تتناقض ، بل تتوافق ، مع التبريرات الدينية لعملية قتل تلك الحيوانات .

ويستحضر دوكو في هذا السياق عادة ، التضحية بالحيوانات الصغيرة كانتاج التكاثر الأول ، التي كانت سائدة في فلسطين في العصور التاريخية . انه من المحتمل أن تكون جذور هذه العادة قديمة قدم عصر ما قبل الفخار ولكن لا يمكن ادراك دلالتها الحقيقية في ذلك العصر من خلال المقارنة بالعصور اللاحقة سيما وان مفهوم «الإله» لا بد أنه قد تطور مع الزمن . إن فكرة تقديم الاضاحي «لرب السماء القديم» التي يظن ايشوجاري (Echegaray) (نفس المصدر ص ١٥١) أنها تُستنتج من ملاحظات دوكو ، هذه الفكرة يبدو فيها قليل من المخاطرة ، وهي تعكس نظرية شميدت (P. Schmidt) ومدرسة ڤينا الاتنوغرافية حول موضوع التوحيد الاصلي (Momothéisme originel) . ومع أن بعض المجتمعات البدائية التي بقيت محافظة على طابعها حتى أيامنا (البجمة ، الاوستراليون ، الفوجيون) تحمل آثار اعتقاد بكائن سماوي أعلى ، يظهر انه كان في السابق يحتل مركز حياتهم الدينية ، قبل أن يندثر تاريخيا في وجه مفاهيم أخرى (Eliade, 1953, p60) . ولكن موضوع التوحيد الأولي والعام هو من الافتراضات الاتنولوجية التي لم تحسمها دراسة الديانات ما قبل التاريخية وقد رأينا انه كلما ابتعدنا بالزمن فإن عقيدة تقديس الحيوانات هي التي يبدو أنها تحتل الواجهة .

ومن جهة اخرى فإن فكرة التضحية ، كعلاقة شخصية بين الانسان والاله تقوم على الأخذ والعطاء (do ut des) كما يؤكد ايشوجاري ، ربما ليس فيها ، هي الأخرى شيئاً ، من البدائية ، وانما ، حسب جونسون ، تخص الحضارات الأحدث ، المسماة «حضارة المعلمين» (Civilisation des Maîtres) أي الحضارات الزراعية أو الرعوية التي أتت بعد الثورة العمرانية التي أدخلت علاقات تنظيم جديدة طالت الناس ومفاهيمهم المقدسة .

وبالمحصلة يمكن الإستنتاج بأن قتل الحيوانات المولودة حديثاً ، وبشكل شعائري هو محتمل جداً في الخيام ولكن ليس بالضرورة أن يكون هذا «تضحية» (Sacrifice) تحمل الدلالات الخاصة التي تتضمنها هذه الكلمة الآن .

الشعائر الجنائزية في أريحا في النيوليت ما قبل الفخار آ

لا نعرف شيئاً عن الشعائر الجنائزية من مواقع الخيام وناحال اورن ، لأن التنقيبات في تلك المواقع لم تكشف عن قبور . وبالمقابل تقول كينيون عدة كلمات حول شعائر أريحا المؤرخة على هذا العصر ، لقد عرفت «عقيدة الجماجم» (Cultes des Cranes) التي قيل عنها الكثير في عصر النيوليت ما قبل الفخار ب ، وذلك منذ عصر النيوليت ما قبل الفخار آ ، الذي عثر منه على عدد كبير من الجماجم التي فصلت عن الأجساد . العديد من هذه الجماجم كان موضوعاً على شكل دائرة ووجوهها نحو الداخل . وفي حالة أخرى شكلت ثلاث مجموعات ، كل مجموعة ثلاث جماجم ، تنظر كلها بنفس الاتجاه . وفي حالة ثالثة «في حوض غريب من الكلس» وبقرب جثة طفل كاملة وجدت «مجموعة من جماجم الأطفال التي تدل فقراتها العنقية على أن الرؤوس قد قطعت ولم تجمع هكذا ببساطة في القبور» (نفس المصدر) وتتحدث المؤلفة في هذا السياق عن عقيدة «التضحية بالأطفال» (Sacrifice d'enfants) لسبب لا نستطيع ادراكه . وكما في البقايا النطوفية المشابهة فليس هناك ما يدل فيما اذا كانت الرؤوس قد قطعت وأصحابها أحياء وما اذا كان الدافع لموت أصحابها هو جمع هذه الجماجم . ويمكن الاعتقاد انه بمناسبة موت الطفل ، الذي وجدت جثته كاملة ، قد أعيد دفن جماجم مأخوذة من قبور سابقة وقديمة . وهذا الاحتمال يقويه التصاق الفقرات الرقبية[1] .

استنتاج حول الدين في عصر النيوليت ماقبل الفخار آ

إن قلة ، وتبعثر ، الوثائق لا تساعدنا على تكوين فكرة متكاملة عن الديانة الفلسطينية في ذلك العصر . وما يمكن أن نستنتجه حول العقيدة ، اعتمادا على وثيقة وحيدة ، لا يغطي بالضرورة ما هو جوهري وأكثر أهمية ، وهذه خسارة كبيرة

---

(١) ـ انظر ص ٢٧ وص ٥٨ حول ملاحظات كيركبريد (Krikbride) عن قطع الرؤوس بعد الموت في عصر النيوليت ما قبل الفخار ب في البيضا .

لأن التحول قد قلب العلاقات القوية العملية التي قامت بين الناس وبين المملكة الحيوانية ، وبينهم وبين الطبيعة النباتية أيضاً . وكنا نود لو نستطيع ادراك آثار هذا التحول على نظرة هؤلاء الناس للعالم .

لقد كان الماعز مدجناً في الخيام ولكن لا نستطيع أن نقرر فيها إذا كان الوضع كذلك في مواقع أخرى كالبيضا وأريحا ، علماً بأن الماعز لم يلبث أن دجن في هذه المواقع في العصر اللاحق مباشرة . ومنذ عصر النيوليت ما قبل الفخار آ فإن الكمية الكبيرة لعظام هذا الحيوان تدل على تغيرات هامة ، عكس ما كان عليه الحال في العصر النطوفي ، إذ كان الغزال حيوان الصيد الأول . وبلا شك فإن هيمنة الماعز تدل على اختيار الصيادين لحيوان سهل المأخذ اكثر من غيره ، وهي خطوة اسميت «ما قبل التدجين» (Protoélevage) . لم تعد فيها البقايا الحيوانية تعكس البيئة الطبيعية للعالم الحيواني ولا امكانيات الناس الخالصة ، في تأمين غذائهم من الموارد الطبيعية ، بل ظهر اختيار مقصود لأنواع محددة ، شكل الخطوة الأولى نحو انتاج الطعام .

انها قضية مثيرة أن نرى شعائر دينية جديدة تترافق على ما يبدو ، مع بدايات التدجين ، وذلك على الرغم من أن التفسير الايديولوجي الدقيق «للاضاحي» في الخيام غير واضح ومن غير المؤكد أن هذه العقيدة استمرت في العصور التاريخية اللاحقة مباشرة ، وهذا ما أظهرته على الأقل ، دراسة البقايا العظمية النيوليتية التي جرت حتى الآن .

وبنظرة مباشرة فاننا نرى في تحميل هذا الترافق الكثير ، هو مضيعة للوقت ونتساءل أليس هذا ناتج عن حشر الاهتمامات الدينية في مجال الحياة اليومية ؟

ونتساءل أيضا هل مجرد مصادفة أن تكون أول الأشكال النسائية التي عرفت من الشرق الأدنى قد ظهرت في هذا العصر ؟

لقد جسدت التماثيل النطوفية ، كما رأينا ، اما كائنات ليس لها جنس واضح أو ، كما في حالة تمثال عين صخري ، افعالاً جنسية دون أن يكون ترجيح لأحد الشريكين على الآخر . بينما في هذا العصر نرى تجسيداً لأفراد لا يُشك في صفاتهم الأنثوية ، التي جرى اظهارها من خلال تضخيم الورك أكثر من الابراز

المباشر للعضو التناسلي . ولكن هذا التميز الجنسي لم يكن بهذا الوضوح لنحكم
عليه من خلال المقارنة مع التماثيل الأحدث عهداً ، علما بأن ما سوف يتبع ذلك
من تصاعد مستمر لأهمية تمثيل الأشكال البشرية مع تمييز ، ازداد وضوحاً ،
للتماثيل النسائية ، يجعل التمثالين العائدين الى عصر النيوليت ما قبل الفخار آ
جديرين بالاهتمام ، ولكننا لن نتوقف هنا الآن أكثر من ذلك .

الفصل الرابع

ديانة النيوليت ما قبل الفخاري الثاني في فلسطين

بعد مرحلة النيوليت ما قبل الفخار آ هُجرت اريحا لمدة قصيرة ثم تلا ذلك قدوم حضارة مختلفة تماماً ارخت على ما يسمى بعصر النيوليت ما قبل الفخار ب (P.P.N.B) . لقد أحاط سكان هذا العصر مدينتهم بسور ضخم أيضاً ولكن اهم ما استجد كان في نطاق العمارة حيث أقيمت بدل البيوت الدائرية بيوت أخرى مستطيلة الشكل وكانت جدرانها من اللبن المتطاول ، على شكل «السيجار» ، الذي يحمل طبعات عميقة للأصابع ، عكس اللبن المسطح ـ المحدب الذي استخدم في العصر السابق . وقد طليت الأرضيات والجدران بالكلس، المطلي بدوره بلون وردي أو بيج ، والمصقول .

إن هذه الأرضيات ، المسماة من قبل المؤلفين الانكلو ـ ساكسون «الأرضيات المكلسة» (Plastered Floor) ، تعتبر ميزة حضارة هامة انتشرت في سورية ـ فلسطين منذ الألف السابع وحتى الخامس وهي بذلك لم تعد تقليداً فلسطينياً بحتاً . علماً بأنه تقوم في فلسطين مواقع أخرى غير اريحا تمثل هذه المرحلة (الشكل ٧) وهي : البيضا (السويات ١ ـ ٦ Kirkbride، 1966) منهاتا (السويات ٥ ـ ٣ Perrot 1967) الطبقة

الأولى المسماة «الطاحوني» (Stekelis et Yizraely, 1963) من مواقع ناحال اورن وابو غوش (Dollfus et Lechevallier, 1963) .

وتحمل الطبقات الدنيا في موقع تل الرماد في سورية ، صفات قريبة من حضارة المواقع الفلسطينية . وقد أتت وثائق هامة تتعلق بمعتقدات هذا العصر من كل المواقع المذكورة .

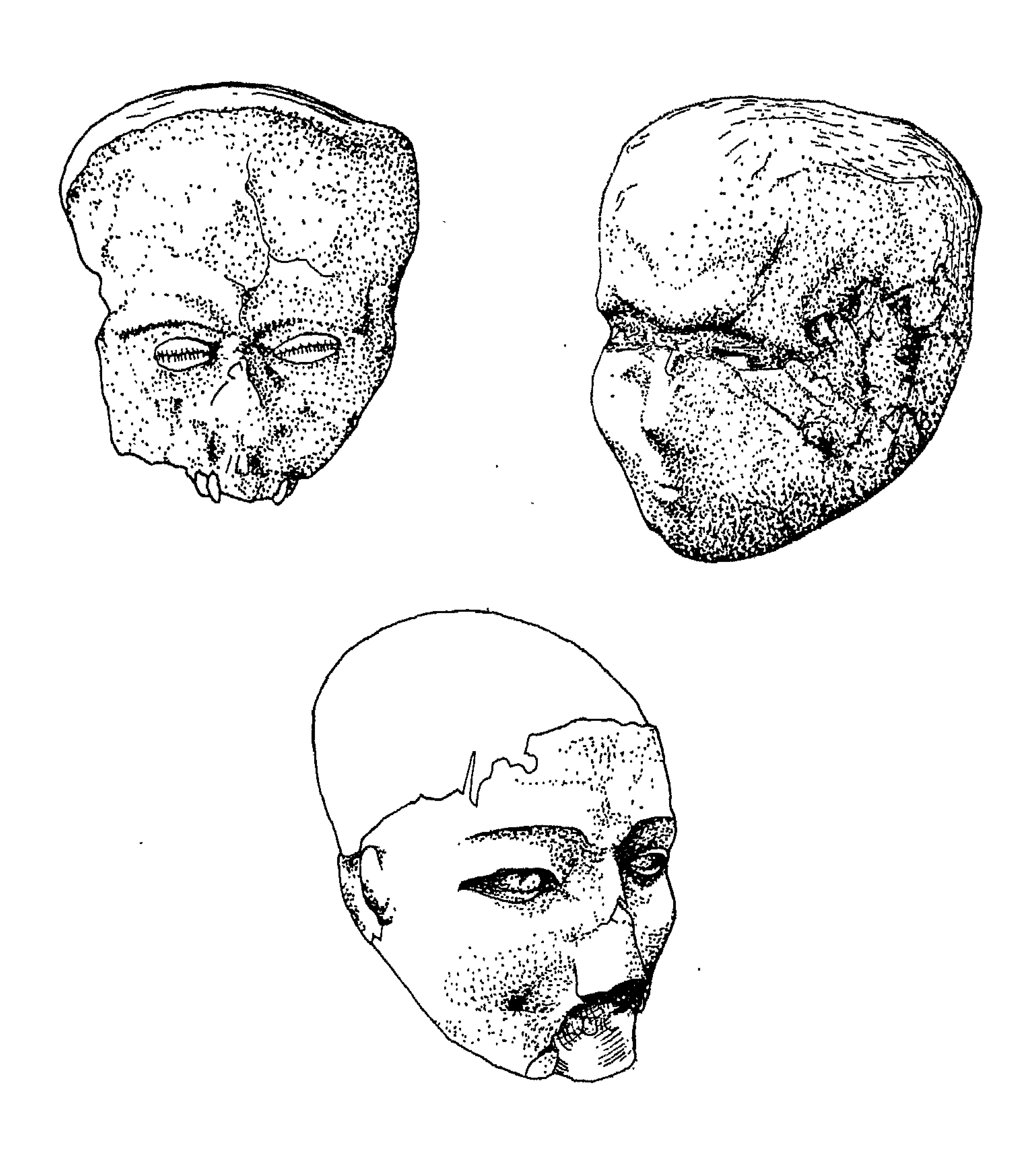
وثائق اريحا

إن الجماجم « المكلّسة » «Crânes «Plâtrés من اريحا من عصر النيوليت ما قبل الفخار ب لها أيضا نفس شهرة البرج العائد لعصر النيوليت ما قبل الفخار آ كما توجد دلائل عادات دينية ومعطيات في مجال البناء ، تعتمد شهرتها على كونها وثائق خاصة قليلة العدد ظهرت بنفس الشكل في كل مكان مع أن معرفتنا بالعادات المرتبطة بهذه الوثائق لا زالت غامضة من عدة جهات .

إن عادة وضع الجماجم بشكل منفصل ليست جديدة بل هي معروفة منذ عصر النيوليت ما قبل الفخار آ وحتى منذ العصر النطوفي . ولكن التجديد الرئيسي كان اقترانها ، المقصود وذا الدلالة ، مع الأبنية التي وجدت بداخلها ، من جهة ، ومن جهة ثانية تحضيرها الخاص اذ تم تقوية هذه الجماجم بالطين المضغوط كما اعيد تكوين وجه الميت باستخدام مادة طينية ـ كلسية[1] وقد مثلت العيون بالصدف الذي وضع بشكل يظهر الشق ، الذي يفصل الفصين ، عامودي أو أفقي (الشكل ٩) ويبدو أن الطلاء الذي كسى الوجه والذي بقيت آثاره واضحة وكان لونه مثل لون جلد الانسان هدف ، حسب كينيون ، الى تأكيد التشابه بين الجمجمة وصاحبها الحقيقي .

لقد وجدت هذه الجماجم المقوّلبة (Crânes modelés) عموماً ، على شكل مجموعات ، واحدة ضمت ، سبع جماجم ومجموعتان اخرتان وجدتا في غرفة مجاورة لنفس البيت الذي وجدت فيه المجموعة الأولى . ولا يدل وضع هذه الجماجم على عملية دفن ثنائي وجزئي كما هو الحال في العصر النطوفي وانما كانت

(١) ـ لم تُعرف حتى الآن المواد الحقيقية التي استخدمت .



الشكل ٩: أريحا ، جماجم مليَّسة من عصر ماقبل الفخار ب عن كليشة كينيون .

تمثل اثاثا جنائزياً ظاهرا لم يطمر الا عندما اعيد ترميم بيوت السكن فيها بعد . (Kenyon, 1957, p. 53)

لقد وجدت في داخل البيوت ، تحت الأرضيات المليسة ، قبور بكل معنى الكلمة ، تجمعت فيها الجثث بأعداد كبيرة ، وصل عددها الأربعين في احدى الحالات ، وكانت الجثث إما كاملة ، أو بلا رؤوس ، وأحياناً شديدة البعثرة ، ومع ذلك فقد بقيت بعض العظام متصلة مع بعضها ، كما في عين الملاحة . وقد استنتجت كينيون ، وبحق ، أن الجماجم ، قد نزعت بفضل قدرة عالية على التحليم (تقطيع الجثة Décarnisation) اضافة الى عناية فائقة حافظت على اوتار الفضلات بما يضمن بقاء أجزاء مرتبطة مع بعضها[١] لقد عثرت كينيون على الجماجم المقوْلبة في بيتان فقط[٢] احد هذه البيوت اعطى ، كما رأينا ، تسعة جماجم ، وفي البيت الآخر ، في الطرف الثاني من التل ، وجدت جمجمة واحدة (نفس المصدر ص ٥٣) . ولكن صغر مساحة التنقيبات لا يسمح لنا بتقدير العدد الحقيقي لمثل هذه الجماجم .

ويكاد أن يبدو بأن الحالة العامة هي وجود القبور تحت أرضيات السكن ولكن عثر على اثني عشر هيكلاً مدفوناً من عصر النيوليت ما قبل الفخار ب ، في الدرج الداخلي للبرج العائد الى عصر النيوليت ما قبل الفخار آ ، والذي كان مطموراً ، حتى ثلاثة أرباعه ، بعد أن بطل استخدامه ؛ وليس هناك ما يدل على أن البيوت نفسها كانت مستعملة عندما دفنت الهياكل فيها كما لا يدل هذا على اعادة استخدام المناطق المهجورة سابقاً لأغراض دينية .

---

(١) ـ هذا الاستنتاج يفضل على استنتاج غارستانغ (Garstang 1935. p51) الذي توصل اليه بعد أن عثر على قبرين ، بقرب بناء له رواق سنتحدث عنه فيما بعد ، وقد لاحظ على أحد الهياكل كسراً في الرقبة سببه الفتل القوي لها ، في حين ثبت الجسد بحجر كبير فاستنتج من ذلك حصول موت قسري وفتل للرقبة لسارق للقبر ، مرتعب من فعلته الشنيعة .

(٢) ـ وفي بيت ثالث وجده غارستانغ (الشكل ٩ رقم ٣) .

الهياكل

إن الجماجم والقبور هي ليست التعبير الوحيد عن ديانة أريحا . فقد كشف عن العديد من الأبنية ، ذات الأشكال الغريبة ، سواء ، من قبل كينيون او اثناء تنقيبات غارستانغ الأولى وقد فسرت هذه الأبنية من قبل مكتشفيها على أنها معابد[1] .

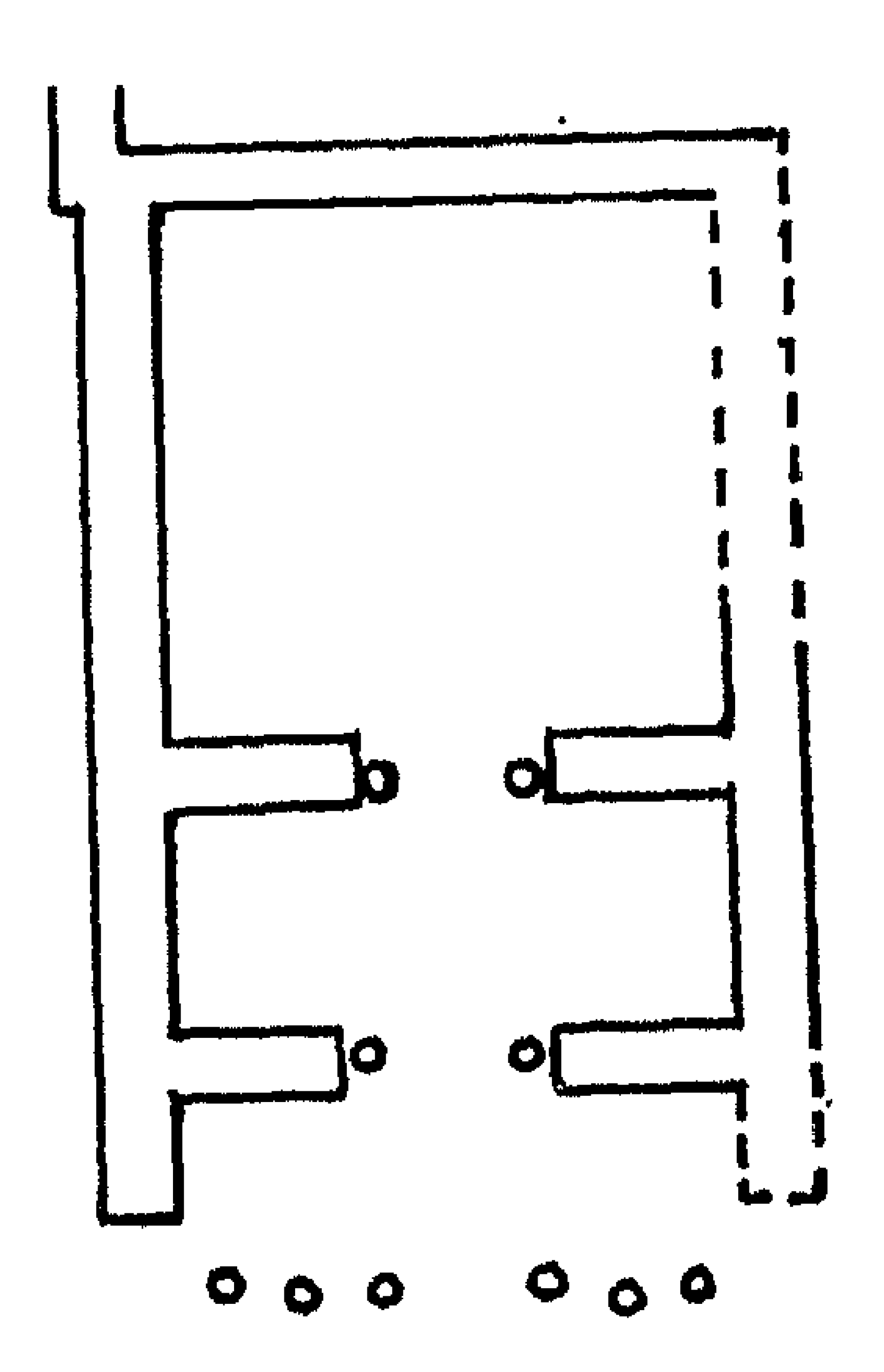
لقد وجد البناء الأول من قبل غارستانغ (Garstang et Garstang 1940 p. 48-50) وتألف من مدخل برواق له ستة اوتاد، تلي المدخل باحة ، فيها قواعد لأربعة أعمدة كانت ترفع السقف ، وأخيراً في صور البناء صالة أبعادها ٦×٤ . م (الشكل ١٠ رقم١) . لقد عثر على عدة تماثيل صغيرة من الطين من منطقة خارج المدخل ، لذلك فإن على أساس مخطط هذا البناء فقط ، والقرب النسبي للتماثيل ، اعتبر البناء ذي وظيفة غير عادية وهيكلاً دينياً .

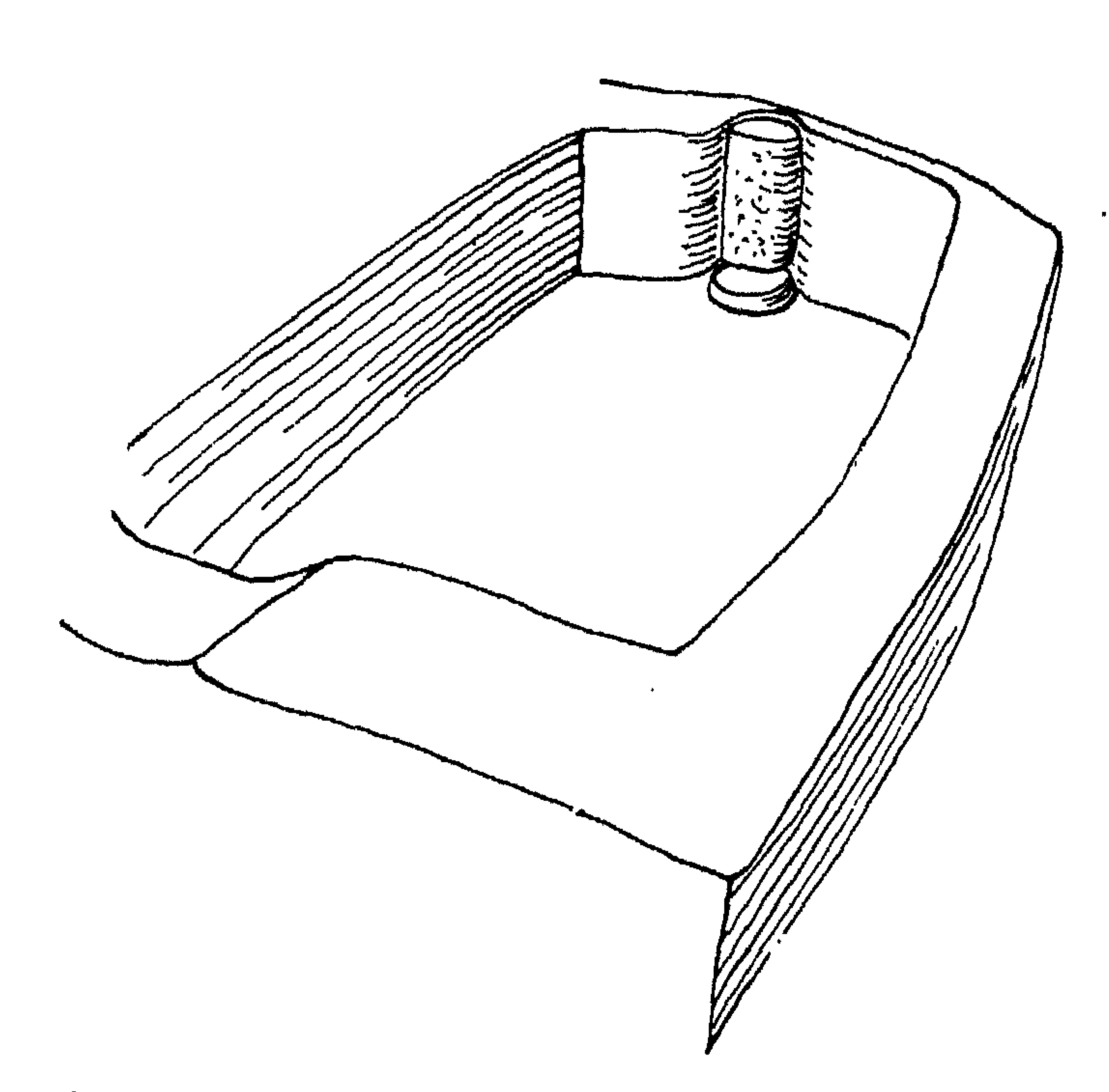
وقد كشفت كينيون بدورها (1957 p.59) بناءاً تألف من غرفة كبيرة ، ٦×٤م ، حفر في وسطها حوض، فيه آثار نار أيضاً في زواياهذه الغرفةالمركزية ظهرت أنواع من المذابح الدائرية ذات السقوف المعقودة كما وجدت هذه المنقبة في ذلك البناء تمثالين نسائيين ، ولكن كينيون لم تقدم حتى الآن أي مخطط يوضح حقيقة وصفها هذا .

وأخيراً (Ibid. p58) فقد كشف عن بيت عادي قسم بواسطة جدار وفي احدى الغرف حفرت فرضة دائرية وفيها حجر خام كبير ، يظهر وكأنه قاعدة ، وبقربه وجد عامود صغير وغريب من الحجر البركاني طوله ٤٦سم وقطره ١٨سم يعتقد أنه وضع على تلك القاعدة (رقم ٢) . وقد فسرت المؤلفة هذا الاكتشاف على انه يمثل «مُصلًّى عائلي» (Family Chapel) وشبهت العمود الصغير بالنصب المسمي مسبوت (Masseboth) لدى الساميين . ولكن اذا كان هذا الكشف هيكلاً بيتياً فعلاً

---

(١) ـ نحن نفضل استخدام كلمة هيكل (sanctuaire) على كلمة «معبد» الذي يعني وجود اله معين له وظيفة محددة ويقوم على أداء شعائره خدم مختصون وهذه صفات لم تتأكد قبل الألف الثالث ق.م .





الشكل ١٠: أريحا ، بناء ديني من عصر ماقبل الفخار ب عن غارستانغ وكينيون .

فانه لا بد من أن يتكرر عدة مرات ليتأكد ذلك ، كما أن تفسير البيتين السابقين على أنهما معابد يعتمد على شكلهما الاستثنائي فقط ، ولكن كيف يمكن أن نؤكد أن هذا الشكل كان استثنائياً فعلاً علماً بأن التنقيب لم يطل أكثرية الأبنية ، لذلك لا بد من الانتظار ومقارنة تلك الاكتشافات مع غيرها قبل أن نقرر حول هذه النقطة .

التماثيل :

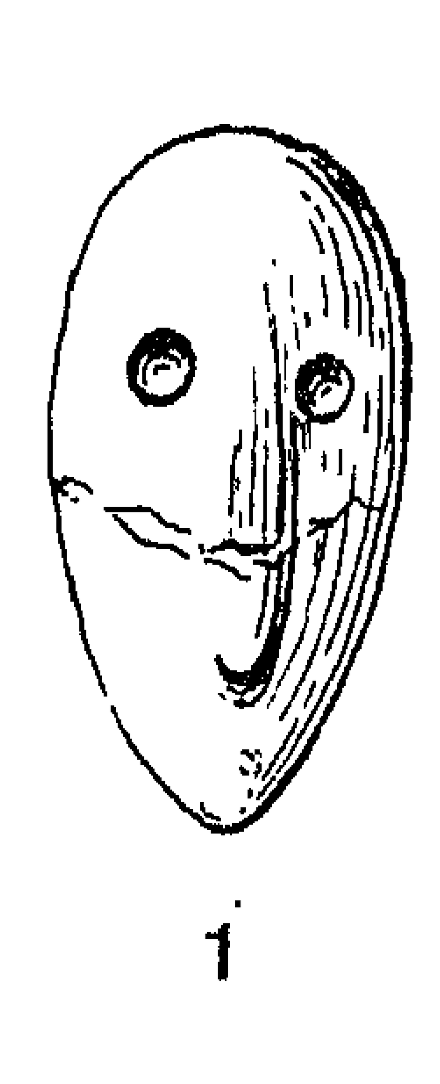
إن التماثيل الصغيرة من الطين[١] التي وجدتها السيدة كينيون أتت من المعبد ذي المحاريب الأربعة وهي تمثل اشكالا حيوانية لبقريات منوعة واحدة منها واضحة الصفات (الشكل ١١ رقم ٣) وهناك تمثالان نسائيان اعدنا رسم احدهما اعتمادا على صورته التي نشرتها كينيون (1957. p. 19) وهي تحمل ملامح غامضة رأسها مكسور وقد وصفت كالتالي : ترتدي ثوباً طويلاً فضفاضاً ، ضيقاً في خصره ، اذرعها مثنية (Akimbo) والأيدي تحت الصدر ، وتلاحظ المؤلفة أن هذه الوضعية تمثل الشكل الاصطلاحي «للربة الأم» الذي وجد في العديد من حضارات الشرق الأدنى من العصر اللاحق . إن صورة الربة الأم ذات الرداء ، الذي يتباين شكله مع شكل التمثال ، لم تظهر قبل العصور التاريخية ، اي بعد هذا العصر بعدة آلاف من السنين ، وهي تتناقض تماماً مع صورة الربة الأم من العصور ما قبل التاريخية التي عرفت من سوريا وفلسطين والأناضول ، ومن جهة أخرى فان وجود القاعدة العريضة التي تعطي التمثال شكلاً مخروطياً ، لا يمكن أن تكون وحدها ، دليلاً على كونه مرتدياً .[٢] .

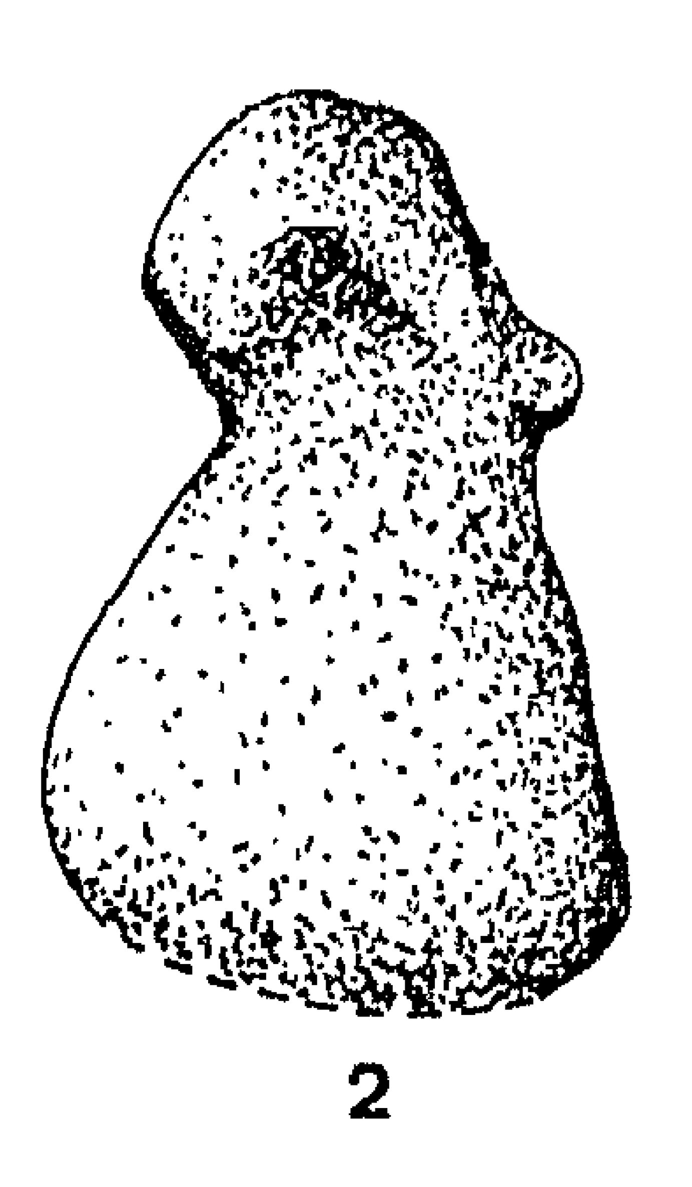
لقد وجد نوع مختلف تماماً من التماثيل من قبل غارستانغ (1940, pp. 57- 58)

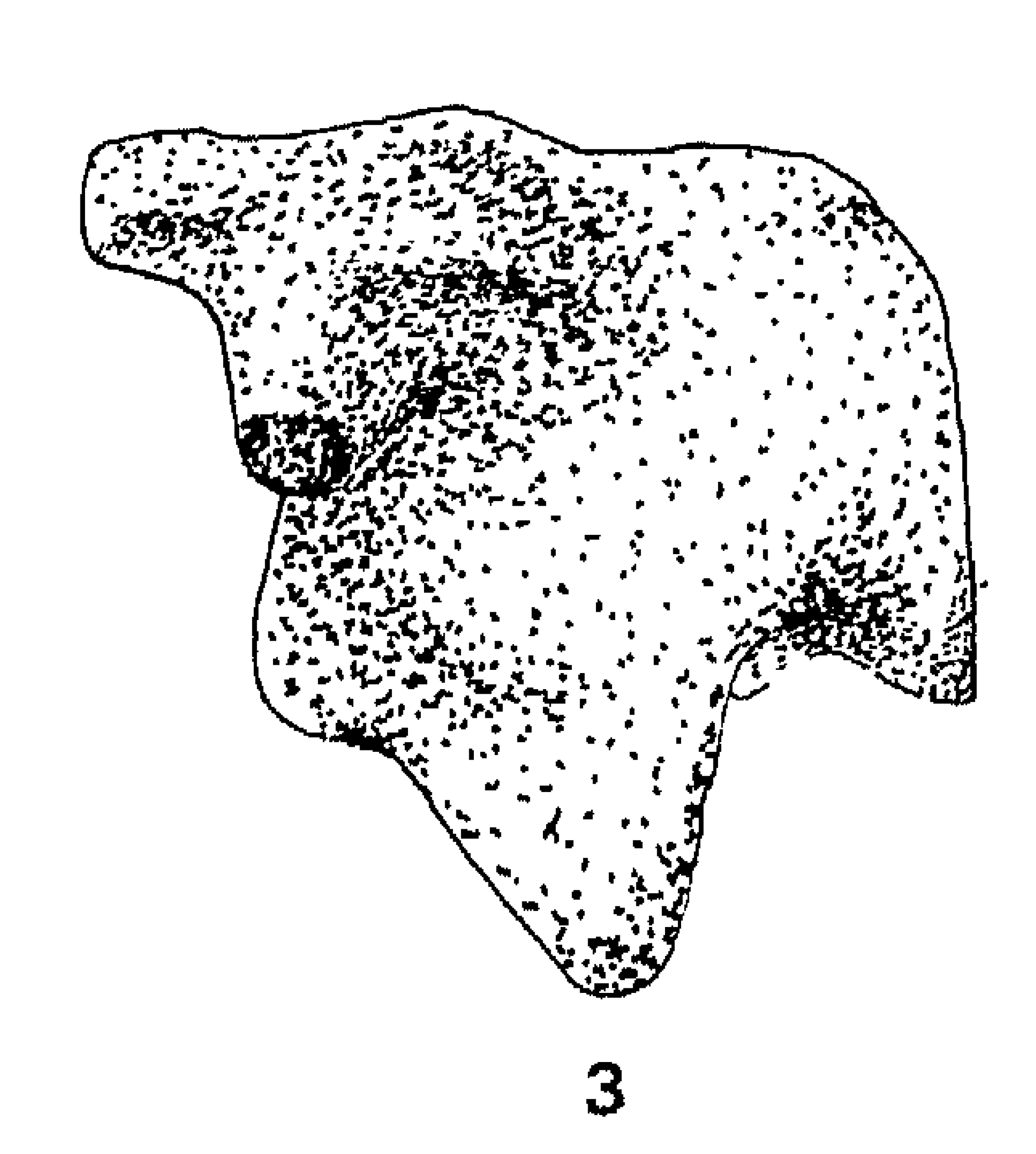
---

(١) ـ لم يعط عدد هذه التماثيل ولا عدد التماثيل الحيوانية التي وجدها غارستانغ والتي تمثل حيوانات بقرية (bovides) .

(٢) ـ لقد وجد تمثال مشابه من موقع ماتاراح في بلاد الرافدين وهو يعود لعصر حسونه اي الألف السادس ق.م (انظر بريدوود واخرين لدراسة بعنوان ماتاراح نوع جنوبي من عصر حسونه في مجلة (J.N.E.S.) ولهذا التمثال نفس الشكل ، قاعدته عريضة ولكن أكثر رشاقة من تمثال اريحا . كما أن وجود السرة يدل على اختزال خاص للربة الأم .



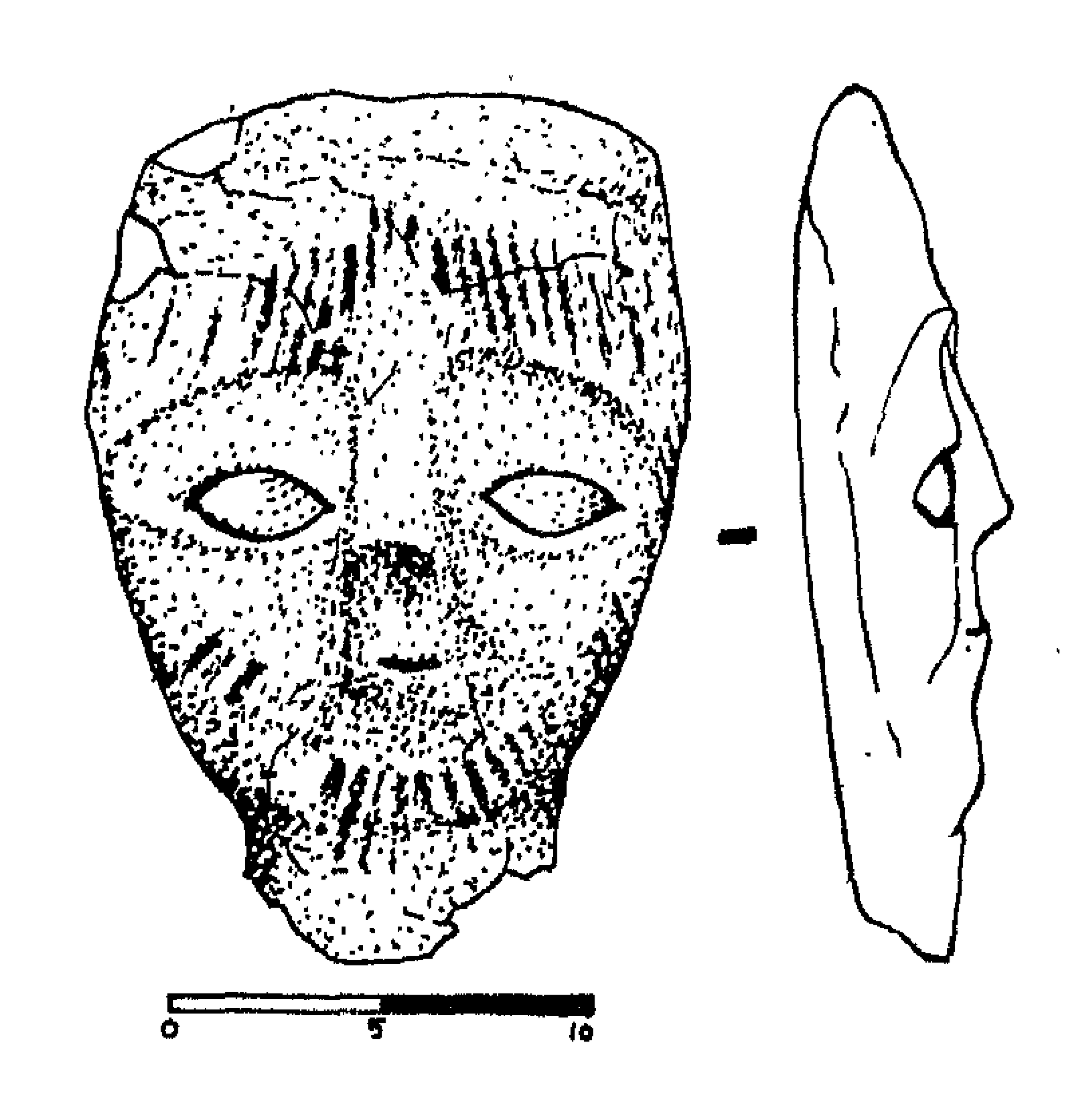


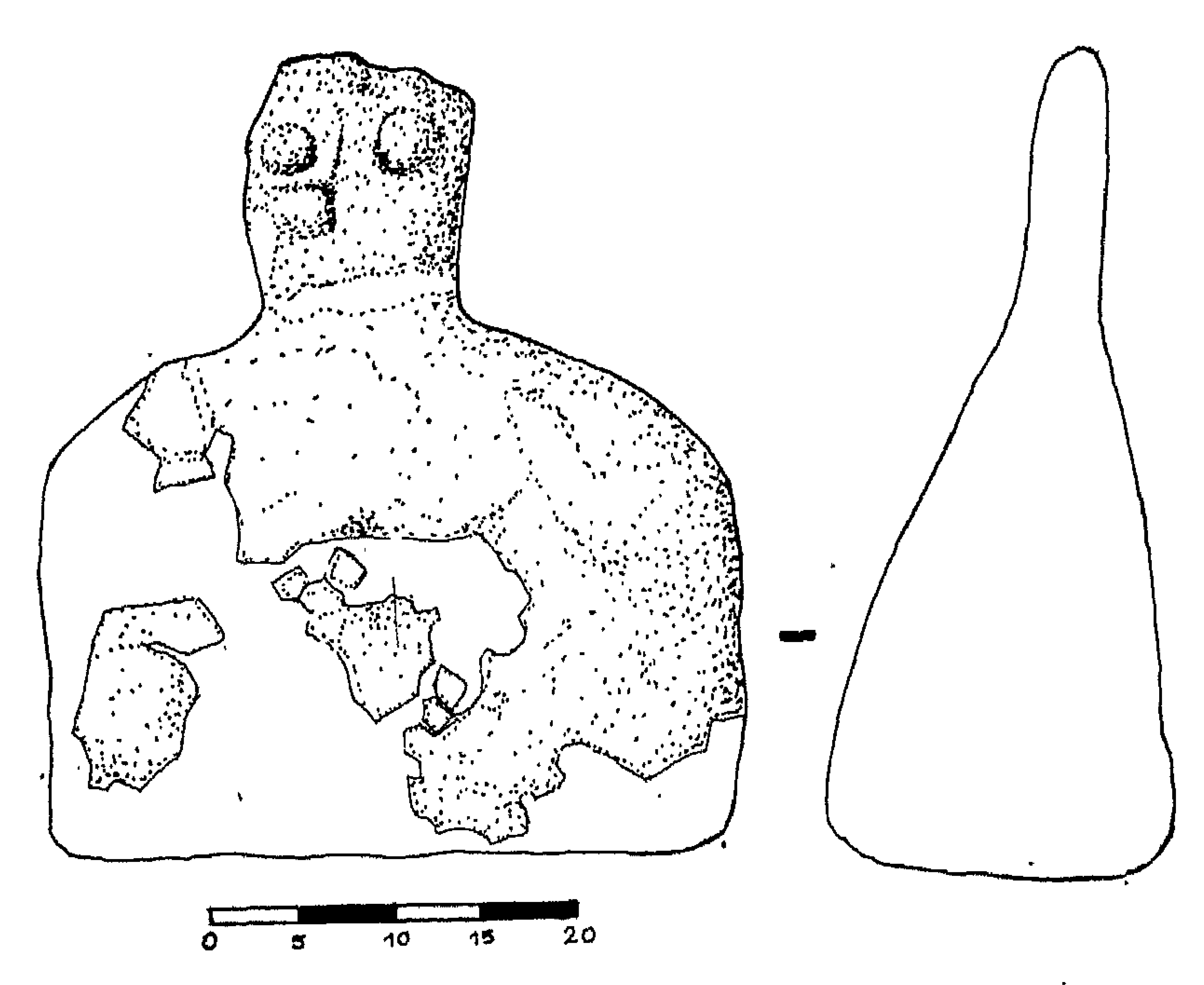


الشكل ١١ : أريحا، اثاث من عصر ماقبل الفخار ب، عن كليشة كينيون .

(357 -353 .1935. pp) ثم من قبل كينيون (1957, p. 4. 1960, p.54) وحسب غارستانغ فإن هذه التماثيل وجدت في سوية عرفت الفخار ولكن كينيون ، التي درست الستراتغرافيا بدقة كبيرة ، ترجِّح تأريخ هذه السوية على نهاية عصر ما قبل الفخار ، انها في هذه المرة تماثيل حقيقية لها حجم كبير مصنوعة من الطين ، على قاعدة من القصب ، مقطعها مسطح جداً أي أنها صنعت بشكل يسمح برؤيتها من الأمام (en face) . لقد كانت التماثيل التي وجدها غارستانغ في حالة مشوهة كثيراً وهي تضم ، حسب هذا المؤلف ، مجموعتين تتألف كل واحدة من «ثلاثي» (triades) رجل وامرأة وطفل ، الرجل صور تقريباً بالحجم الطبيعي ، والمرأة بنصف الحجم ، والطفل ليس أكبر من حجم اللعبة تقريباً . (1940, p57) وكان الطين ، الذي صنعت منه التماثيل ، أملساً ومطلياً بعجينة حمراء . إن العناصر الوحيدة التي بقيت واضحة ومحفوظة في المجموعة الأولى ، هو الرأس الجميل جداً (الشكل ١٢ رقم ١) والذي تدل لحيته المبسطة والممثلة بواسطة خطوط ، على أنه رجل ، وفي المجموعة الثانية هناك قدم ، بأصابعها الدقيقة ، التي حفظت بفضل تعرضها للحريق النصفي من موقد وجدت بجواره . واما اعتبار بعض التماثيل تعود لنساء أو لأطفال فقد اعتمد ، فقط ، على كون الأجزاء التي نسبت لهذه التماثيل أصغر من أجزاء التماثيل المنسوبة للرجال وهذا ما يجعل فرضية غارستانغ حول المجموعات «الثلاثية» هشة بقدر ما هي هشة التماثيل نفسها .

إن الأجزاء المشابهة التي عثر عليها من قبل السيدة كينيون (1960, p 54) أمكن ترميمها بشكل أفضل لأنها ضمت رأساً ، أكثر تبسيطاً من الرأس الـذي وجده غارستانغ ، كما ضمت الصدر أيضاً (الصورة ١٢ رقم٢) . وأخيراً فهناك تمثال آخر ، يستحق الذكر ويعود لعصر النيوليت ما قبل الفخار ب من أريحا وهو رأس من العظم قفاه مسطح (الشكل ١١ رقم ١) .





الشكل ١٢: أريحا، تماثيل من عصر ماقبل الفخار ب عن كليشة كينيون .

وثائق منهاتا

لقد نقب موقع منهاتا من قبل جان بيرو وهو ، مثل اريحا ، يقع في وادي الأردن ولكن أكثر بعداً إلى الشمال ، على مسافة حوالي ١٥كم الى الجنوب من بحيرة طبرية . سـوياته الدنيا (٣ ـ ٦) مؤرخة على الألف السابع ق.م . إن التربة المليسّة (Sols enduits) ، التي تميز حضارات هذا العصر قد ظهرت منذ السويه الخامسة واستمرت في السويات التي تبعتها . ومن حيث الأدوات الحجرية فقد سيطرت رؤوس النبال والمناجل التي رافقتها المكاشط والمقاحف والأزاميل .

وقد ضمت البقايا الحيوانية أنواعاً من العنزيات الكبيرة (Caprinés) أرويه ؛ (Mouflon) وماعز برّي (Bouqetin) بالإضافةإلى بعض الأنواع الأخرى الصغيرة (غزال ، غنم ، ماعز) ولكن من غير المحتمل أن تكون هذه الحيوانات مدجنة (Ducos 1968) كما ان احتمال حصول الزراعة قليل ، فالمناجل وادوات الاثاث الثقيل ، المرافقة لها ، تدل على التقاط كثيف للنباتات البرية التي لا زالت تنمو حتى الآن في أطراف الموقع .

إن الوثائق الشعائرية هي عبارة عن تماثيل من الطين وقبر هام كما أن البناء نفسه متنوع جدا سواء من حيث أشكال البيوت أو أحجامها ولكن ورغم وجود نمط محدد ، ومنتشر ، من هذه الأبنية فإن جان بيرو يتجنب الحديث عن استخدام ديني كلما ظهرت أبنية ذات مخططات خاصة غريبة ، وفي كل الأحوال فإن تكرار هذا النمط الخاص من البناء لا يمكن أن يكون بالنسبة لنا ، عديم الأهمية ، . فقد كشف المنقب في السوية الثالثة عن حالات عديدة ظهرت فيها فرضة مكلسة حفرت في الجدار الشمالي لغرفة مستطيلة . وقد وضع ، أحيانا في هذه الفرض حجر كبير (1967, p.7) . إن هذا الواقع يعطي ملاحظات السيدة كينيون حول فرضه مشابهة ومعها حجر كبير وعامود (الشكل ١٠ رقم ٢) صفة عامة اضافية ولكنه لا يكفي ، لوحده ، لتأكيد مكتشفات أريحا ، مع انه أصبح لدينا الان عنصر تفسيري إضافي (١) .

التماثيل :

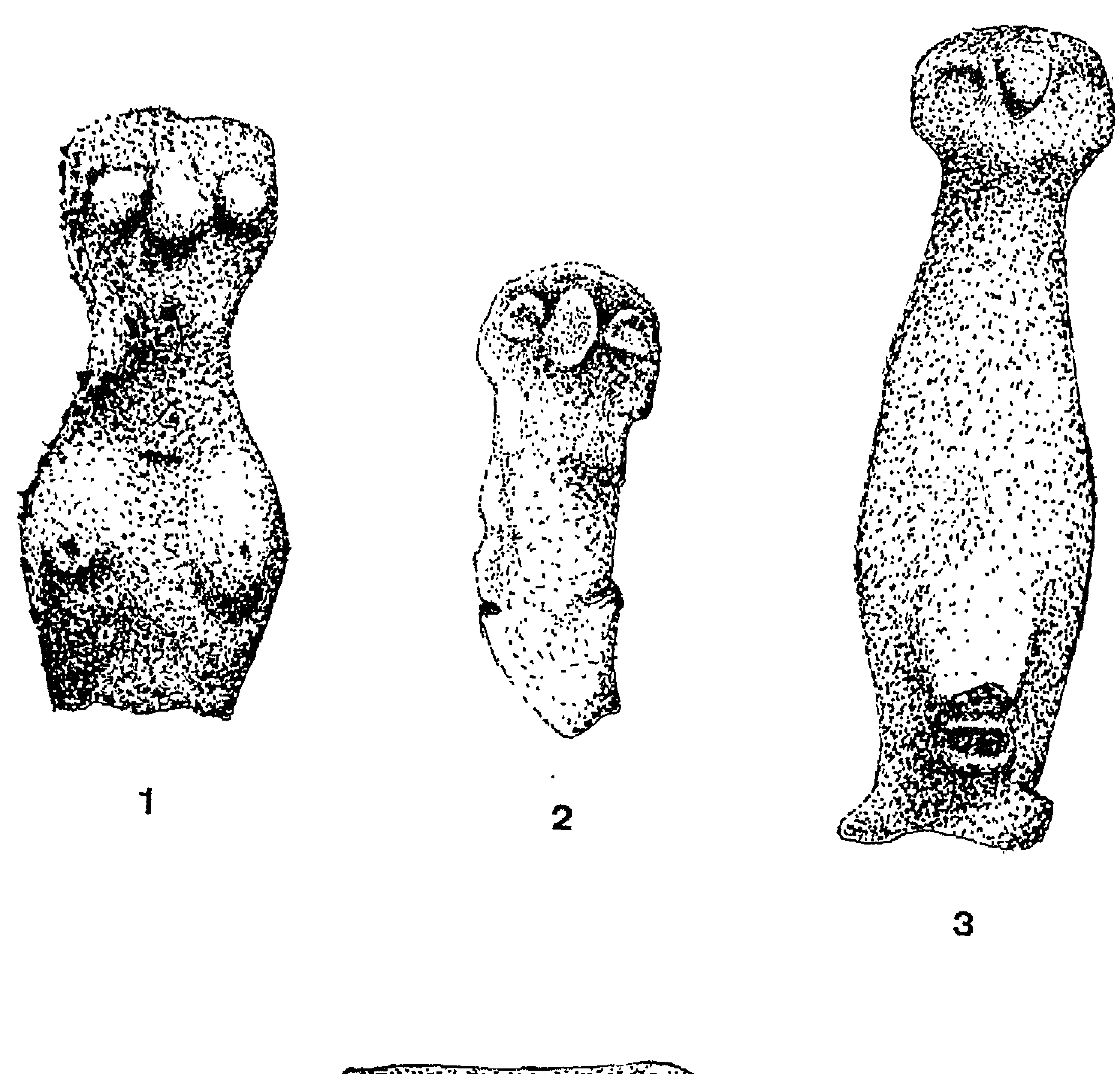
إن تماثيل منهاتا هي من الطين النيء وتمثل أشكالاً حيوانية او انسانية مع انه لا يوجد أي جرد تفصيلي لها . إن التحديد الدقيق لأنواع التماثيل الحيوانية ، صعب وهي تعود خاصة (Perrot, 1966-a p. 58) لحيوانات لها قرون طويلة ، تبدو من نوع البقريات واحدة تشبه كبشاً (الشكل ١٣ رقم ٤) . وأما التماثيل الانسانية فلها طابع خاص جداً فهي عبارة عن قضبان طينية مضغوطة عند قاعدتها ليسهل انتصابها ونهايتها الأخرى مسطحة على شكل قرص يمثل الرأس وقد أبرزت العيون والأنف بشكل كرات ، وهذه التماثيل تعود إما لرجال (رقم ٣) او لنساء (رقم ١) وقد ظهر جنسها بكل وضوح .

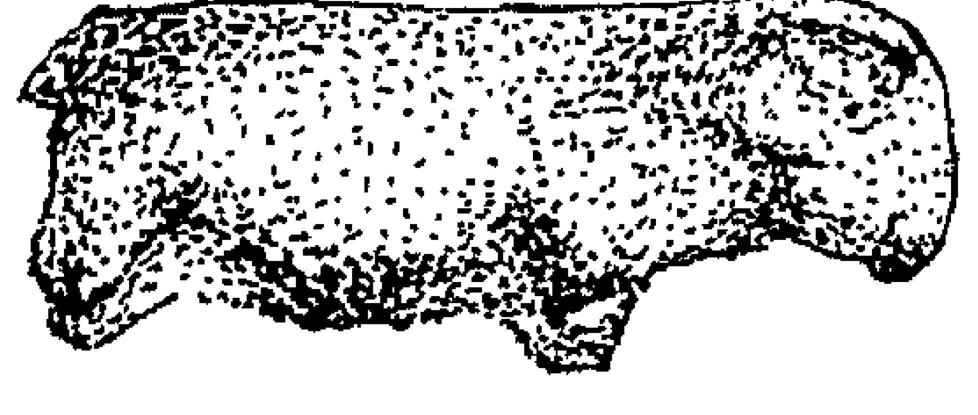
الشعائر الجنائزية :

لقد عثر على أجزاء من جمجمة في أرضية كوخ من السويه السادسة ويبدو ، حسب بيرو ، أن لهذه الجمجمة الإنسانية علاقة مع أوتاد من قرون الماعز (1967, p. 9) ونحن نتذكر وجود حالة مشابهة ، جمجمة بشرية مع قرن غزال ، وجدت منذ العصر النطوفي .

وثائق البيضا

يقوم موقع البيضا ، الذي نقبته كيركبريد (Kirkbride, 1966, 1967) في المنطقة شبه الجافة أيضاً ، ولكن بعيدا جدا عن اريحا ومنهاتا الى الجنوب من البحر الميت وليس بعيداً عن البتراء (الشكل ٧ رقم ١٦) ان الأرضيات والجدران المليَّسة للبيوت والأدوات الحجرية تسمح بإقامة تعاصر زمني بين السويات ١ ـ ٦ في البيضا وبين سويات اريحا في النيوليت ما قبل الفخار ب وبين السويات ٣ ـ ٦ في منهاتا مع أن بيوت موقع البيضا بقيت ذات مخطط أصيل إذ حافظت في السويات ٤ ـ ٦ على أشكالها الدائرية ، كما كان في عصر النيوليت ما قبل الفخار آ ، وأما البيوت المستطيلة فلم تظهر الا اعتباراً من السويه الثالثة وكان لها طابع مميز بشكل خاص إذ تألفت من ثلاث غرف تفتح من كل جانب على ممر مركزي ، وتتميز





الشكل ١٣ : منهاتا ، تماثيل شبيهة بالانسان (رقم١-٣) وبالحيوان (رقم ٤) من الطين ، من سوية عصرماقبل الفخار ، عن كليشة بيرو .

البيضا عن المواقع المعاصرة لها بمستواها الاقتصادي الأكثر «تطوراً» . فقد تأكد وجود الزراعة فيها (Helbaeck 1966) حيث عثر على القمح المزروع من نوع (Triticum dicoccum) ، والشعير الذي لا يختلف بشكله بعد ، عن النوع البري ، وهو من نوع : (Hordeum Spontaneum) ولكن يعتقد هيلبك أنه مزوع . وقد عرف هؤلاء المزارعون ، التدجين أيضاً فالاضافة الى حيوانات الصيد العادية (الغزال ، الثور الكبير ، الخنزير البري ، الحصان ، الماعز البري) فقد عثر في الموقع على بقايا كثير لعظام الماعز من نوع (Capra hircus) كما في موقع الخيام . ويعتقد بركنس (Perkins 1966) ، اعتماداً على النسبة العالية للأنواع الصغيرة المستهلكة ، ان هذا الماعز كان مدجناً .

وهكذا فالبيضا قرية نيوليتية بكل معنى الكلمة الاقتصادي ، عرفت التقنيات الزراعية الجديدة ، اضافة الى التدجين الموروث عن سكان موقع الخيام ومن الغرابة أن تنظيمها الاجتماعي لا يظهر ، من النظرة الأولى ، انه متطور . ولكن استنادا على اكتشاف «مشغل» ، حيث وجدت في نفس البناء المواد الخام والمواد المصنعة وأدوات التصنيع ذات التقنيات الخاصة ، استنتجت كيركبريد وجود «الحرفيين المتخصصين» (نفس المصدر ص ٢٥) كما استطاعت ان تميز حانوت قصاب حيث عثر في غرفة واحدة على كميات كبيرة من العظام المكدسة وجماجم الحيوانات . بينما وجدت في غرفة مقابلة الأدوات الثقيلة التي استخدمت في تقطيع هذه العظام . وفي بناء آخر وجد مشغل «متخصص في صناعة العظم واللؤلؤ» وقد ظهرت كل مراحل تصنيع هذه المواد مجسدة من خلال المواد الأولية غير المشغولة ، عقيق ، صدف ، عظام . وفي مكان آخر وجد مشغل لتصنيع الصوان وفيه بقايا سلة مليئة بالنبال الجديدة . . الخ .

إن المشكلة التي تثيرها هذه الاكتشافات هي ذات أهمية بالغة ، ما دام انه لايجب ان نفصل بين جهودنا في معرفةالمعتقدات الدينيةوبين حالةالتركيب الاجتماعي الذي وصلته المجتمعات المدروسة ، ومن جهة ثانية فان التخصص الفردي الذي يعتبر دليل ظهور «الحرفة» (Métiers) التي ليس لها وظيفة اقتصادية

وانما دور فني بحت[1] هذا التخصص لم يعتبر حتى الان سابقا للثورة العمرانية (حسب شايلد) في الألف الثالث ق.م . ونحن اثناء دراستنا الناحية التقنية في آثار عصور ما قبل التاريخ اللبنانية (Cauvin 1969, p.329) لم نكتشف وجود دلائل هذا النوع من التخصص قبل نهاية الألف الرابع وهذا يؤكد وجهة النظر التقليدية حول هذا الموضوع . وبما أن اكتشافات كيركبريد تسبق ذلك التاريخ بحوالي اربعة آلاف سنة فانه يجب فحصها بحذر .

إن وجود آثار نشاط تقني متوضع في نقطة أو أخرى لا يشكل دليلاً على التخصص الفردي وهذا النوع من التوضع وجد في عصر الباليوليت . وفي كل الأحوال (نفس المرجع ص ٣٢٩) فاننا نعتقد بانه في اطار التجمع القروي فإن تمركز هذا النوع من الآثار داخل بناء محدد يشكل ، من وجهة نظر باحث الآثار ، افتراضاً لصالح وجود النشاط المتخصص للسكان . ولكن يجب أيضاً أن يكون الاطار العام مناسباً وان يؤكد النشاط التقني والواقع الاقتصادي ، من العصر المدروس ، ذلك التخصص[2] .

نحن لا نعتقد هنا أن تعبير الحرف المتخصصة (Specialisation of craft) المستخدم من قبل كيركبريد ، يغطي شيئاً آخر غير الظاهرة الملاحظة من مرحلة النيوليت القديم من جبيل والمتعلقة «بمشغل المناجل» (كوفان نفس المصدر ص ٣٢٨) أي ظاهرة تمركز تقني عادي رافقه تخصص بعض الأفراد الماهرين في انجاز اعمال دقيقة معينة . وهكذا فإنه يجب الابتعاد عن عدوى عدم الادراك الكامل ، لما تعنيه كلمة «حرفة» حالياً من تعقيدات اجتماعية ، الى أن يظهر دليل معاكس .

---

(١) - لم يعثر بيرو في منهاتا على عمود صغير مشابه للذي وجد في اريحا ولم يلاحظ أي تجمع خاص للآثار بقرب الفرض ، ولم يحاول تقديم أي تفسير لهذه الفرض .

(٢) - من المعايير الهامة التي اعتمدها بالفت (Balfet 1962) ونعتمدها نحن من أجل تقرير وجود الحرف الأولى لدى صناع الفخار في عصر الكالكوليت اللبناني هي : التقنية العالية والاشكال الثابتة للأنواع المنتجة .

التماثيل :

من الناحية الحضارية والدينية فإن تنقيبات البيضا لم تسفر عن اكتشافات جديدة تختلف عن تلك التي أتت من المواقع المعاصرة . ورغم المعرفة العميقة لبناء القرية ، التي كشفت كيركبريد عن قسم كبير منها ، فليس هناك حتى الآن ، ما يدل على وجود هياكل دينية . وقد اعطى هذا الموقع ، مثل غيره عدة تماثيل حيوانية من الطين . واحد منها (الشكل ١٤ ـ رقم ٢) وجد بين انقاض أحد الجدران وهو يصور عنزة برية بقرونها الطينية التي تشبه قرون الثور الكبير (كيركبريد نفس المصدر ص ٢٠) . وفي تقرير لاحق تذكر كيركبريد أيضاً تمثالين آخرين من الطين المشوي ، واحد يعطي ملامح عنزة والآخر رأس كبش . وقد وجدت هذه التماثيل بين بقية المكتشفات التي عثر عليها ، في السويه السادسة المؤرخة على بداية الألف السابع[١] ، في بيت دائري محروق ، ومعها ادوات أثاث منزلي ثقيل (رحى أدوات صقل وشحذ ومدقات وبلطات) .

كما وجد شكل انساني واحد في السويه الثانية في البيضا[٢]وهو من الطين النيء ويمثل إلهه (؟) عارية (الشكل ١٤ رقم ١) ظهرت بدينة (Stéatopyge) جالسة ، راسها مكسور وليس لها أذرع ، بينما نهودها بارزة .

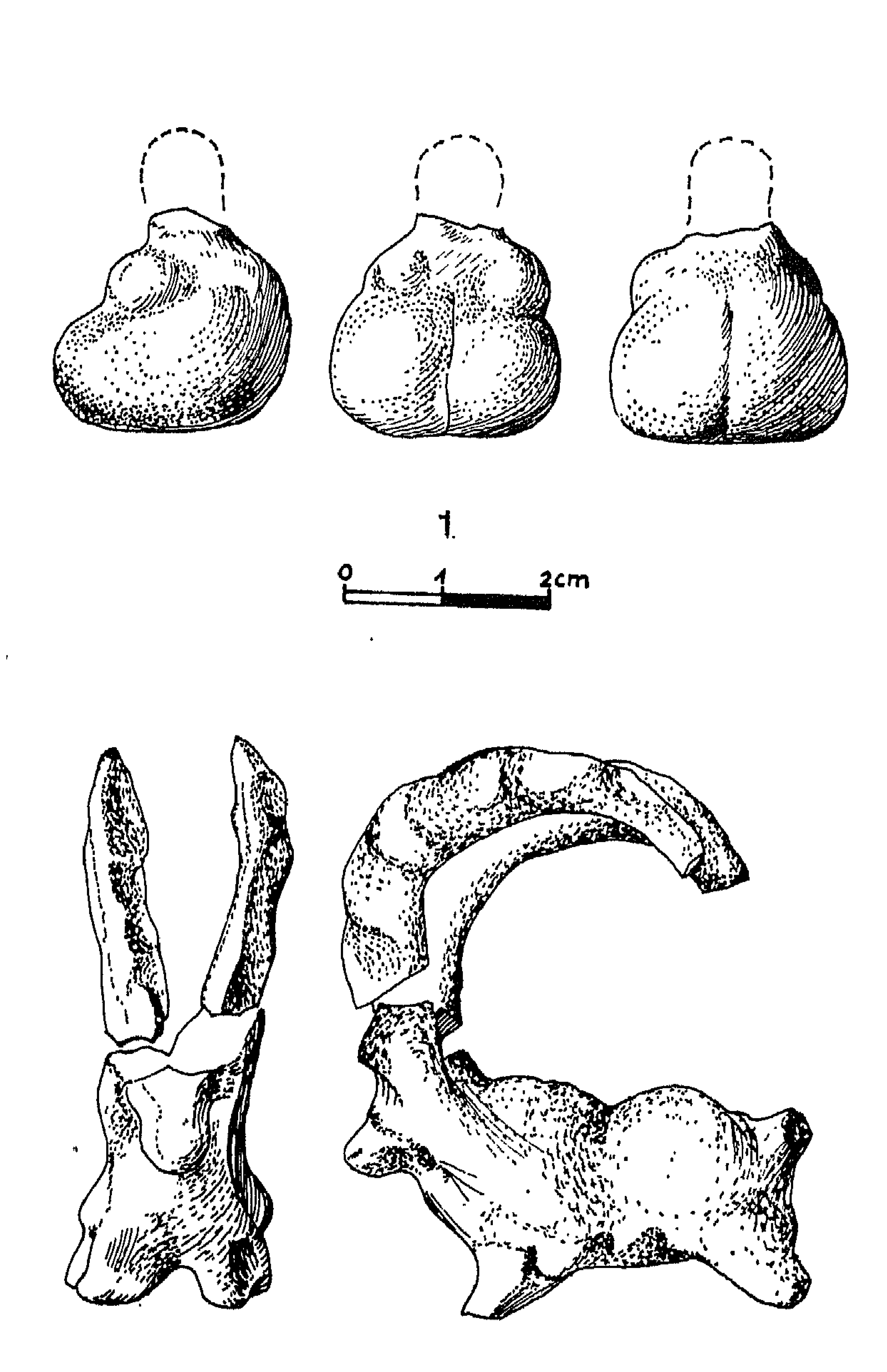
القبور :

إن المعطيات الجنائزية هي ، بالمقابل كثيرة ، وتتألف من حوالي ٤٠ قبراً . معظمها لأطفال . الدفن الفردي فيها هو القاعدة . وفي احوال نادرة دفن اثنان او ثلاثة في قبر واحد ، وهم أطفال صغيرين جداً ومن نفس السن (وتعتقد كيركبريد بأن مثل هذه القبور ضمت توأمين أو ثلاثة) .

---

(١)- تاريخ الفحم المشع ١٤ :٦٧٦٠ق.م + ١٦٠ (K- 1082) و٦٩٩٠ ق.م + ١٦٠ (K 1086) .

(٢)- أرِّخ بالفحم المشع ١٤ على ٦٦٠٠ ق.م + ١٦٠ (K - 1085) .



شكل ١٤ : البيضا ، عصر ماقبل الفخار . تمثال نسائي ، من الطين النيء رقم ١ ، عنزة برية من الطين المشوي رقم ٢ (عن كيركبريد)

وفي احدى الحالات دفنت الام مع طفلها . لقد لاحظت المنقبة عدة أمور منها : أن القبور مع انها كانت أحياناً مغطاة بالتربة المليسَّة وتظهر وكأنها في داخل بيوت السكن ، ولكن اذا استثنينا عدة حالات لقبور أطفال صغيرين جداً ، دفنوا في داخل بيوت السكن ، فإن القبور الأخرى قامت بين أنقاض البيوت التي كانت مهجورة ، وأما التلبيس فقد أتي في مرحلة لاحقة عندما اعيد سكن تلك البيوت .

وهناك ملاحظات اخرى تتعلق بشعائر قطع الرأس ، بعد الموت التي مارسها سكان الموقع . إن أكثرية هياكل الأطفال وجدت سليمة ، رغم ان الهياكل كانت في بعض الحالات مبعثرة أو ناقصة بسبب الدفن الثنائي واستخدام القبر أكثر من مرة ورغم وجود حالة قطع رأس طفل دفن بجوار أمه .

ولكن بالمقابل فإن غالبية قبور الكبار واليافعين كانت بلا رؤوس بينما في قبر الأم مع طفلها ، الذي ذكرناه ، وجدت جثة الام كاملة . وهكذا نلاحظ بأن شعائر قطع الراس لم تطبق بشكل واحد ومنتظم على سن معينة .

وهناك معلومات أخرى ، أكثر دقة تتعلق بهذه الشعائر ، أيضاً (1966. p24) أُخذت من قبرين لشخصين بالغين قطع رأسيهما . في القبر الأول ، حيث لا وجود للجمجمة ولا للفك الأسفل ، كانت الفقرات الضيقة في مكانها والاولى منها لا تحمل آثار قطع أو ضرب ، بقية الهيكل كامله إلا اليدين اللتين كانتا ناقصتين واحدة بدون أصابع والأخرى باصبعين فقط وفي القبر الثاني كان الفك الأسفل في مكانه ولكنه مقلوب ، والفقرة العنقية الأولى ، تحت الفك ، في مكانها لكنها ايضا مفتولة ، الفقرتان العنقيتان الثانية والثالثة وجدتا معاً بقرب الكوع الأيسر . الجذع متصل وفي مكانه ولكن تنقصه عظام الفخذين وقسم من الأصابع . ويعتقد انه في هذين القبرين حصلت عملية دفن ثنائي بعد أن اعيد نبشهما بعناية حيث بقيت العظام متصلة بواسطة أليافها . وتعتقد كيركبريد بأن الجثث لم تكن موضوعة في العراء ، لأن الحيوانات كانت ستبعثرها ، وانما دفنت في كوم من الحجارة (Tumulus) بشكل لا تصلها الا الحشرات والتيار الهوائي . وأما فصل الرأس فقد حصل من خلال فتل ماهر للجمجمة ، على محورها ، وليس

بواسطة قطع عادي[1] ومن الغريب ، انه رغم الانتشار العام لشعائر قطع الرأس فان العثور على جماجم معزولة كان نادراً في البيضا (فقد وجدت جمجمة واحدة فقط مدفونة وحيدة ، وذلك بين حوالي أكثر من خمسة عشر قبراً) ونحن نتساءل هل هذه الجماجم كانت مطمورة ، كمجموعات ، كما في اريحا ، ولكنها لم تكتشف بعد ، أم ان سكان البيضا ، قد نقلوها معهم عندما هجروا الموقع[2] .

وثائق تل الرماد

يقع تل الرماد ، في سورية ، في قطنا قرب دمشق ويعتقد انه سكن بعد المواقع الفلسطينية السابقة بقليل . وتؤرخ السويتان العائدتان لعصر ما قبل الفخار ، واللتان نقبهما كونتنسون ، على النصف الثاني للألف السابع ، وعلى بداية الألف السادس (Contenson et Van liere 1966-b) . إن الأرضيات المليَّسة بالكلس والأدوات الحجرية تشابه تلك التي وجدت في اريحا في عصر النيوليت ما قبل الفخار ب . وتهيمن هنا رؤوس النبال والمناجل . ويبدو أن سكان هذا الموقع قد عرفوا بداية تدجين الحيوانات وربما زراعة القمح ، مثل البيضا ، رغم انه لا توجد حتى الان حول هذا الموضوع دراسات نهائية .

لقد قدمت السويه الثانية العديد من التماثيل[3] من الطين النيء وهي تمثل حيوانات مجترة صغيرة وخيليات . أو بشراً شديدي التبسيط ، عبارة عن قطع

(١) - انظر الملاحظة رقم ٢ ص ٤٥ حول ملاحظات غارستانغ عن اريحا .

(٢) - نذكر انه في موقع ابو غوش ، الذي هو الآن قيد التنقيب من قبل دلغوس ولوشوفاييه وجد هيكلان لشخصين بالغين كانا بوضع مثني ومستلقيين على الجانب الأيسر والأذرع مثنية وبلا رأس ، عدا الفك الأسفل الذي كان موجوداً ، ولكن لم يعثر في الموقع ، حتى الان ، على جماجم منفصلة .

(Dollfus et Lechevallier, 1969. p. 281) .

(٣) - إن تنقيبات تل الرماد لا زالت جارية ولم يقدم حتى الان جرد دقيق لكل المكتشفات .

طينية مثنية ومقوْلبة ، لها احيانا رأس مثل القرص وعيون على شكل دوائر كما في منهاتا (نفس المصدر ص ١٧٠) . وهناك تمثال انساني آخر من الحجر الكلسي (الشكل ١٥) يعتقد انه اتى من هذه السويه .

انه من المثير أن يعثر في تل الرماد على نفس دلائل «عقيدة الجماجم» مثل اريحا . فقد كانت الجبهة في بعض هذه الجماجم مطلية باللون الأحمر والوجه مكلَّساً بنوع من الجص المتفحم وقد أُظهرت تقاسيم الفك السفلي والرقبة (الشكل ١٦ رقم ١ ـ ٢) وأُشير الى العيون بالكلس الأكثر بياضاً ، وعموماً فقد كانت هذه الجماجم أقل تعبيرا من جماجم اريحا .

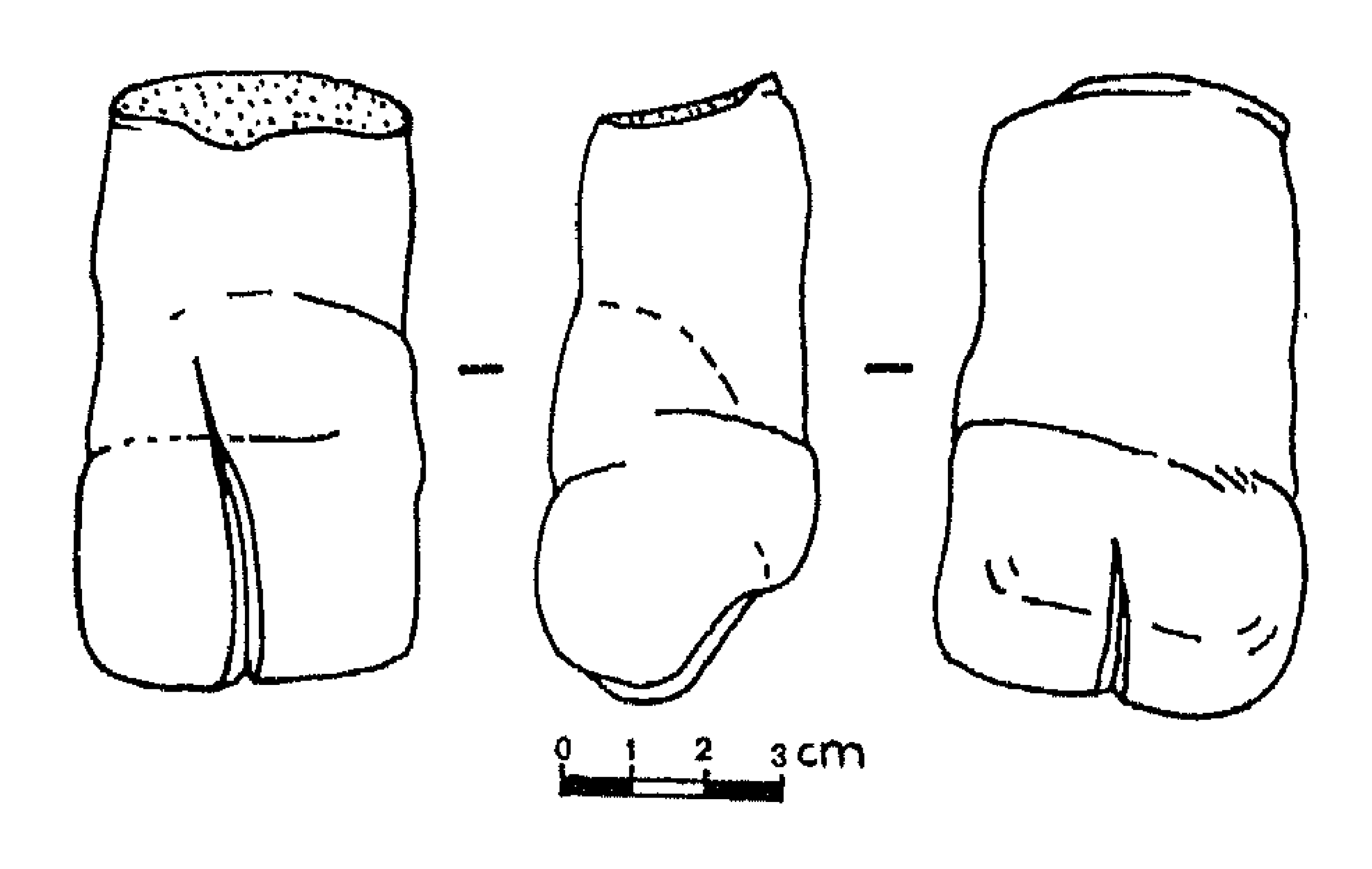
لقد وجدت الجماجم «المقوْلبة» في تل الرماد أيضا على شكل مجموعات تبدو وكأنها أثاث منزلي ، ثلاث منها كانت مغروسة بالأرض ، مقابل الجدار الغربي لبيت من السويه الثانية (نفس المصدر ص ١٧٠) وهناك مجموعة أخرى ضمت «على الأقل اثنتي عشرة جمجمة» مليَّسة بالمغرة الحمراء وموزعة على مجموعات صغيرة في «حفرة بيضوية جدرانها من الطين النيء والأواني البيضاء الخشنة»[1] «ومفصولة عن بعضها بواسطة كرات طينية» هي أيضا مكلسة وملونة ، (نفس المصدر ص١٧١) . ولكن اتضح في المخبر ان هذه «الكرات» ما هي إلا أجزاء من تماثيل حقيقية (الشكل ١٦ رقم ٣) يصل ارتفاعها حتى عشرين سنتمتراً وكانت تستخدم كقواعد للجماجم المقوْلبة (Id, 1966-C) وهي تمثل أشخاصا جالسين الرأس عبارة عن «انتفاخ نهايته مسطحة» (Contenson, 1967 p.21) يعتقد أنه كانت ترتكز على هذه النهاية الرقبة الاسطوانية للجماجم المقوْلبة .

وقد اكدت الاكتشافات اللاحقة (نفس المصدر 1969) أن هذه الجماجم التي وجدت في السويه الثانية ، تتواجد أيضا في السويه الاولى التي عثر فيها على عدة جماجم وضعت في حفرة بداخل بيت صغير وكان يرافقها تمثال أيضا

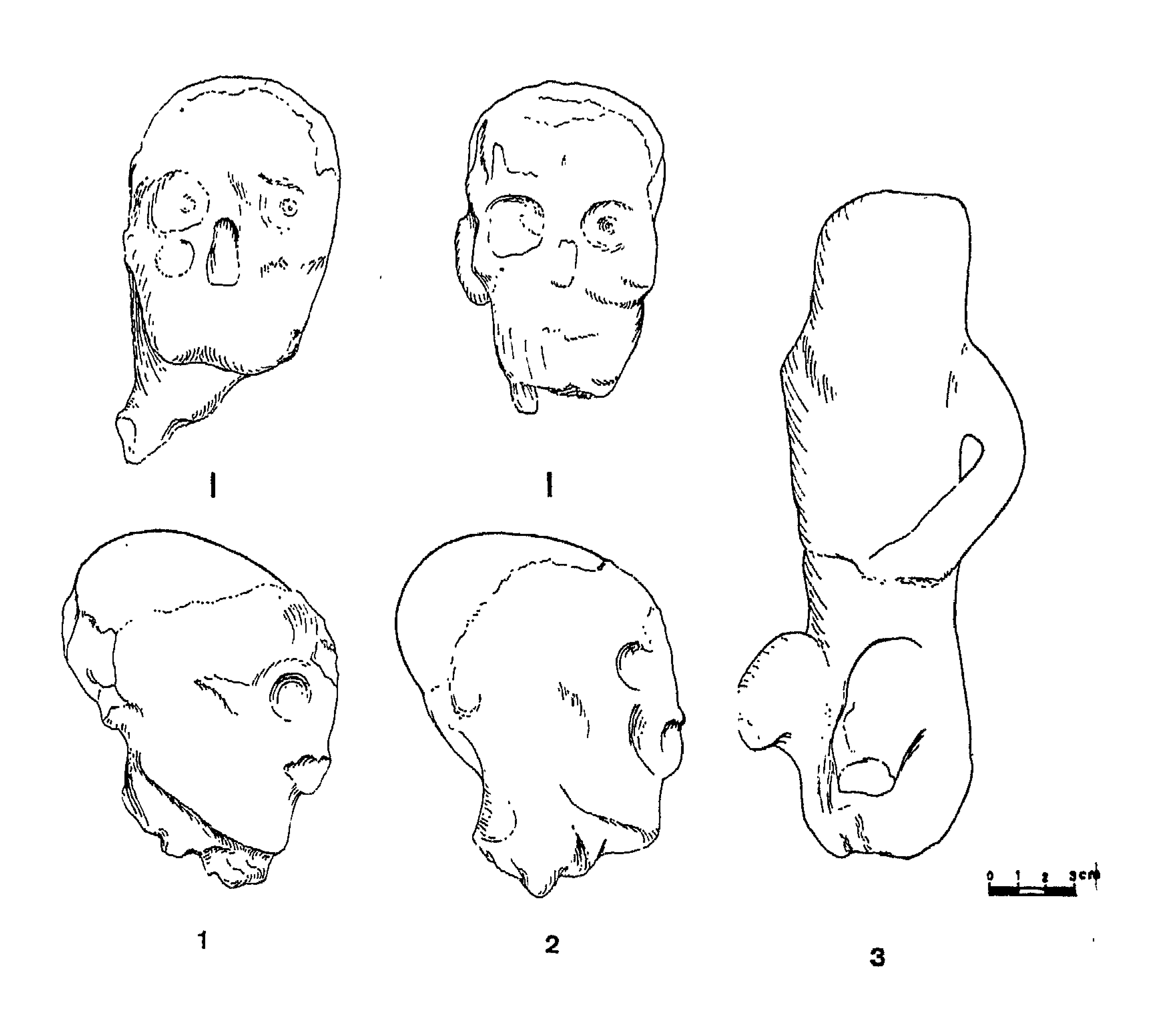
---

(١) ـ هذه ليست اواني فخارية وانما من الحجر الكلسي الأبيض وهي تميز السويه الثانية .

(٢) ـ هذه المجموعات رغم انها وجدت تحت السطح ولكنها تعاصر الأبنية الأولى من السويه الاولى .



الشكل ١٥ : تل الرماد، تمثال شبيه بالانسان من الحجر الكلسي المنحوت من السوية الثانية (عن كونتنسون) .



الشكل ١٦ : تل الرماد، جماجم مليَّسة (رقم ١-٢) وقواعد شبيهة بالانسان من الطين (رقم ٣) من السوية الثانية (عن كونتنسون)

«ويلفها كلها نوع من الكلس» [....] ويعتقد بأن وجود هذه البقايا الانسانية مرتبط بعملية بناء البيت نفسه ويمكن أن تمثل «وديعة تأسيس» (نفس المصدر ص ٢٦) .

وهكذا فإن المعطيات من تل الرماد تؤكد تلك التي أتت من أريحا وتدل على أن ايداع الجماجم (dépôts de crânes) حصل بشكل مستقل تماماً عن القبور ، وأنه أعطي لهذه الجماجم مكانها الخاص داخل بيوت السكن . ولكن هناك قضية لازالت غير واضحة حتى الآن تتعلق فيما إذا كانت هذه الجماجم مطمورة أي لا ترى من قبل السكان وهي بذلك تؤيد فرضية «ودائع تأسيس» أم أنها وضعت ببساطة في حفر دائرية ، كشفت منها حفرتان ، وكانت تُخرج من تلك الحفر عند الحاجة . إن التفسير الثاني فقط يتوافق مع وجود التماثيل الطينية ذات الشكل الانساني ، التي ثبتت الجماجم عليها . وهذا مايميل إليه كونتنسون ، عندما يتكلم عن عقيدة توسط «الأبطال العائليين» (Héros familiaux) مستشهداً بمثال اتنوغرافي من غينيا الجديدة .

ومن جهة ثانية فقد عثر في السوية الثانية على العديد من أجزاء الجماجم غير الملبَّسة ، أما القبور ، بمعناها ، الكامل فلم توصف حتى الآن بالتفصيل وهناك ذكر (1966- b.p 170) لهيكل مثني في حفرة ورأسه نحو الغرب .

استنتاج حول الديانة في عصر النيوليت ماقبل الفخار ب

إن الوثائق في هذا العصر اكثر عدداً ودلالة منها في العصر السابق وهي تمكِّن من استنتاج نوع من الوحدة التي تربط بينها مجتمعة . وبالتأكيد فإن الاسهام الأصيل لكل قرية يبقى هاماً جداً ، ونحن لا نجد تطابقاً بين قرية وأخرى في كل الميادين الثلاثة التي حددناها وهي : الشعائر الجنائزية ، التماثيل ، والأبنية ذات الدلالة الدينية . إن التشابه بين المواقع هو جزيء فقط ، فتل الرماد يشبه أريحا من

حيث طريقته في معاملة الجماجم ويشبه منهاتا في أنواع التماثيل الانسانية[١] . كما أن منهاتا تذكر بأريحا لوجود الفرض المعمارية ذات الاحجار المنتصبة . بينما نجد أن التمثال النسائي من أريحا والتمثال الآخر من البيضا ، لهما ، كل ، طابعه الخاص . كما أن موقع البيضا ، ومعه منهاتا وأبو غوش ، لم يقدم أية جمجمة مقوْلبة ، على الرغم من وجود العديد من الهياكل الفاقدة الرأس ، لذلك يبدو أن سكان هذا الموقع قد عرفوا « عبادة الجماجم» الشهيرة .

«عبادة الجماجم»

إن عادة فصل الجمجمة عن الجسم ليست جديدة بل نعرفها منذ العصر النطوفي . ولن نعيد هنا الرجوع إلى المقارنات الاتنوغرافية لدى السيتين (Scythes) أو في ميلانيزيا[٢] ، لأن الفائدة التي نجنيها من هذه المقارنات البعيدة تبدو ضئيلة . كما أننا نضع جانباً ماهو متعارف عليه بشكل واسع حول أهمية الرأس ، كمقر للروح أو وعاء للقوة المقدسة ، مما دفع الى جمع الرؤوس وقيام معتقدات وشعائر حولها[٣] .

إن الصفة الهامة المتعلقة بالجماجم في القسم الثاني من عصر النيوليت ماقبل الفخاري في فلسطين ، هي أن هذه العادة لم تعد مجرد اختيار حصل اثناء دفن ثنائي ، في نفس القبر كما كان الحال في عرق الأحمر في العصر النطوفي . أو في أريحا في عصر النيوليت ماقبل الفخار آ . لقد عُرف الدفن الثنائي في عصر

---

(١) ويشبه أريحا أيضاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الطابع الخاص في اظهار الرأس كقرص مسطح (انظر الشكل ١٢ رقم ١) .

(٢) انظر : Frazer 1926. p. 24

(٣) كجمع جماجم الأعداء أو موتى القبيلة ؟ من أجل حفظ روح الميت أو اتلافها حتى لا تبقى الجمجمة وعاء للقوة الفردية ؟ أو للرحمة ؟ أو للدورالحامي للجماجم في وجه القوى السحرية الخارجية ؟ . . الخ . ان كل هذه الفرضيات ، التي تتناقض احياناً نجدها محققة هنا أو هناك (انظر Wernet 1948) .

النيوليت ماقبل الفخار ب ، ولكن الجماجم نفسها تم خزنها في داخل بيوت معينة ولم يعد دفنها . وقد خضعت هذه الجماجم لمعاملة فنية ، مثل القواعد ذات الأشكال البشرية التي وجدت في تل الرماد ، مما جعلها تدخل في اطار الأثاث الجنائزي بنفس درجة التماثيل الكاملة الصنع .

إن هذه الجماجم تدل على ماهو اكبر بكثير من مجرد الاعتقاد باستمرار الحياة الذي تدل عليه عموماً الشعائر الجنائزية ولكنها تمثل ايضاً الرغبة في ابقاء الحقيقة ، التي تدعمها او ترمز لها هذه الجماجم ، حاضرة أمام أعين الناس . لذلك ، وانطلاقاً من هذه النقطة المحددة فإن المقارنة مع الميلانيزيين من جزيرة ، جيل ـ فيك ، (Geelvick)(Wernet ibid p. 54) الذين نحتوا ايضاً دعائم لجماجم موتاهم ، هذه المقارنة تبدو مشروعة .

إضافة إلى كون أكثرية الهياكل التي دفنت هي بلارأس، فإن الطريقة المنتظمة والدقيقة التي حكمت عملية فصل الرؤوس والواقعية المميزة للوجه المقوْلب كل ذلك ، ينفي ، حسب كينيون (1957, p. 64) أن تكون هذه الجماجم قد جمعت من الأعداء الموتى بل أنها حفظت كأوعية لقوة مقدسة غير محددة . وعلى الأرجح فإن اجلال أرواح الأفراد الموتى كان الدافع لتوسطهم ، بهذا الشكل[١] . وكما أكد اور (Hours 1966) فإن عبادة الأجداد (Culte des ancêtres) هي الصيغة الأكثر وضوحاً وتجديداً في ديانة الألف السابع .

لقد وجدت الجماجم المقوْلبة في اريحا وتل الرماد فقط ، ولكننا لم نعثر على العديد من الجماجم التي فصلت عن أجسادها في البيضا وأبو غوش ، بينما وجدت جمجمة منهاتا على أرضية أحد البيوت . ومن نفس العصر وجدت في الأناضول جماجم ، على أرضية ، أو على مصاطب أحد الهياكل ، في موقع شاتال هويوك ، وفي ارضية احد البيوت ، قرب الموقد ، في سويه ماقبل الفخار في

---

(١) إن كلمة روح لها هنا معنى غامض ، فهي حقيقة ، تستمر بعد الموت الفيزيولوجي للفرد ونحن لا ندرك مفهوم تلك الحقيقة . ولكن في كل الأحوال يجب ان نتجنب تعميم المفهوم الأحدث «للروح الخالدة» الذي ساد في الغرب تحت تأثير الافلاطونية .

موقع هاتشيلار (Mellaart 1967 p. 84) ومع أن هذه الجماجم لم تكن مقوْلبة لكنها كانت ، مثل جماجم أريحا ، تشكل جزءاً من اثاث جنائزي وكان لها نفس المعنى .

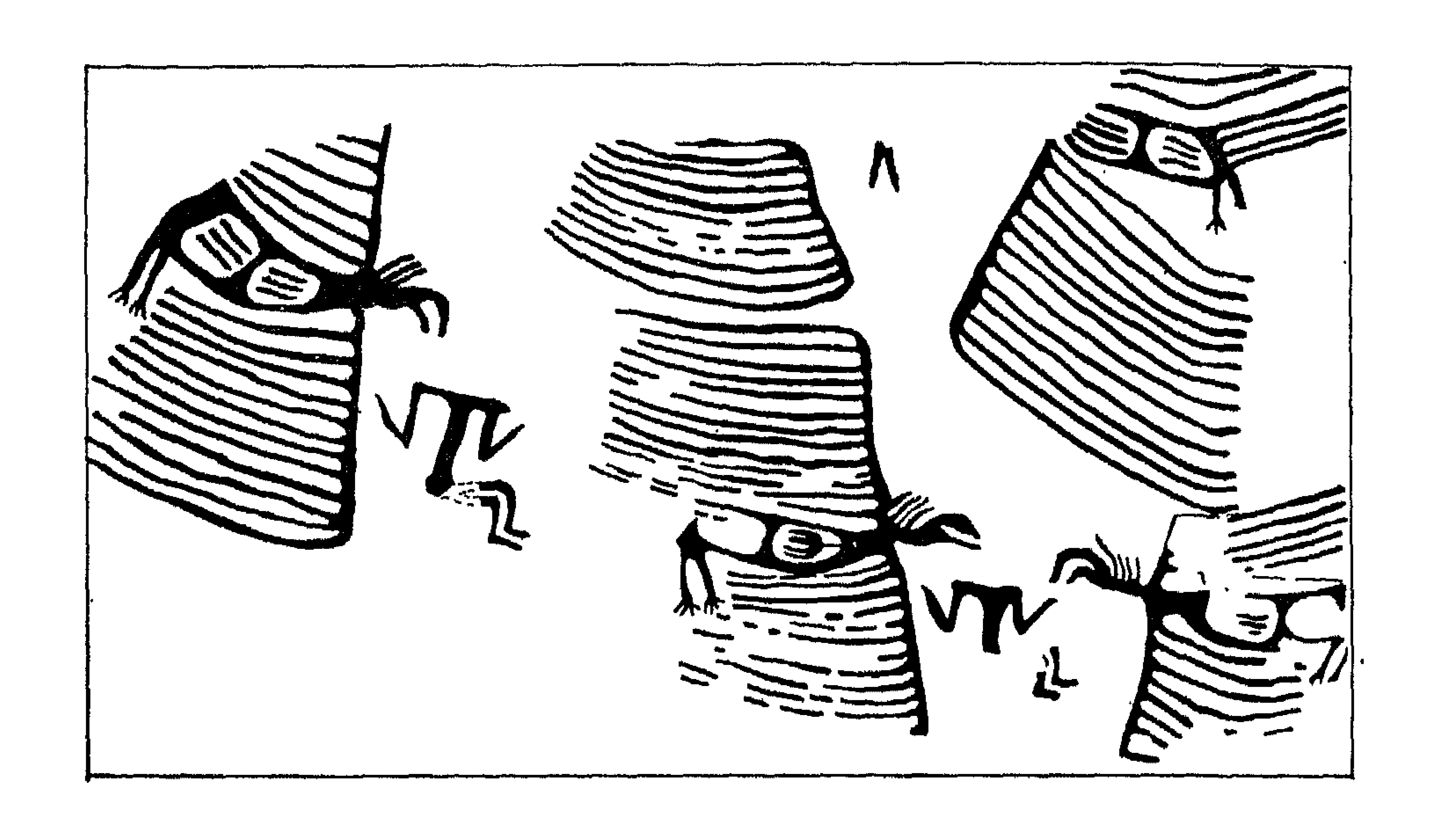
لقد تمت البرهنة على وجود علاقات حضارية باكرة بين فلسطين في عصر النيوليت ماقبل الفخار وبين الأناضول[1] . ومن جهة ثانية فقد وجدت رسوم جدارية معبرة جداً في شاتال هويوك وهي تمثل أشخاصاً بلا رؤوس ، في وضعية مثنية كما في القبور ، وتحلق فوقها عقبان ضخمة تبدو انها تنقض عليها (الشكل : ١٧) . ويقدم ميلارت (نفس المصدر ص ١٦٦) تفسيراً قصصياً (Anécdotique) اكثر مما يجب لهذا المشهد مفترضاً أن قطع رؤوس الجثث قد حصل من قبل طيور جارحة كما هو الحال لدى البارسيس (Parsis) في الهند . ولكن هذا التفسير هو غير كاف سواء لسبب نظري اعطاه لامنغ - امبيرير حول عدم معنى ، تَمثّل نفس الشعائر المطبقة عملياً ، كما أن هذه الشعائر كان يجب ان تترك اثرها على هياكل الموتى التي وجدت كاملة في مقابر شاتال هويوك . وعليه فإن هذه الرسوم تمثل مشهداً اسطورياً يتعلق بموضوع ماوراء الموت . ان العقاب من شاتال هويوك هو أحد الرموز الحيوانية للربة الأم كسيدة،بلاشك ، للموت وللعالم الآخر[2] .

إن حقيقة تمثيل العديد من الأشخاص الصغار بلا رأس يؤكد على المعنى الرمزي لقطع هذا العضو . وإن هذه الرمزية ، كما في اريحا ، تتعلق بالناس كنوعٍ فانٍ وليس بالآلهة .

---

(١) لقد عثر في اريحا وفي تل الرماد على نصيلات اوبسيديانية اتت من جفتلك (Ciftlik) قرب شاتال هويوك (Renfrew, Dixon, et Cann 1966) .

(٢) هذه السيادة ، معبر عنها باشارات عديدة : مناقير العقبان مغروسة في نهود ، من الطين في جدران المعابد (ميلارت نفس المصدر ص ١٠١) ، تمثال لالهة ومعها طير (نفس المصدر ص ٢٠٢) وفي المشهد المعني هنا فإن العقاب هو الذي يبدو أنه يزيل الرأس وإذا كان هذا الرأس يمثل الروح فإنها ليست المرة الأولى التي يقوم فيها العقاب بدور قيادة الروح (psychopompe) مثل ابن آوى (آنوبس) (Anubis) في مصر .



الشكل ١٧ : شاتال هويوك ، رسوم لعقبان واشخاص بلا رؤوس عن ميلارت .

الالهة الام :

اننا نستطيع الآن تقديم أول مثال للتقارب الايديولوجي بين فلسطين والأناضول في الألف السابع . ومن المحتمل أن لا يكون التشابه بين المنطقتين قد اقتصر على ذلك الميدان . إن التناقض الذي يبدو للوهلة الأولى بين الوسط الديني في أريحا وشاتال هويوك يعود في جزء منه لظروف الحفظ الأفضل للقرية الأناضولية التي بقيت جدرانها واقفة وحفظت رسوماً ومنحوتات تفصح بشكل خاص عن بانتيون (Panthéon) ذلك العصر . بينما في أريحا فإن الجماجم هي التي تشد الاهتمام الأول . وعلى العكس مما ظن تيلور (Tylor) بأن « عبادة الأرواح» كجوهر منفرد ومنفصل عن الجسد ، كانت التعبير الأول والاساسي عن الدين. ولكن الأبحاث الأحدث اظهرت بأن هذه العقيدة لم تكن ابداً وحيدة ، لأن الميتولوجيا أدخلت اشخاصاً مقدسين بالكامل ، رافقوها دائماً .

في شاتال هويوك ظهر بشكل واضح زوج مقدس تهيمن عليه شخصية امرأة مثلتها كمية كبيرة من التماثيل والنحوتات الجدارية التي نفذت ، بشكل عام ، على الجدار الشمالي للهياكل . الوثائق الفلسطينية أفقر لكنها ليست غائبة . فهناك تمثالان واحد من اريحا (الشكل ١١ رقم ٢) وآخر من البيضا (الشكل ١٤) يدلان على أن الالهة كانت معروفة هناك ، ويُظهر هذان التمثالان بدانة مميزة كانت في اريحا مختزلة بشكل كافٍ، جعلت السيدة كينيون تعتقد أنها ملابس . وأما تمثال البيضا فهو أقرب إلى النموذج الأناضولي وهو المثال الأول الفلسطيني ، الذي تظهر فيه الإلهة جالسة بشكل واضح . وسوف نعود لايضاح الدلالة الخاصة لهذه الوضعية . إن هذه العقيدة قد جُسِّدت على مايبدو من خلال الأحجار التي وضعت في الفرص المكلّسة في أريحا وفي منهاتا . إن العمود الصغير من اريحا يشبه شكلاً آخراً من شاتال هويوك ، مثل صواعد المغاور وله رأس مختزل ، وجد في أحد الهياكل (ميلارت نفس المصدر ص ٦٥) .

ويعتقد ميلارت أن هذا الشكل يشير الى الرمز الكهفي للربة ، هذا الرمز

الذي يظهر بوضوح اكبر في العصور التاريخية (Mellaart ibid pl 65)[١] وأخيراً فإن الفرض الفلسطينية كانت كلها محفورة في الجدار الشمالي من البناء ، وهو المكان المفضل ايضاً لتمثيل الربة في الأناضول . كما أن اشكال الأعمدة المرصعة في شاتال هويوك تعتبر البديل المتكرر للأشكال التصويرية .

وبالمقابل فإن تفسير تماثيل اريحا ، بالمعنى الكامل لكلمة تمثال ، يثير الشك وبالتأكيد فإن الفرضية الثلاثية (Trinitaire) التي طرحها غارستانغ تلتقي بشكل كاف مع تمثيل الرب والربة والطفل الذي كشف عنه مؤخراً من عصر النيوليت الأناضولي . ولكن من الصعب تصور هذا «الثلاثي» اعتماداً على رأس وقدم فقط ، ومن غير المستبعد أن يكون الرأس المذكر (شكل ١٢ رقم ١) هو البديل عن الجماجم المقوْلبة وأن يعبر عن نفس العقيدة ، لأن الواقعية النسبية ، وتفرد تقاسيم الوجه هي نفسها في كلتي الحالتين .

كما أن التماثيل الطينية الانسانية والحيوانية التي اتت من تل الرماد أو منهاتا هي صعبة التفسير سواء بسبب تنوعها او بساطة صنعها أو غياب اي موضوع رئيسي فيها كما تدل على ذلك الدراسات المنشورة . وفيما يخص التماثيل الانسانية فلم تعط حتى الآن نسبة تقريبية لجنسها . ويظهر أنه في منهاتا هناك تعادل تقريبي بين الرجال والنساء . إن الطريقة الثابتة (stéréotype) التي ابرزت ورك الالهة ، في أمكنة أخرى ، لم تظهر هنا إذ التعبير عن الجنس النسائي بالنهود فقط،وهذه بدورها كانت خفية الظهور . بينما عبر عن الجنس الذكري بوضوح (الشكل ١٣ رقم ٣) ، ان وفرة هذه التماثيل الانسانية هو شيء جديد في الفن الفلسطيني ، ولكننا لا نستطيع التأكيد بأنها تدل على آلهة .

---

(١) ويمكن أن تشير الفرضة الى المغارة .

الهياكل :

وهناك ظاهرة اخيرة تصادفنا ، ونحن نحاول اجراء دراسة متكاملة لنتائج عدة تنقيبات ، وهي وجود الهياكل أو على الأقل ظاهرة تمركز وثائق ، لها دلالة دينية ، بداخل أو بقرب بعض البيوت . التي ربما ، اختلفت ايضاً عن غيرها من حيث مخططها ؟ ان تنقيبات جبيل ، من سويات الألف الخامس ، تقدم حول هذا السؤال اجابة قاطعة ، ولكن الحالة لا تبدو واضحة من الألف السابع رغم تأكيدات كل من غارستانغ وكينيون ، بسبب الانتشار الكافي لتنقيبات اريحا ، ومع ذلك فمن المؤكد بأن الجماجم المقوْلبة ، والتماثيل ايضاً ، من أريحا وتل الرماد ، لم تتواجد في كل مكان . ويجب ان ننتظر ، حتى نحصل على معطيات قاطعة حول هذه النقطة ، انتهاء تنقيبات تل الرماد والبيضا ومنهاتا . ومن هذا الموقع الأخير يبدو أن الفرض المكلّسة لم تكن في هذه القرية لا ظاهرة فريدة ، مما قد يدل على وجود هيكل جماعي ، ولا ظاهرة عامة انتشرت في كل البيوت . لذلك فإن فكرة المصلى العائلي المقترحة من قبل كينيون ، في اريحا لا يمكن أن تستبعد بالكامل . ولكن ، الوظيفة الدينية لهذه الفرض ليست مبرهنة فعلاً في منهاتا (ص ٥٣) كما أن فكرة «العقيدة العائلية» لا يمكن ان تدل بالفعل على أي شيء مالم نستطع تحديد منطقة السكن الكاملة «للعائلة» والاطار الاجتماعي الدقيق الذي نعطيه لهذه الكلمة . وهذا ماهو متعذر الآن . ولكننا نقول هنا بوجود نوع من «التخصص المكاني» (specialisation de l'éspace) القروي عبر عن نفسه هنا في مجال المقدسات ، مثلما عبر عن نفسه في مكان آخر في المجال التقني ، فظهرت الهياكل ، المنوعة والعديدة ، كما في شاتال هويوك .

الفصل الخامس

الديانة في سورية ـ فلسطين في الألف السادس والخامس

لقد قدمت فلسطين الداخلية القسم الأكبر من الوثائق التي اعتمدنا عليها حتى الآن في دراستنا . وإن سبب هذا الواقع هو ليس فقط الحالة المتقدمة للبحث الأثري في تلك المنطقة ولكن أيضاً غياب الاستيطان الباكر في المنطقة الساحلية وكون حضارات ماقبل الفخار من الألف الثامن والسابع قد ازدهرت بشكل خاص في المنطقة شبه الصحراوية . وبالمقابل فإن كل المواقع المعروفة من حوض الاردن قد أظهرت انقطاعا مفاجئا في التوضع الستراتغرافي وذلك في نهاية عصر النيوليت ماقبل الفخار ب فاصبحت فارغة ولم يعد سكنها إلا بعد مرور حوالي الف سنة اخرى . اثناء هذا الانقطاع الذي استمر حتى حوالي ٤٥٠٠ سنة ق.م لم يعثر عملياً ، على مستوطنات دائمة[١] وهكذا يبدو أن فلسطين قد هجرت وأن القرى الدائمة قد شغلت من قبل الرعاة المتنقلين ، الذين تركوا آثاراً أقل .

---

(١) باستثناء بيسامون التي تنقب حالياً من قبل ج. بيرو .

إن تل الرماد الواقع إلى الشمال ، لم تطله هذه الهجرة العامة . وقد رأينا أن عصر ماقبل الفخار في هذا الموقع قد انتهى مع السوية الثانية ، في النصف الأول من الألف السادس فحصل تعاصر زمني بينه وبين المراحل الباكرة في المواقع الساحلية . وهكذا فإن مركز الحضارات الزراعية تحرك نحو المنطقة الأكثر اعتدالاً في الساحل وفي سورية . وباستثناء رأس الشمرة ، حيث وجدت سوية دنيا بلا فخار ، فإن معظم القرى الساحلية التي نعرفها (جبيل ، مرسين ، تل الجديدة . . الخ) قد أسست في عصر يتوافق مع بدايات تقنية الفخار أي بداية ، أو حوالي منتصف ، الألف السادس . وقد عرفت هذه القرى صقل الحجر واستخدمت الزراعة بالكامل كما أن العمارة ، ذات البيوت المستطيلة والأرضيات المليَّسية ، قد حافظت على قرابة حضارية مع حضارة ماقبل الفخار من أريحا - منهاتا .

ويمكن أن نميز مرحلتين أساسيتين في هذا العصر . المرحلة الأولى ، استمرت حتى ٤٥٠٠ سنة ق.م وفيها ازدهر ، في الشمال ، الفخار القاتم المصقول (Dark face burnished ware) الذي رافقه ، في جبيل ، نوع أفتح مزخرف بطبعات الصدف (Cardium) . البيوت لها ارضيات مليَّسة بالكلس ، والأدوات ، التي تضم بعض البلطات المصقولة بقيت متمركزة حول حاجات الزراعة والصيد .

المرحلة الثانية شغلت القسم الثاني من الألف الخامس ، وقد ظهرت ، في مواقعها الشمالية(رأس الشمرة IVالعمق C-D مرسين XVII-XIX . . الخ) تأثيرات الفخار الحلفي الملون . هذه التأثيرات التي بدت ضعيفة في موقع جبيل حيث سيطر الفخار ، المدهون بالأحمر من النوع الذي تواجد في فلسطين ، التي اعيد سكنها في هذا العصر ، الذي تطورت فيه ، من لبنان وحتى الأردن ، حضارة واحدة ، لم تعرف ، كما في سوية النيوليت الأوسط في جبيل ، من الآن فصاعداً التربة المليَّسة وكانت فقيرة في الأبنية الحجرية ، اضافة الى تزودها الواسع ، على الأقل في المناطق الغنية بالغابات ، بأدوات صنع الخشب المنوعة ، لأن الخشب دخل اكثر من السابق ، في بناء المنازل . وقد تميزت هذه الحضارة ، في مجال

الفخار، بصنع أوانٍ تقنياتها اكثر تعقيداً دُهنت بألوان مختلفة وزخرفت بالدمغ . وإلى هذا العصر يعود «اليرموكي» في فلسطين الداخلية (شارها غولان ، منهاتا ٢ ، النيوليت الفخاري من اريحا الخ . . .) و«النيوليت الساحلي» (Anati 1963) (بجوار المناطق الساحلية ، وتل الرماد) الغير مؤرخ بشكل جيد حتى الآن .

إن نمط الحياة خلال هذه المرحلة تنوع بشكل كبير من موقع إلى آخر لقد عرفت مبادىء الزراعة والتدجين في كل مكان ولكن تطبيق هذه المبادىء لم يكن دائماً واحداً . وقد كان النشاط الاقتصادي متخصصاً وفق معطيات البيئة المتميزة ، والحرف ، التي بلغت انتشاراً كاملاً ، وارتبطت بتوفر المواد المحلية .

ويظهر أن كل الناس قد مارسوا الزراعة ، ولكن سكان هاغوشيرم في فلسطين قد دجنوا الثور بينما لم يعرف سكان منهاتا ٢ إلا الحيوانات الصغيرة ، كما أن الصيد احتل في منهاتا مكانة هي أهم من مكانته في مناطق أخرى . لقد غطت الاحراج لبنان وتكاثرت فيه ، حسب المكان ، سحنات مختلفة لنفس أدوات قطع الخشب ، كانت احياناً قريبة جداً من بعضها ، خصصت إما لقطع الغابات (حطابات ضبيه) أو للعمل في المواد الخشبية عامة (جبيل). وقد اقتضى هذا التكامل حصول التبادل وهذا ، ربما ، هو التجديد الكبير في النصف الثاني من الألف الخامس ، هذا التبادل كان قبل وقت قليل مقتصراً على المواد المستوردة (نصال صغيرة من الاوبسيديان ، اختام وبلطات ميكروليتية من الحجر الأخضر ، وأسلحة نادرة . .) ولكنه بدأ يطول الآن ميادين هامة من الحياة اليومية .

في شمال سورية ظهرت تأثيرات حضارة تل حلف ليس فقط من خلال النفوذ الحضاري المحلي ولكن بواسطة استيراد فاعل للفخار من المراكز الرافدية[1] . وفي لبنان فقد انتشرت الأدوات الصوانية من «مشاغلها المتنقلة» (Campigniens) من البقاع ومن جنوب لبنان ، كما صنعت الأواني والمعازق (Houe) البازلتية بكميات كبيرة في مناطق البقاع البركانية (أرض السودا) ووصلت إلى

---

(١) المراحل D, C في العمق (Braidwood, R.y. et L. 1960 p. 148, 163) ورأس الشمرة IV A- B (Schaeffer 1962 p. 176) IV A- B وطبة الحمام (Braidwood 1940 p. 201) ومن حماه L (Ingholt 1940 p. 13) .

مناطق ، غير بازلتية ، بعيدة في المختارة وجبيل (عصر النيوليت الحديث) . إن ابتكار هذه التبادلات المستمرة ساعد على تزايد التضامن الاقتصادي بين المستوطنات على مستوى مناطق كاملة مما سبب اتساع العلاقات بين الناس ، ولم يكن ذلك دون أثر على انتشار المعتقدات ، ووحدة الشعائر والأثاث الجنائزي ، التي ظهرت ، منذ الآن ، في داخل هذه المناطق .

ومن حيث طبيعة هذه الأمور الدينية فليس هناك انقطاع واضح بين المرحلتين مما يبرر لنا أن ندرسهما معاً . فقد أتى «اليرموكي» مباشرة من النيوليت القديم في جبيل الذي يعود إلى المرحلة الأولى ، إذ بقيت الشعائر الدينية بلا تغيير . واما المواقع التي أعطت وثائق هامة فهي جبيل في لبنان ومنهاتا وشارهاغولان في فلسطين ورأس الشمرة وتل الجديدة ومرسين على الشاطىء السوري ـ الكيليكي وتل الرماد في سورية الداخلية .

الأثاث الجنائزي

إن التماثيل ، الحجرية أو الطينية ، تبقى مصدر معلوماتنا الرئيسي حول تمثيل الآلهة في هذا العصر . وقد أعطت جبيل ، تل الرماد شارهاغولان ومنهاتا كمية كبيرة منها . وقبل أن نعرض لهذه التماثيل فسوف نتناول اللقى التي اتت من سوية ماقبل الفخار في رأس الشمرة (VC) التي تنتمي زمنياً إلى عصر النيوليت ماقبل الفخار الفلسطيني ، وتشكل جزءاً من حضارة مختلفة ولكنها تستحق أن نستهل بها هذا الفصل .

الأشكال النسائية من عصر ماقبل الفخار في رأس الشمرة :

إن السوية الأولى في تل الرماد (VC) ترقد على الأرض البكر مباشرة وهي سابقة لظهور الفخار ولكنها تدل على سكن مستقر ، وفيها آثار بناء وانما دون أرضيات مليّسة . ولابد أن تكون الزراعة قد عرفت هنا لأن نصال المناجل التي وجدت لا يمكن أن تكون قد استخدمت في جمع الحبوب البرية التي لا تنمو في

البيئة الساحلية وبالمقابل فإن وجود الأنواع الحيوانية ، التي دجنت في ذلك العصر ، لا يؤكد أنها كانت مدجنة هنا .

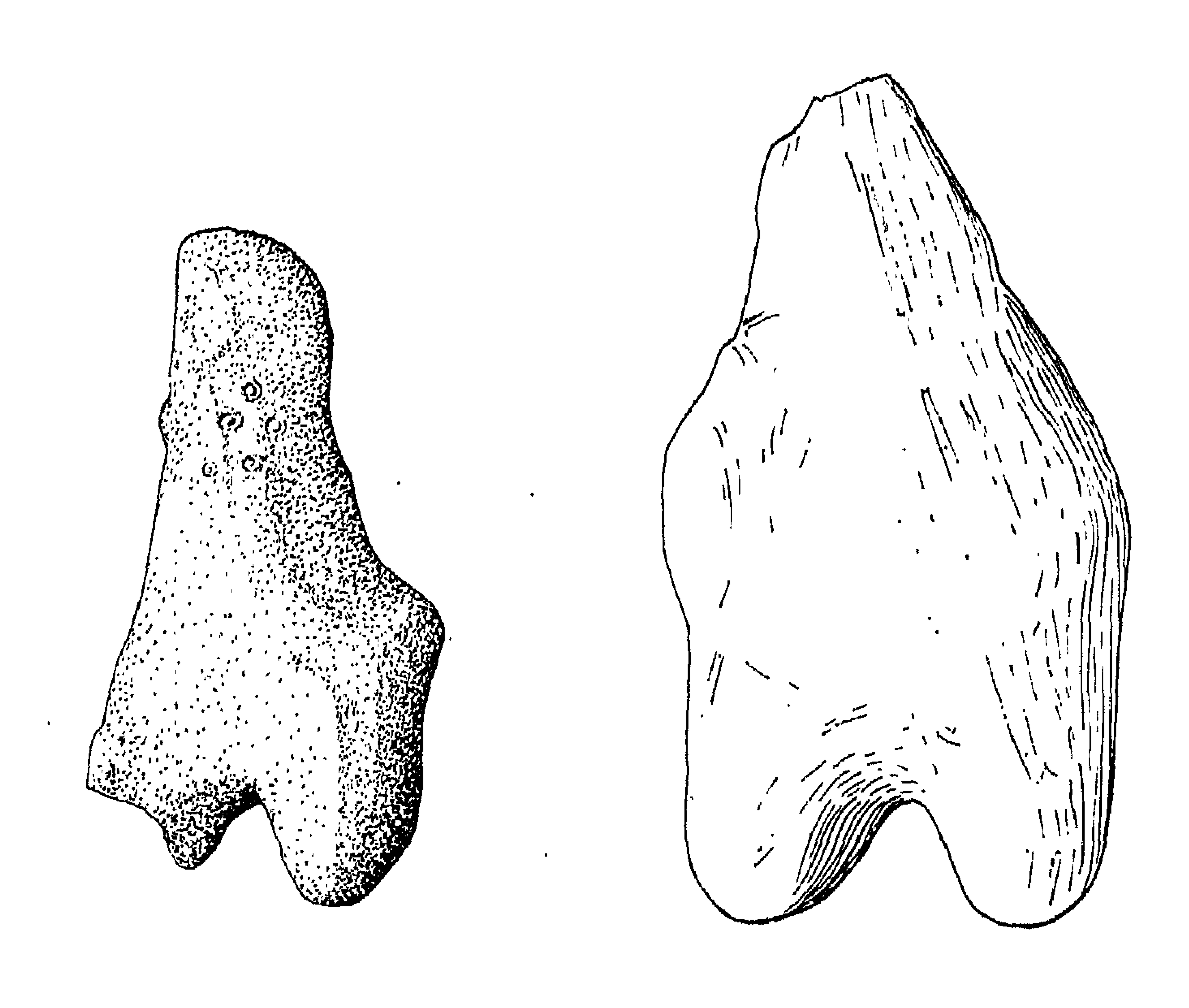
لقد وجد كونتنسون في هذه السوية تمثالين (الشكل : ١٨) واحد من الكلس الطري والآخر من الطين المجفف (1962 p. 509) . وكلا التمثالين يجسدان نساء مختزلات . رغم أن النهود والجنس غير واضحين إلا أن بروز المؤخرة لا يدع مجالاً للشك حول جنسهما المؤنث (Schaeffer, ibid. p. 157) إن هذه التماثيل تعكس نمطاً خاصاً ، إلى درجة كافية ، برأس الشمرة ، لكن هذا النوع من الاختزال ، الذي يترك الرأس ضامراً وغالباً ما يتجاهل ابراز الصدر ليظهر الورك ، قبل كل شيء ، سيبقى مستخدماً على امتداد هذا العصر ، كما تشير المعطيات المتوفرة .

ومن جهة ثانية فإنه لأمر بالغ الأهمية ، أن نؤكد ومنذ بداية التقليد الحضاري السورري على أهمية تمثيل المرأة لأن هذه التماثيل هي الوحيدة التي وجدت في السوية الخامسة من رأس الشمرة .

الأشكال الشبيهه بالبشر من جبيل :

تعتبر جبيل ومنذ تأسيسها ، حوالي ٥٥٠٠ق.م، المثال الأفضل للاستيطان الزراعي الكامل . في النيوليت القديم كانت المناجل تمثل ثلث (٣٣٪) الأدوات (Cauvin ibid p. 201) وشكلت الأسلحة بدورها مجموعة هامة (٨٪) مما يؤكد ، وجود الأنواع الحيوانية البرية (الإيليات خاصة) . كما وجدت ايضاً انواع داجنة (Bos, sus, capra) رغم انه ليس هناك من تحليل اختصاصي يخوِّل اعتبار هذه الأنواع مدجنة هنا . ولكن نمط الحياة المعتمِد على الزراعة والصيد هو الأكثر احتمالاً .

لقد حمل النيوليت الأوسط (من حوالي ٤٥٠٠ ـ ٤٢٠٠) ق.م معه تحولات في مجال العمارة والفخار وتطورت حرفة الخشب كما دل عليها تصاعد الأدوات الفنية لهذه الحرفة ،ولكن ذلك لم يكن مترافقاً مع تغير عميق في الاقتصاد الغذائي لأن قائمة الأنواع المستهلكة بقيت ، على مايبدو ، دون تغيير . ومن المحتمل أن يكون تدجين الحيوانات قد لعب دوراً أهم ، وذلك إذا اخذنا بعين الاعتبار



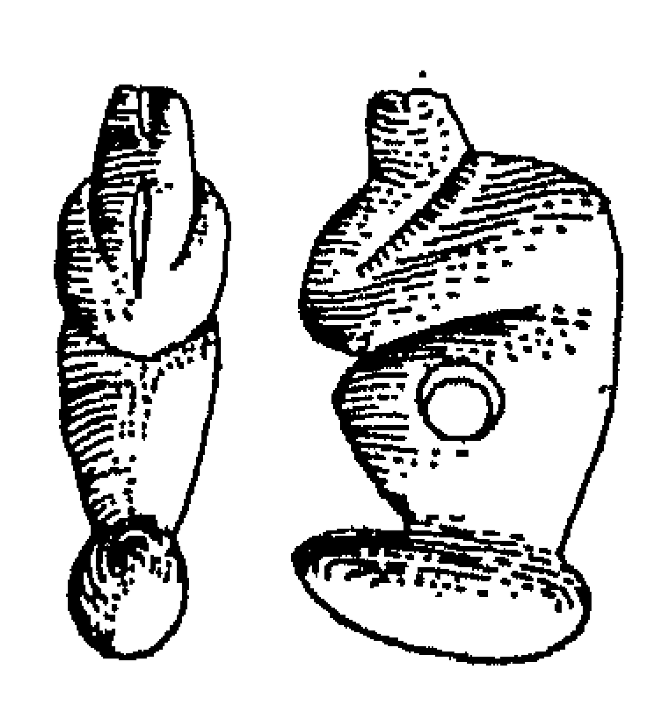
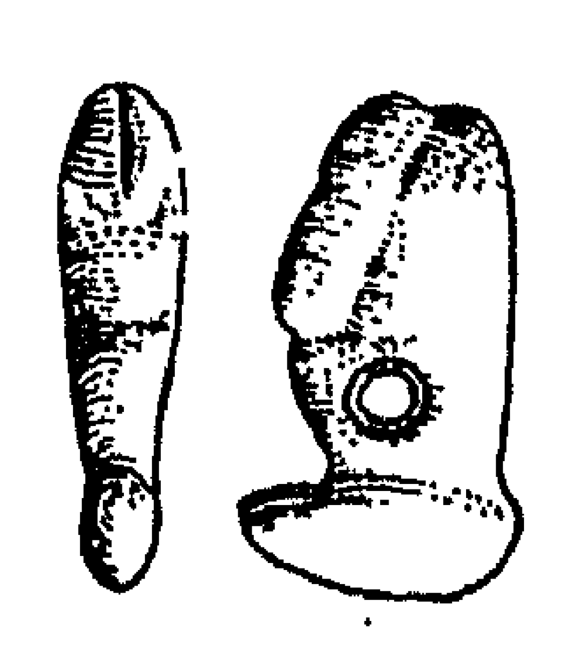
الشكل ١٨ : رأس الشمرة، تماثيل نسائية من السوية الخامسة (Vc) عن كونتنسون .

المعطيات الفلسطينية من هذا العصر (Ducos 1968) ولكن فيما يتعلق بجبيل وبقية المواقع السورية فإن هذا الأمر يبقى في حيز الفرضية .

إن الصور ذات الشكل الانساني (Figurations anthropoporphes) هي ثلاثة أنواع : النوع الأول ويميز النيوليت القديم وهو عبارة عن حلقتين ، من الحجر الأخضر المصقول ، الذي استورد ربما من الشمال في نفس الوقت الذي استوردت فيه عدة بلطات صغيرة من نفس المادة ، وهاتان الحلقتان تدلان على الاعتقاد «بإلهة» انثى (الشكل ١٩ رقم ١ ، ٢) وهذه الالهة مثّلت بشكل مختزل ، ولكن واضح ، وفي وضعية القرفصاء . إن اكتمال الاشكال وخاصة الصدر والارداف ، يدل على فن دقيق كما أن الرأس كان مفروقاً عن الجسم ولكن ليس مفصولاً عنه .

النوع الثاني وهو ايضاً مؤرخ على النيوليت القديم يمثله تمثالان من الطين (الشكل ٢٦) وهما من نوع مختلف جداً عن تماثيل رأس الشمرة ولكنه قريب جداً إلى تماثيل تل الرماد وفلسطين وسوف نصف هذه التماثيل معاً فيما بعد (ص ٨٦) .

واخيراً فإن النوع الثالث هو الأكثر اهمية من حيث عدده ، ويتألف من اشكال مختزلة منفّذة على حصى حجرية . وهو ممثل بخاصةفي النيوليت القديم ولكنه استمر حتى النيوليت الأوسط (تمثالان) . وقد ظهر في فلسطين ، سواء في شارهاغولان او في منهاتا٢ ، وبنفس الشكل، وفي وقت يعاصر النيوليت الأوسط اللبناني ، ويدل هذا النوع على وحدة الايمان والعقيدة التي ترسخت في ذلك الحين . لقد وجدت التماثيل العائدة للنيوليت القديم ، ي جبيل في منطقة محددةجداً (Dunand 1961, p. 71) بقرب بناء أرضيّته مليّسة، ولكنه ليس مستطيلاً في شكله ، كما كانت القاعدة المطلقة في ذلك العصر ، وإنما ينتهي في احد زواياه بمحراب ، وبما أن الموقع قد نقب بالكامل فإننا نستطيع التحدث ، في هذه الحالة ، عن بيت له مخطط استثنائي استخدم كهيكل .

الشكل ١٩ : جبيل، قلادات شبيهة بالانسان من الحجر الأخضر من عصر النيوليت القديم ، بالحجم الطبيعي (عن دونان) .

تصنيف التماثيل المصنعة على الحصى من جبيل ، شارهاغولان ، ومنهاتا :

إن تقنية هذه التماثيل تقوم على اختيار حصى ذات شكل مناسب لتنفذ عليها بواسطة الحز أشكال شبه إنسانية لكنها معبِّرة . هذه الحصى هي ، دائماً تقريباً ، متطاولة شكلها عموماً بيضوي ومقطعها مسطح أو اسطوانية الشكل بالكامل . وهذان هما النموذجان الأساسيان والأقدم في تماثيل جبيل (الشكل ٢٠) وأما تماثيل شارهاغولان[١] فهي افضل اعداداً ، احياناً ، وتدل الحزوز العميقة فيها على بداية فن النحت .

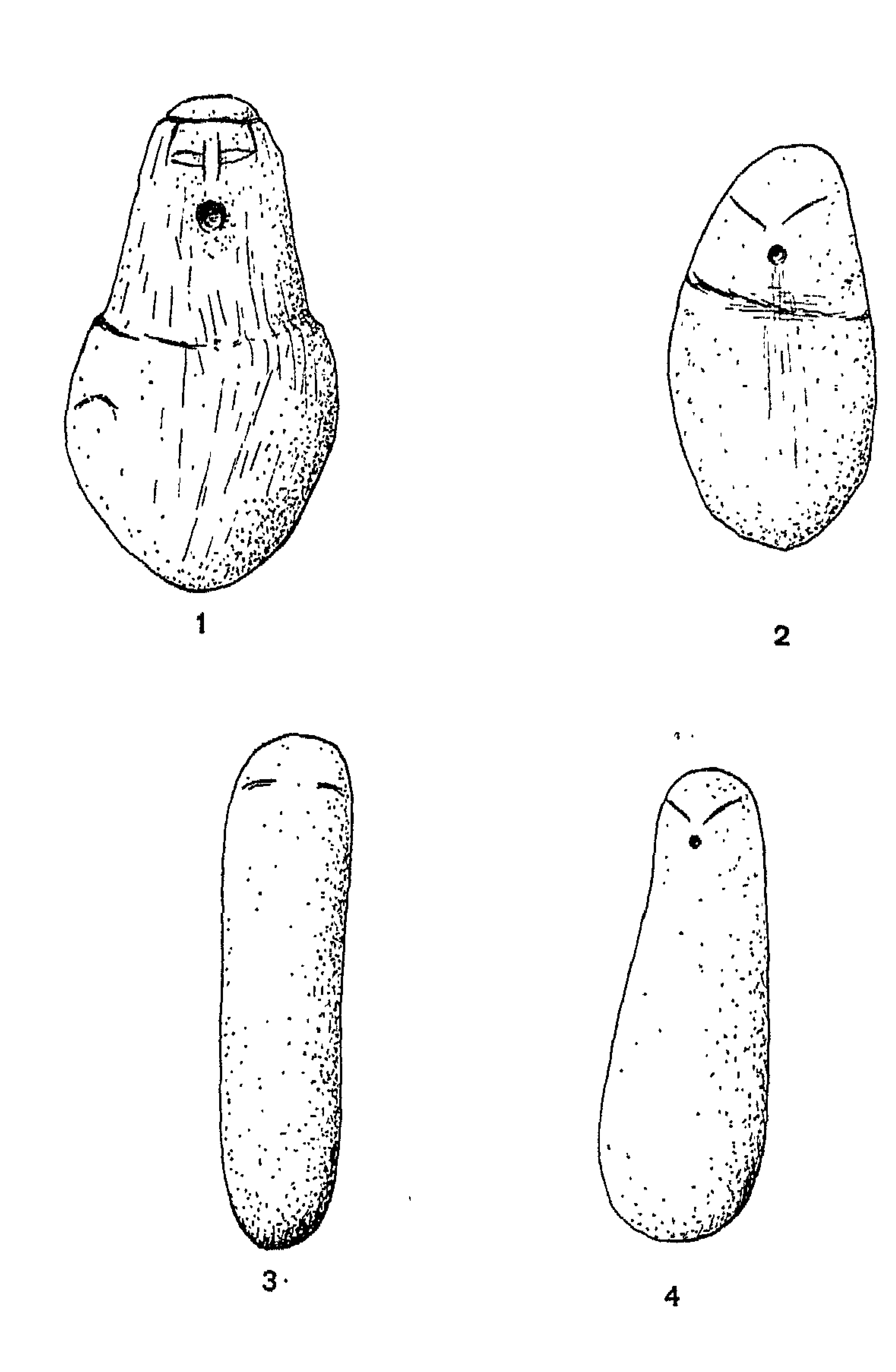
إن الدلالة التشريحية الدقيقة للأشكال المنحوتة ، هي غير مشكوك فيها بالنسبة للنيوليتيين ، وإنما تحديدها يمكن أن يشكل صعوبة لنا . وهذه الأشكال تمثل ، بخاصة أشخاصاً كاملين ولكن الصيغة الرمزية تظهر واضحة بالرغم من الواقعية ، إذ تم إبراز هذا الجزء من الجسم أو ذاك حسب الحالة ، ومن هذا المنظور يمكن أن نحاول تصنيف تماثيل هذا العصر كالتالي :

١ ـ النموذج الأول (Type 1) : وهو يضم التماثيل النسائية التي يقترب نوع الاختزال فيها ، إلى التماثيل التي وجدت من عصر ماقبل الفخار في رأس الشمرة وفلسطين ، ويعتمد هذا النموذج على اظهار الورك على حساب بقية الجسم . وتعتبر تماثيله اكثر اكتمالاً من الناحية التشكيلية لأن الحفر فيها عميق ، يُظهر الشكل المنحوت ، في الحجر الكلسي الطري ، واضحاً .

إن التمثال الذي أتي من شارهاغولان (Type Ia) هو شديد التعبير من هذه الناحية . حيث يشكل الورك والأفخاذ ثلاثة أرباع التمثال العام كما أن الساق

---

(١) يؤكد ستكليس (Stekelis 1951) على وفرة الحصى المنحوتة في شارهاغولان ولكنه لم يعطِ أي عدد دقيق لها لذلك فإننا نعتمد على النماذج المصوَّرة والتي ليست إلا نماذج مختارة . كما أن الوضع مشابه في منهاتا التي لم تنشر مكتشفاتها بالكامل بعد .



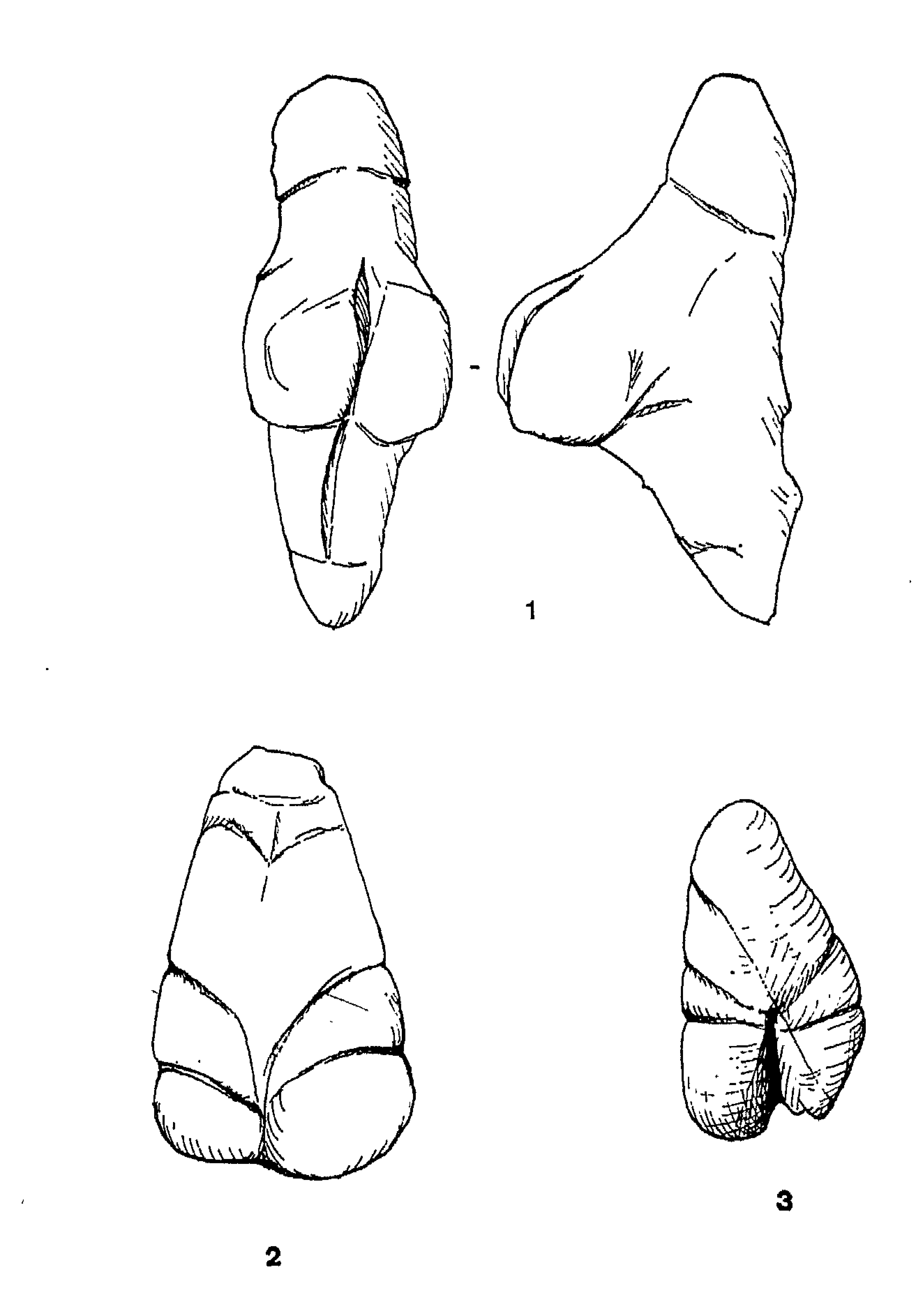
الشكل ٢٠ : جبيل، تماثيل على حصى من النموذج ٣ آ رقم (١-٢) و ٤ب (رقم ٣-٤) من عصر النيوليت القديم ، عن دونان .

والقسم الأعلى من الجسم مفصولان عن البقية ، بواسطة ثلم محفور ، ومختصران إلى اجزاء بسيطة (الشكل ٢١ رقم ١) وغالباً (Type 1b) مايكون التمثال مثلث الشكل بما يوحي بوضعية الجلوس ، وعليه حفر متوسط على القاعدة يفصل بين الأفخاذ ، وخطان مائلان متقاربان ، يحددان الحالب من جهتيه ، ويمثل هذا النموذج قطعتان من شارهاغولان (الشكل ٢١ رقم ٢ ، ٣) وتمثالان آخران وجدهما تسوري في منهاتا في وادي بيسان (Tsori, 1958, pl. 11B et C) .

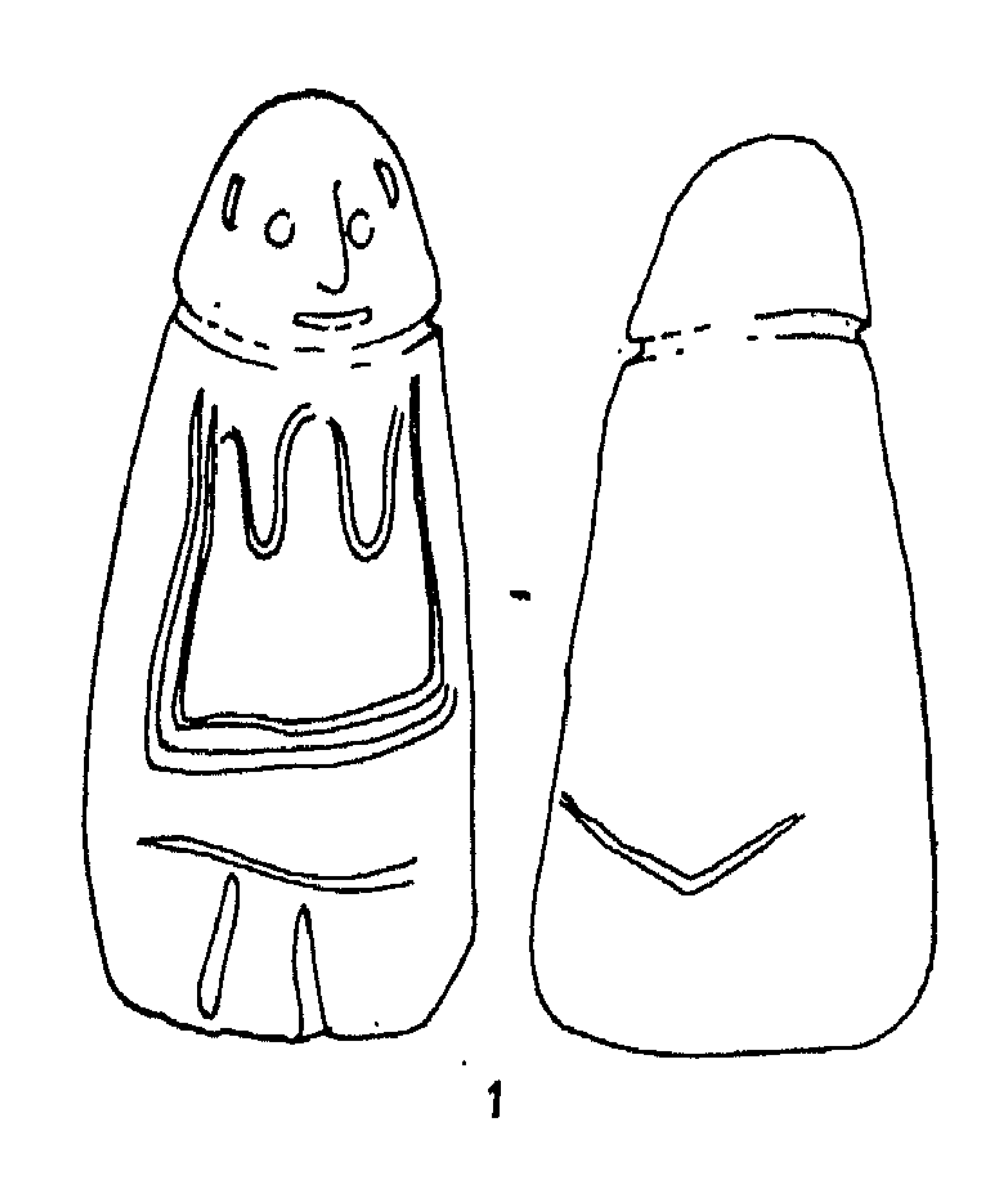
٢ ـ النموذج الثاني (Type 2) (الشكل ٢٢) وقد تميز ببقاء الشكل الأولي للحصى دون نحت تقريباً . ومع ذلك فإن هذا النموذج هو الأكثر دلالة من الناحية التشريحية ، وإليه يعود تمثالان لهما شكل اسطواني وجدا في موقع شارهاغولان (رقم ٢) أو في محيطه (رقم ١) ويحملان نحتاً ، يُظهر الحوالب ، ويفصل بين البطن وبين القسم الأدنى من الجسم ، كما يُظهر الصدر ، والأذرع والوجه ويفصل بين الرأس وبقية الجسم بثلم طويل . وجدير بالذكر بأن ابراز النهدين لا يدع أي مجال للشك حول انثوية ، هذه الأشكال .

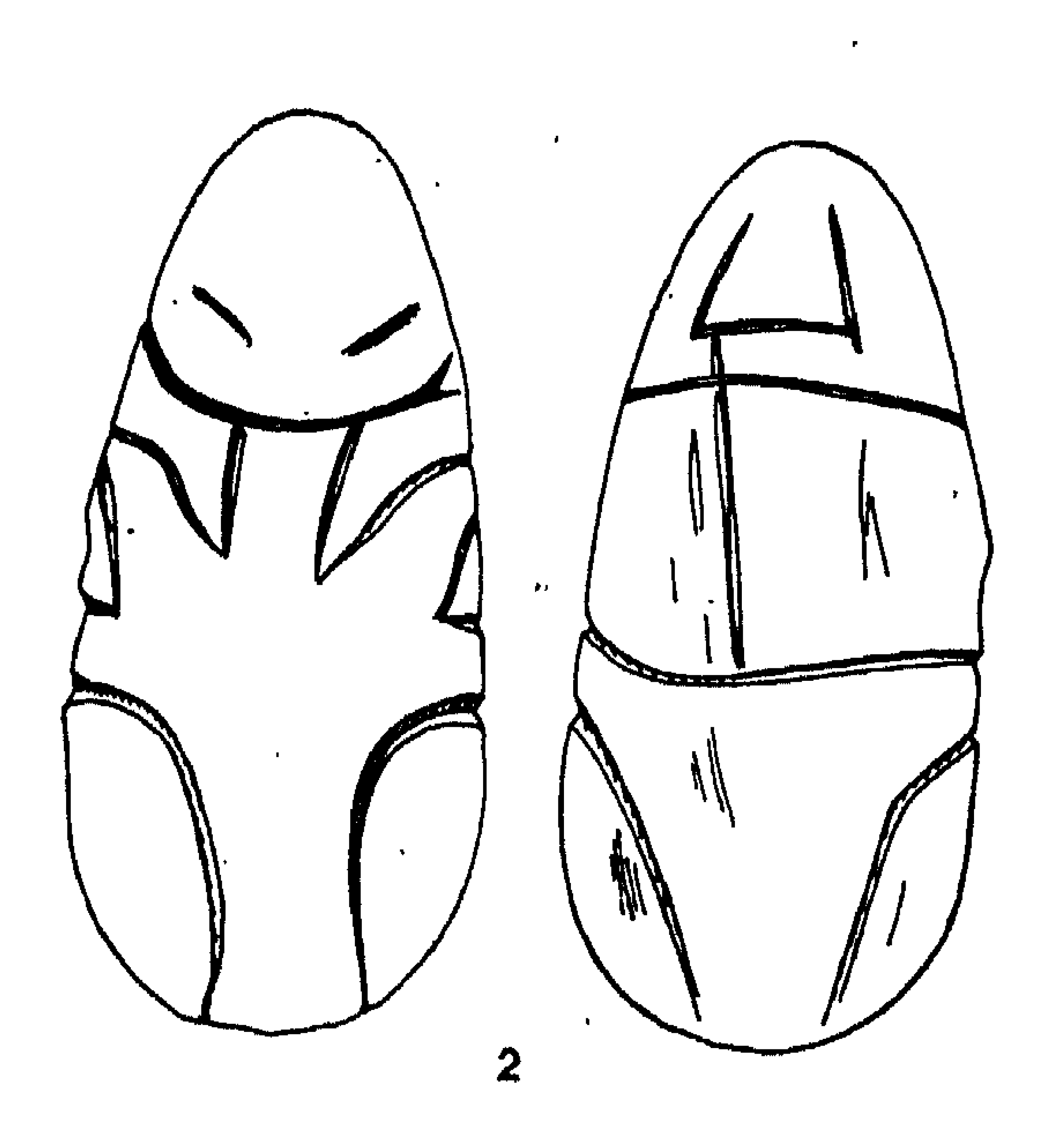
٣ ـ النموذج الثالث (Type 3) (الشكل ٢٠ رقم ١ ـ ٢ ، الشكل ٢٣) وهو أكثر اختصاراً ويضم عدة تماثيل نفذت على الحصى المسطحة (3a, 3b) أو الاسطوانية (3c) وقد نحت فيه بشكل خاص الوجه بينما اقتصر نحت بقية الجسم ، إما على ثلم مزدوج اظهر الحوالب (3a) أو على خط واضح فصل بين الرأس والجسم (3b) ، ولكن لم يشر إلى النهود اطلاقاً . وهناك عدة تماثيل من جبيل تندرج تحت النموذج 3b (الشكل ٢٠ ، رقم ١ـ٢) . في التمثال رقم ١ نرى أن الوجه قد حظي بعناية خاصة إذ تم ابراز العيون والحواجب والأنف والفم . كما أن الحت الكثيف للقسم الأعلى من الحصوة التي نفذ عليها الشكل ساعد على تمييز الرأس الذي ظهر رقيقاً ومنحوتاً من الجانبين ومفصولاً عن بقية الجسم الأكثر انتفاخاً . وأما الشكل رقم ٢ فهو شديد التبسيط حيث لم يرمز إلا إلى الفم والحواجب كما يوحي بذلك تقسيم التمثال إلى جزئين أعلى وأسفل .

إن اثلام الحوالب (Type 3a) لم تظهر إلا على نموذج واحد نشره بيرو من منهاتا ٢ (الشكل ٢٣ ، رقم ٢) وعلى عدة قطع من شارهاغولان (رقم ١ ، ٣) بينها

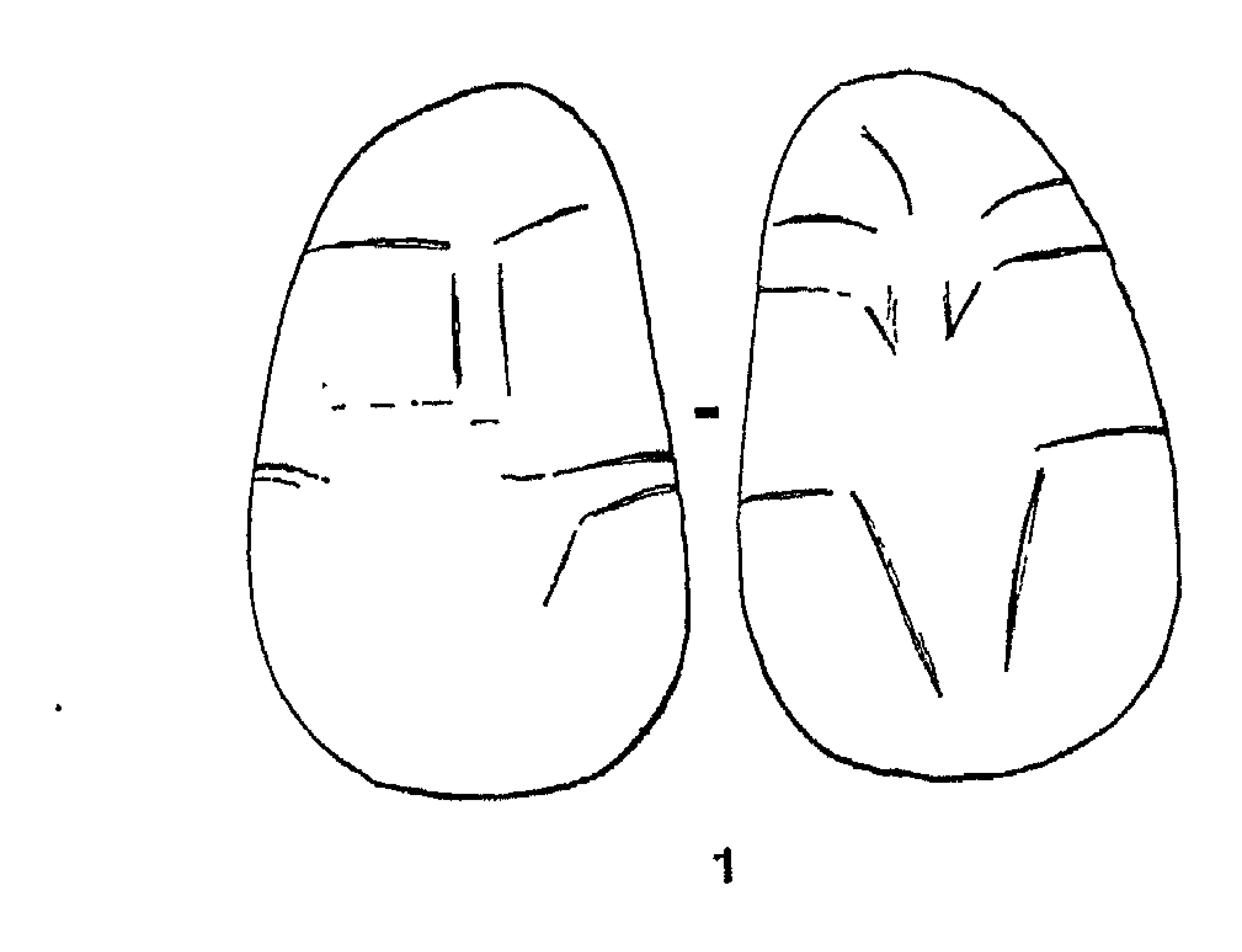


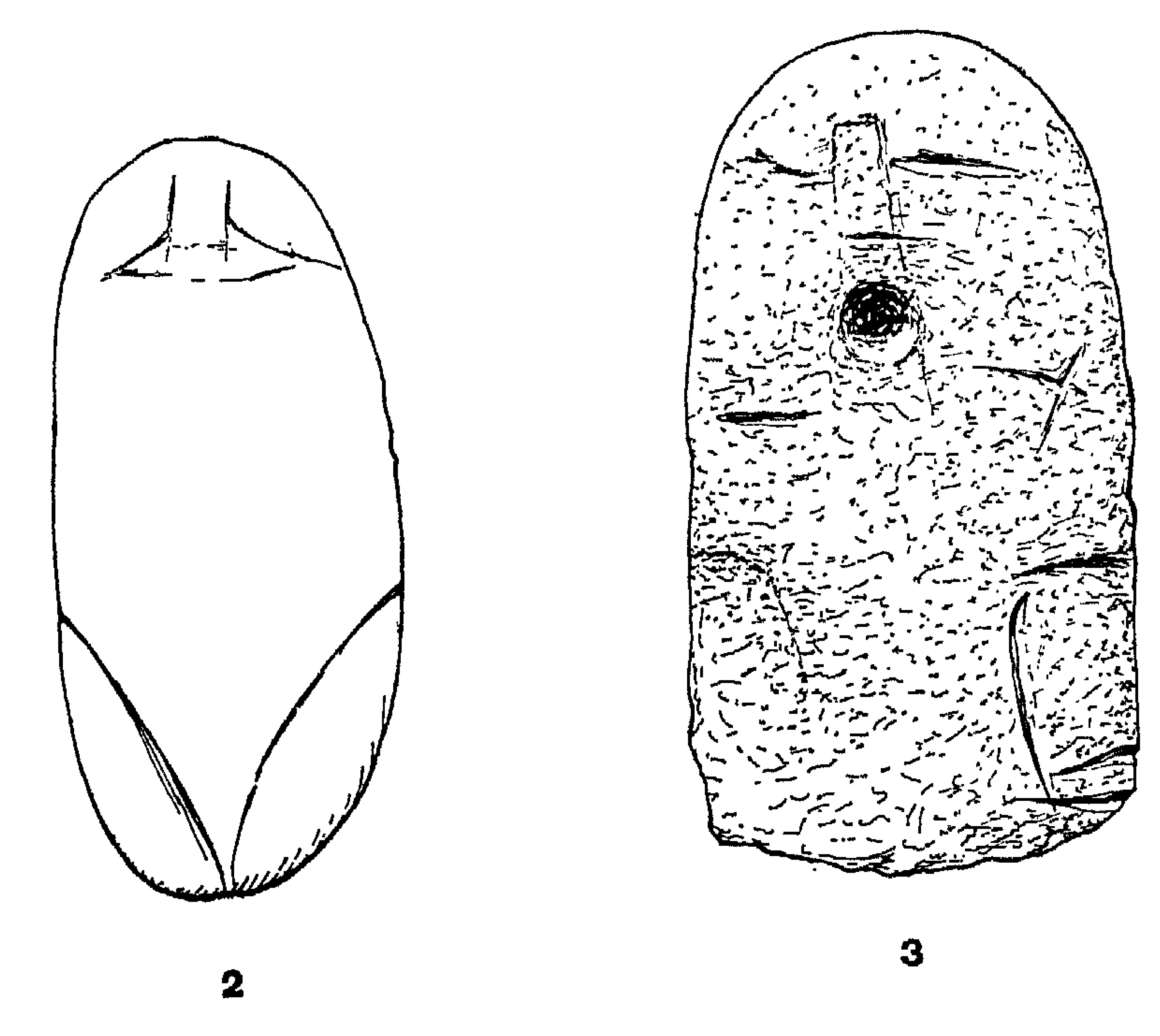
الشكل ٢١ : شارهاغولان ، تماثيل على حصى من النموذج ١، ١ ـ النموذج: آ١ ، ٢ـ٣ النموذج: ا ب (١؛٣ عن ستكليس ٢، عن أناني) .





الشكل ٢٢ : شارهاغولان،تماثيل على حصى من النموذج ٢ عن ستكليس .





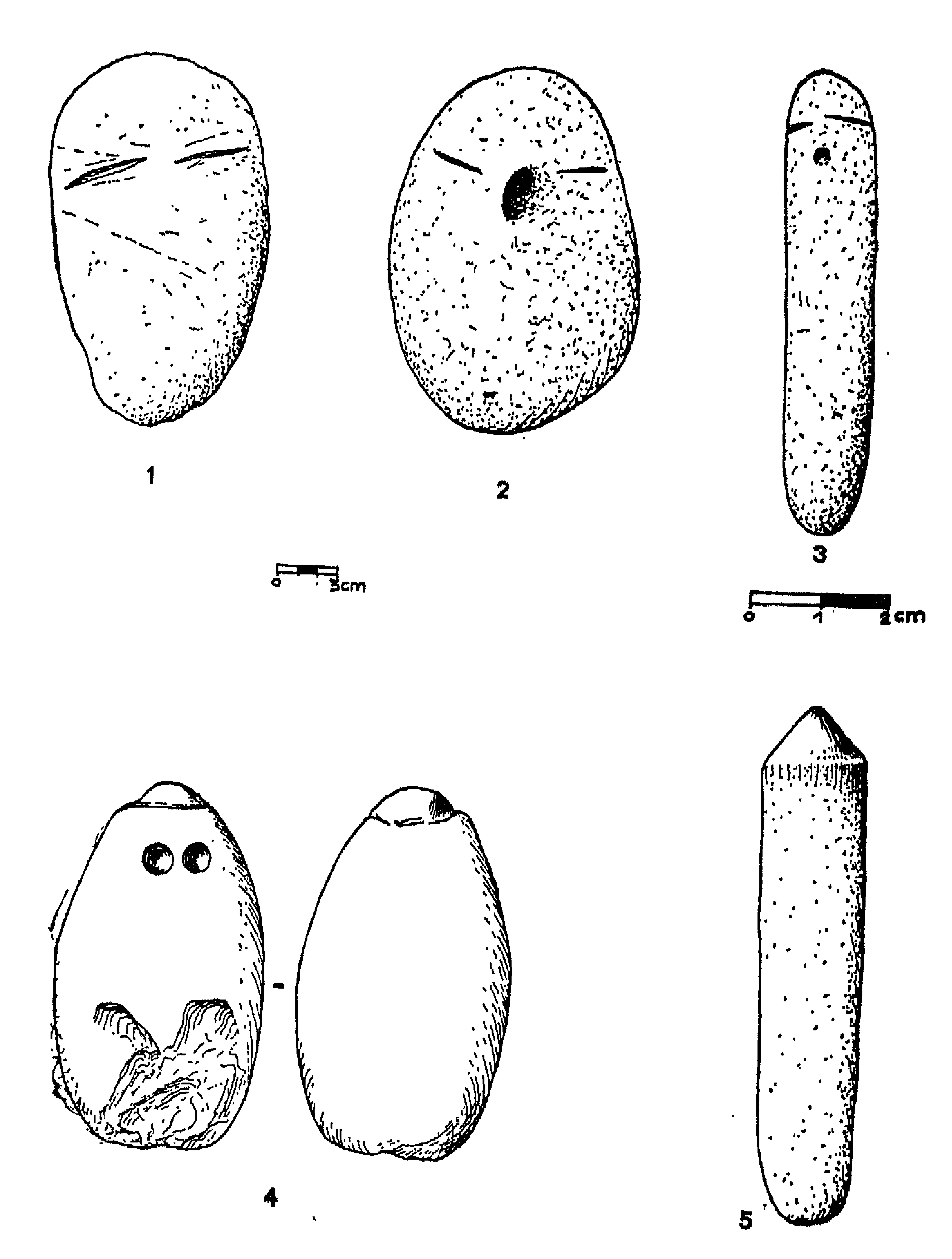
الشكل ٢٣ : تماثيل على حصى من النموذج٣ من شارهاغولان (رقم ٣،١) ومنهاتا ٢ (رقم ٢). عن ستكليس (رقم ١) بيرو (رقم ٢) أناني (رقم ٣) .

الشكل رقم ٣ الذي يصنف من حيث شكله الاسطواني على النموذج 3c[١] .

٤ ـ النموذج الرابع (Type 4) (الشكل ٢٠ رقم ٣ ـ ٤ والشكل ٢٤) وهو لا يحمل إلا إشارات للوجه تقتصر على خطين أو نقطتين تدلان على العيون وتقعُّر صغير يشير إلى الفم . أو ، أحياناً ، إلى العيون فقط . ويمكن أن نميز بين تماثيل هذا النموذج نوعين : الأول (النموذج 4a الشكل ٢٤ رقم ١ ، ٢ ، ٤) نفّذ على حصى عادية مسطحة ، والنوع الثاني (Type 4b) نفذ على حصى اسطوانية ومتطاولة وجدت في شارهاغولان (رقم ٣) وفي جبيل (الشكل ٢٠ رقم ٣ـ٤) وقد فسِّرت أشكال النوع الثاني المتطاولة أنها تمثل الأعضاء الذكرية مما يدل على انها تعود لرجال . ولكننا لاحظنا أن التمثالين العائدين للنموذج الثاني واللذين تشير النهود بشكل قاطع إلى شكلهما الانثوي ، لهما أيضاً شكل عام متطاول مما قد يوحي بصفات ، العضو الذكري ، ولكن دون أن تكون هناك أية صفات ذكرية ، إيحائية واضحة ، ونلاحظ التباساً مشابهاً في بلاد الرافدين حيث نرى في بعض التماثيل الحلفية اجتماعاً بين البدانة الانثوية القوية وبين تطاول غريب نحو الرأس . (Mallowan et Rose 1935 Fiq 47) . ونستحضر هنا النماذج الباليوليتية التي اسماها بورديه الانثى ـ الذكر (Venus-phallus) (Bourdier 1967 Fiq 105) التي ربما تعبر عن رغبة إنسان ماقبل التاريخ في اظهار صفات الجنسين على نفس التمثال . ومن الغريب أن هذا التخنث ، المفترض ، لم يظهر هنا أبداً ، عدا تمثال طيني من جبيل سنصفه لاحقاً (ص٨٦) ، من خلال التمثيل الواضح للاعضاء الذكرية في

---

(١) لابد أن نلاحظ الصفات الخاصة لهذه القطعة الأخيرة لأن كل التماثيل عموماً قد نفذت على حصى لها وجه وظهر بشكل عَكَسَ وجهها الصفات الأمامية للانسان (الوجه) بينما دل ظهرها على صفاته الخلفية (الظهر) أو بقي دون نحت (الشكل ٢٢ رقم ٢) ولكن على العكس من ذلك فإن القطعة رقم ١ من الشكل ٢٣ نحتت عليها الصفات الأمامية من الجهتين الوجه والخلف . وجهها الأول حمل صفات النموذج ٣ الذي نتحدث عنه هنا بينما يشبه وجهها الثاني ، الصورة رقم ٢ في الشكل ٢٢ المصنفة على النموذج ٢ . كما أن الصورة رقم ١ في الشكل ٢٤ تحمل على ظهرها وجهاً مطابقاً تماماً للذي ظهر على سطحها الوجهي أيضاً والعائد إلى النموذج الرابع (Type 4) .



الشكل ٢٤ : شارهاغولان ، تماثيل على حصى من نموذج ٤آ (رقم ١، ٢، ٤) والنموذج ٤ب (رقم ٣) والنموذج ٥ (رقم ٥) عن ستكليس .

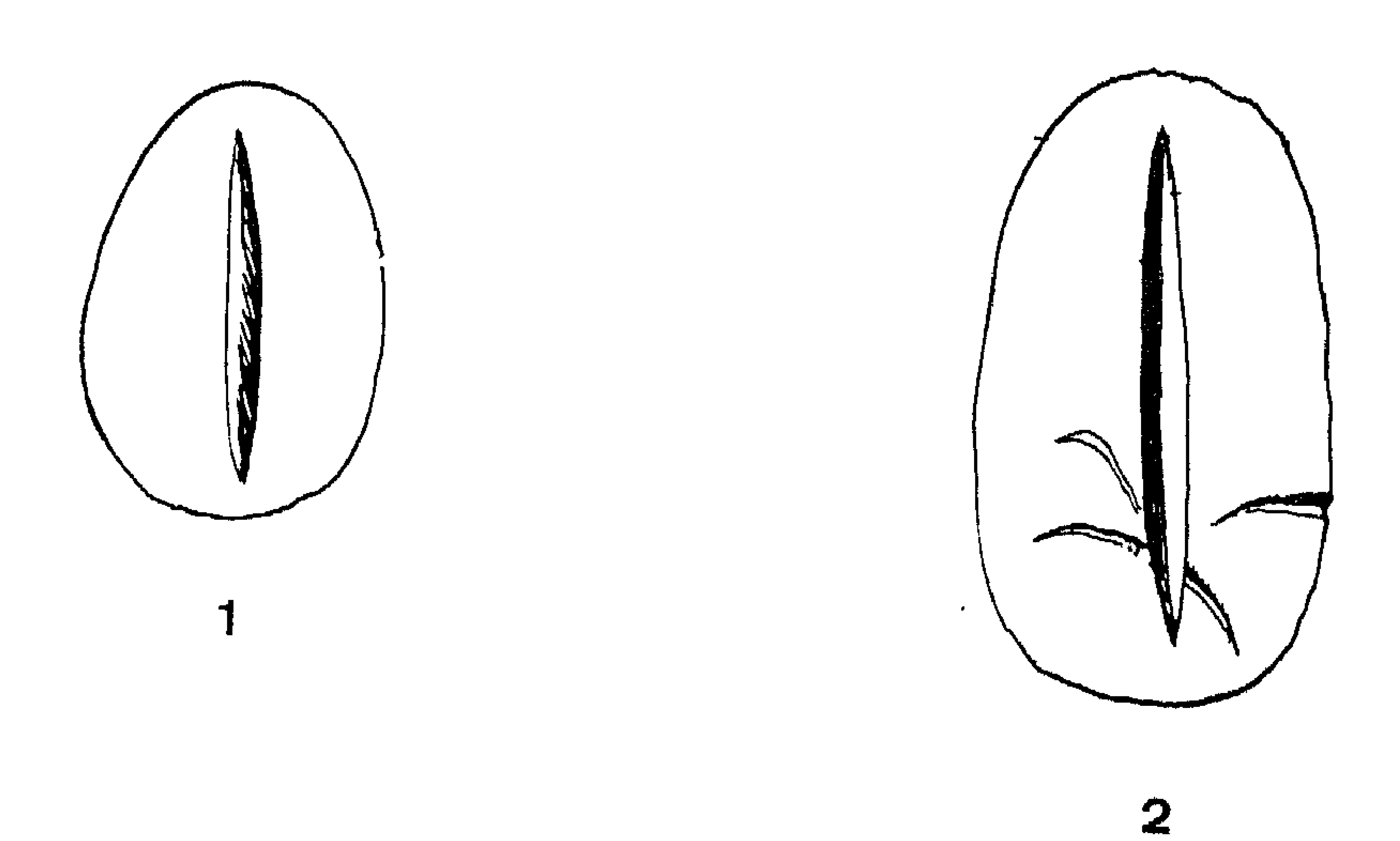
مكانها التشريحي الطبيعي . وبالمحصلة فإننا لا نستطيع القول إلا أنه كان هناك بالفعل اختيار مقصود لحصى ، ذات أشكال متطاولة ، جرى تحويلها إلى أشكال إنسانية .

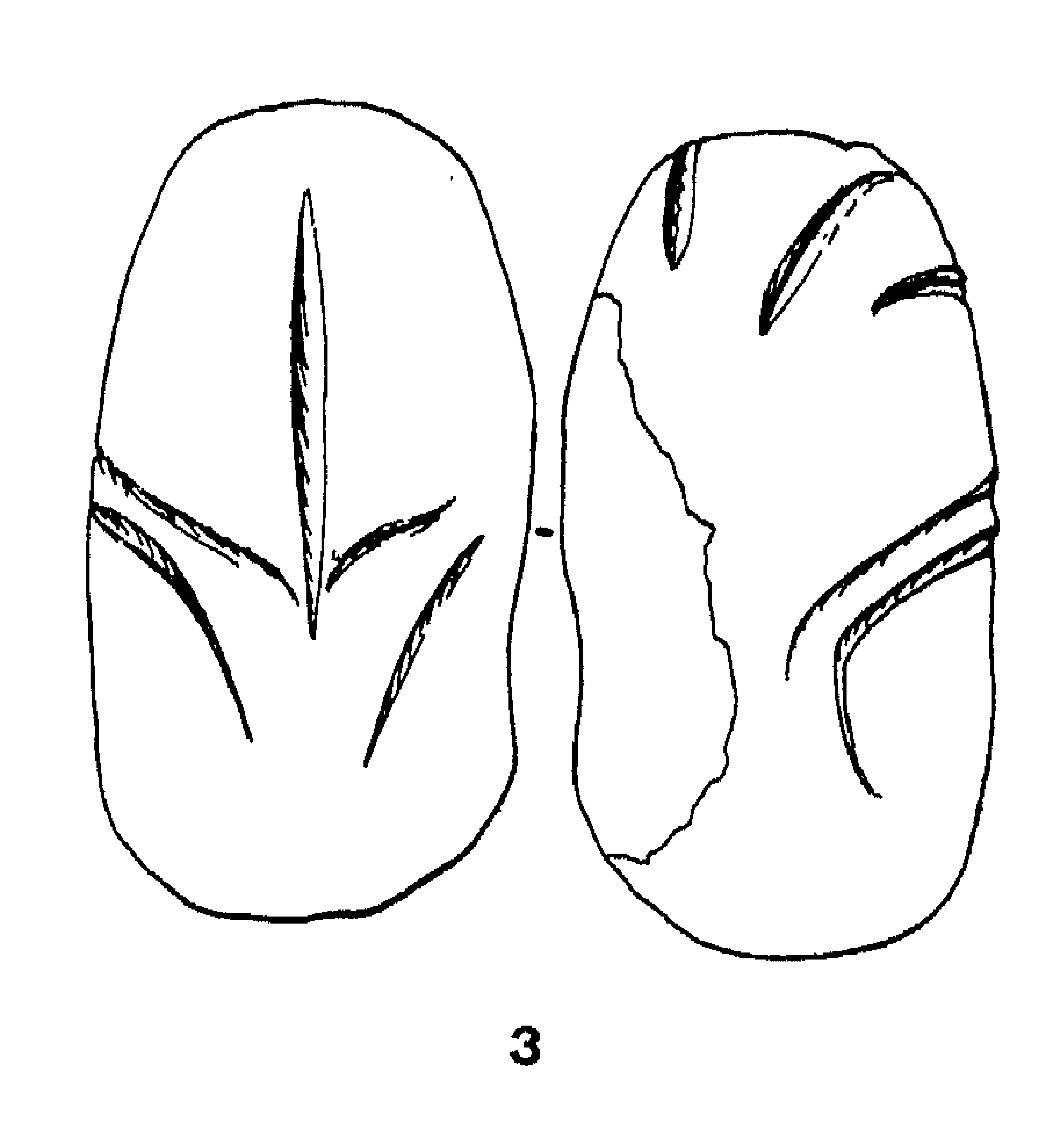
٥ ـ ويظهر الطابع الانساني ، بشكل خفي ، في النموذج الخامس (Type 5) الغير ممثَّل ، فعلاً ، في شارهاغولان إلا من خلال قطعة واحدة (الشكل ٢٤ رقم ٥) اعتبرت من قبل ستكليس (1951, p. 11) «رمزاً ذكرياً» إن الشكل العام لهذه القطعة هو نفسه في النموذج 4b ولكن الصفة الذكرية ، الانسانية تظهر في الشكل المخروطي لنهايتها . وقد وجدت قطع مشابهة ، في منهاتا ، (Perrot 1964. pl XXIIIn°19) بعضها من الطين : (1968 pl. V) .

٦ ـ النموذج السادس (Type 6) (الشكل ٢٥) وهو يقدم لنا أشكالاً يحتمل جداً أن تكون نسائية ، وجدت كلها في شارهاغولان وهي حصى يميزها شق يتوسطها ، عميق جداً وله نهايات واضحة ، يرى فيه ستكليس تجسيداً للفرج (نفس المصدر ص ١٢) ويمكن أن يكون هذا التفسير حقيقياً[١] . وفي الشكل ٣، المكسور من جانبه ، للأسف ، ظهرت الصفات ، الشبه انسانية ، بل والانثوية ، من خلال اظهار الشق المزدوج للحوالب ، الذي يشبه كثيراً الصورة رقم ١ في الشكل ٢٣ ، كما أن الشقوق تمتد ايضاً على ظهر التمثال . ويظهر تمثيل الحوالب بشكل خفي على الصورة رقم ٢ في الشكل ٢٥ ، ولكنه يغيب في الصورة رقم ١ التي وجد الكثير منها في شارهاغولان . إن تمثيل الفرج ، إذا كان صحيحاً ، فمن الواضح أنه لم يحصل في مكانه التشريحي الواقعي وإنما في منتصف القطعة المنحوتة بشكل ظهرت الدلالة الرمزية أكثر قوة . بين كل التماثيل التي عرضناها فإن النموذجين ١ و ٦ هما اللذان يمثلان الأشكال النسائية ، وربما كانت التماثيل

---

(١) وهناك فرضية اخرى تعتبر أن هذه القطع هي أدوات صقل لها ثلم من أجل صنع مخارز عظمية كالتي نشرها بيرو (1966. b. Fig 20) من العصر النطوفي في عين الملاحة ولكن هذه الفرضية لا تفسر الحزوز الثانوية الأخرى التي رافقت ، غالباً ، الشق المركزي . ونحن نعتقد أن هذه القطع هي تماثيل مختزلة .





0 1 2 3cm

الشكل ٢٥ : شارهاغولان ، تماثيل على حصى فيها شق مركزي (النموذج ٦) عن ستكليس .

الأخرى كذلك ، مع أنها لا تحمل صفات جنسية واضحة . وإذا اخذنا بعين الاعتبار الصفات الشديدة الاختزال لهذا الفن ، والإشارات البسيطة التي ، لوحدها ، غير كاملة الدلالة ، كتمثيل الحوالب أو العيون ، ولكنها وجدت في أماكن اخرى في اطار اكمل ، فإن ذلك يجب أن يكون كافياً لاعتبارها تمثل نفس الحقيقة الواحدة والمقدسة . كما أن التطاول الخاص لبعض الاشكال لا يكفي ، كما رأينا ، لالغاء صفاتها الانثوية ولكن ربما كانت خلف هذه الصفة فكرة أخرى سنتعرض لها عندما سندرس المظهر الآخر للفن النيوليتي وهو التماثيل الطينية .

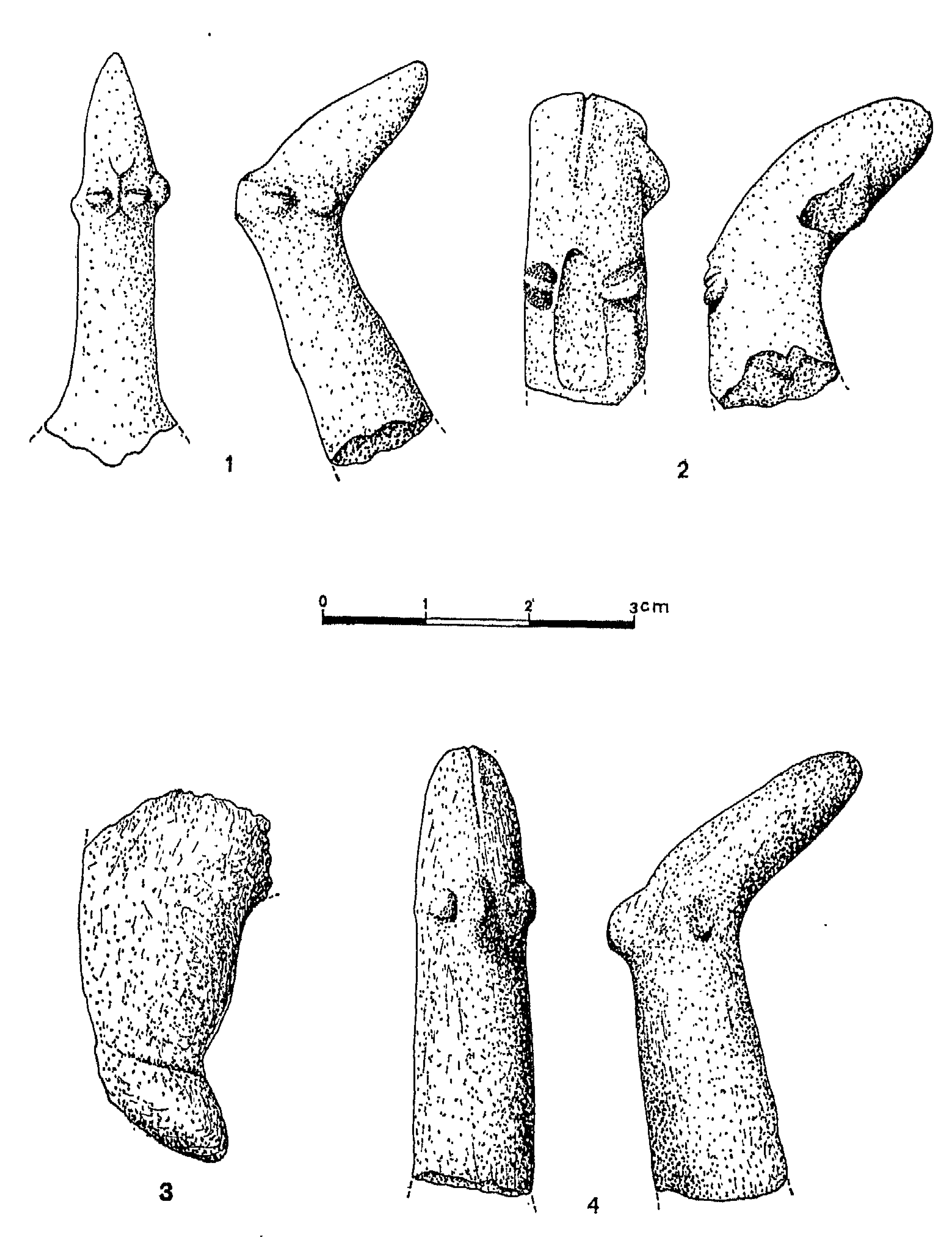
ـ التماثيل الطينية الشبه ـ انسانية من تل الرماد وجبيل :

إن التماثيل الانسانية الطينية ، حيث لا تتدخل المادة الصلبة ، هي التي تُظهر بوضوح النموذج (Stéréotype) ذا الصفات المميزة والواسع الانتشار في سورية وفلسطين . إن التفرُّد «في اللهجات» ، الذي نلمسه بين موقع وآخر ، يحمل عدة صفات عامة تتواجد في كل مكان : النهاية المخروطية المائلة إلى الخلف ، وتقنية مايسمى «بعين الحية» التي تجسد ذلك العضو ، كما في عصر عبيد اللاحق ، بواسطة كرة مائلة ومحزوزة .

وقد لعب تل الرماد دوراً خاصاً في ولادة هذا النموذج . إن التمثالين ، من الطين المشوي ، المصورين هنا (الشكل ٢٦ رقم ٢ ، ٤) قد نسبا من قبل كونتنسون إلى السوية الثالثة الفخارية أي إلى الألف الخامس ، وتدعم هذا التأريخ تقنية وطابع هذين التمثالين . ولكن تمثالاً آخراً (رقم ١) وجد في سنة ١٩٦٦ ونسب الى السوية الاولى ، مما يؤرخه على نهاية الألف السابع ، (نفس المصدر 1967 p 20) وإذا اخذنا القرابة المورفولوجية الشديدة بين هذه التماثيل الثلاثة فإن الفصل الكرونولوجي بينها يبدو غريباً ويدل على ظهور مبكر ، في تل الرماد ، لهذا النوع من التماثيل ، ولكن من المحتمل ، كما يظن كونتنسون حالياً ،[1] أن تمثال ١٩٦٦ قد تسرب إلى سوية ماقبل الفخار ولم يكن في مكانه الاصلي .

---

(١) حديث شخصي .



الشكل ٢٦ : تل الرماد، تماثيل شبيهة بالانسان من الطين من السوية الثالثة ، عن كونتنسون .

في هذه التماثيل الثلاثة تمت الاشارة الى العيون والآذان بواسطة كرات ، حزنت احياناً في حالة العيون ، (رقم ١ ، ٢) وقد اشير الى الأنف عبر كرة مسحوبة بشكل عمودي ، الصقت لاحقاً في التمثال رقم ٢ ، أو عبر قرص بسيط من الطين .

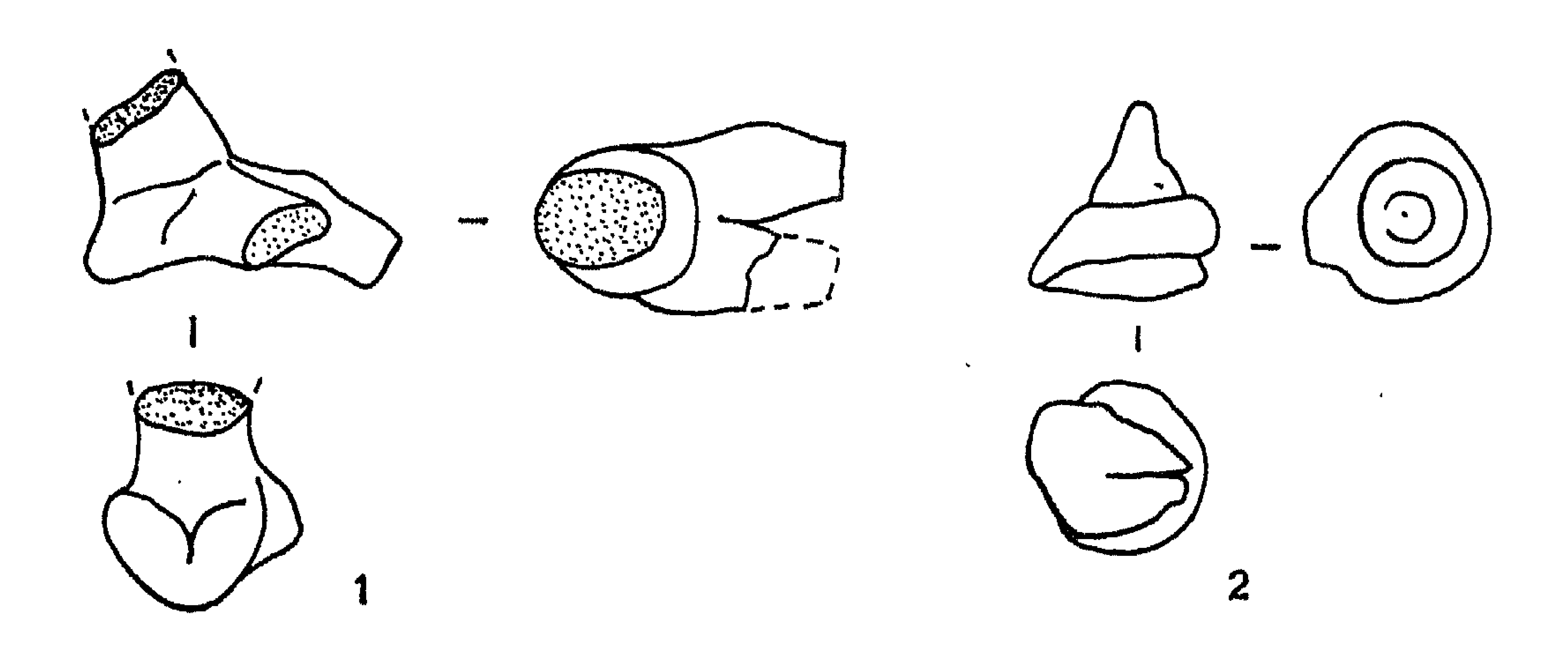
الجمجمة مخروطية ومسحوبة بشدة إلى الخلف ، وكان ، في تمثالين من عام ١٩٦٣ ، يتوسطها شق يقسم قمتها إلى قسمين ، الرقبة متطاولة جداً واسطوانية ، وهي غير مفصولة عن الوجه ولا وجود للذقن . لم يعثر على أي تمثال كامل من هذه الأنواع مما يسبب صعوبة في اعادة تصور شكلها الأصلي .

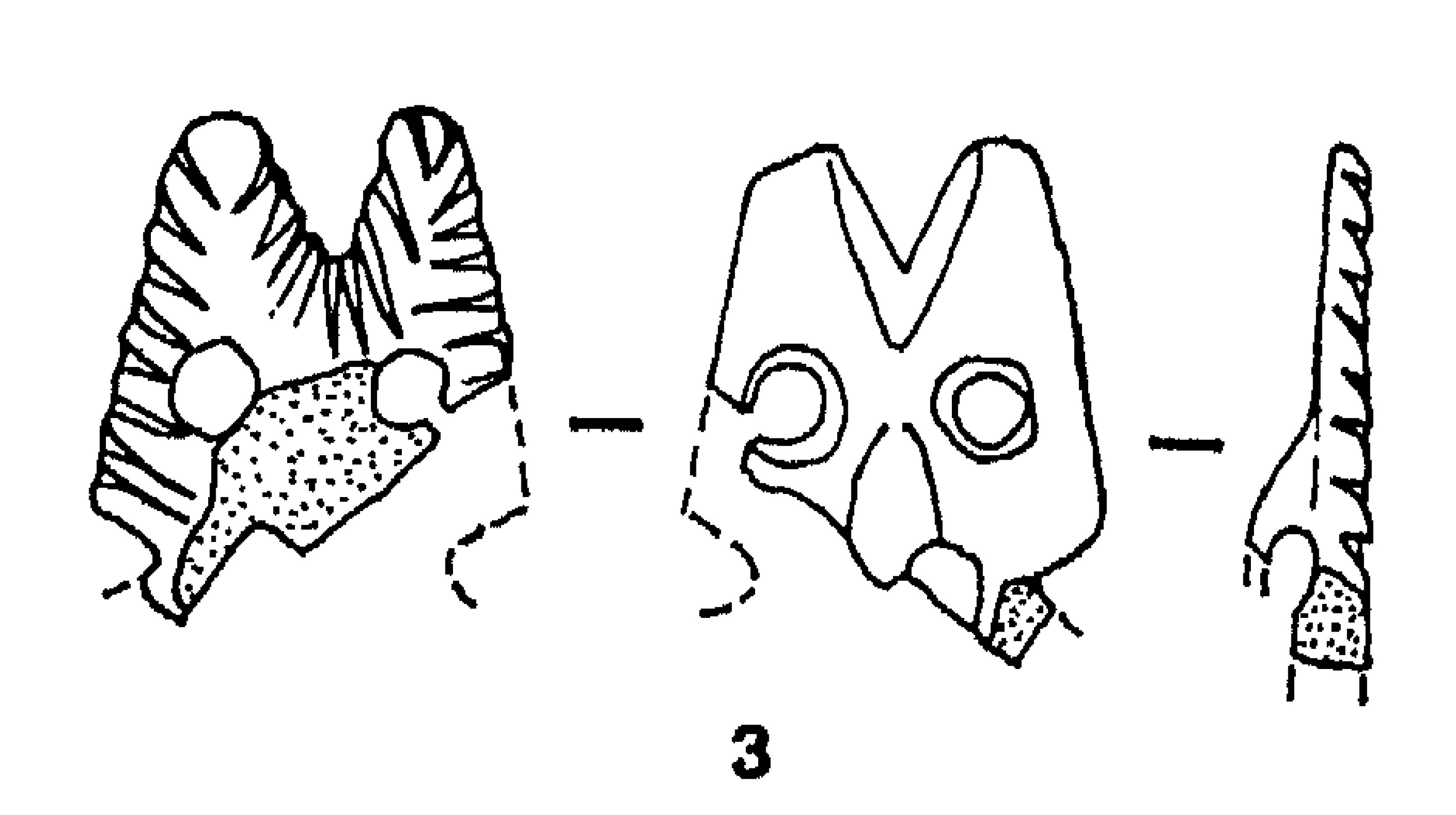
ولكن الاتساع المفاجىء ، عند منطقة الكسر في التمثال رقم ١ يدل على أن هذه الرقبة المفْرِطة كانت مثبتة على جسم أعرض . ومن جهة أخرى فإن كل السويات قد اعطت أجزاءً صغيرة من تماثيل من الطين النيء أو المشوي ، حسب قدمها ، صنعت بطريقة اكثر واقعية . .

في الصورة رقم ١ في الشكل ٢٧ (السوية الثالثة) ظهر الجذع والافخاذ بوضعية جالسة ، بينما اندفع الورك الى الخلف ولكن دون مبالغة . وبالمقابل فإن الصورة ٣ في الشكل ٢٦ تمثل ساقاً بشرياً ظهر بشكل منتفخ . كما وجدت اجزاء عديدة مشابهة لهذا الساق صنعت من الطين النيء أو المشوي . إنه ليس من المستبعد أن تكون للتماثيل الكاملة، كما كان سائداً في أمكنة اخرى ، رؤوس اكثر ميلاناً للخلف وأجسام أعرض ، من التمثال الصغير الشديد الاختزال الذي وجد خارج اطاره الستراتغرافي ، والذي يدل على التباين في هذا المجال ، وتمثله الصورة رقم ٢ في الشكل ٢٧ ، وهو يصور شخصاً جالساً على طبق دائري عريض ، ومشار إلى عجزه بشق بينما اقتصر جسمه على شكل نحيل مدبب ، كما في بعض التماثيل الرافدية (انظر الشكل ٣٤ رقم ١-٢)[١] .

---

(١) وجدت في السوية الثالثة في تل الرماد أشكال اخرى ، ربما انسانية : حلقة من العظم عليها وجه انساني مختزل ، أو شكل طير له انف ومنقار (الشكل ٢٧ رقم ٣) وقطعة أخرى من العاج من نفس نوع الأولى . ووجد ايضاً تمثال خشن من البازلت له شكل هرمي تقريباً .





0 1 2 3cm

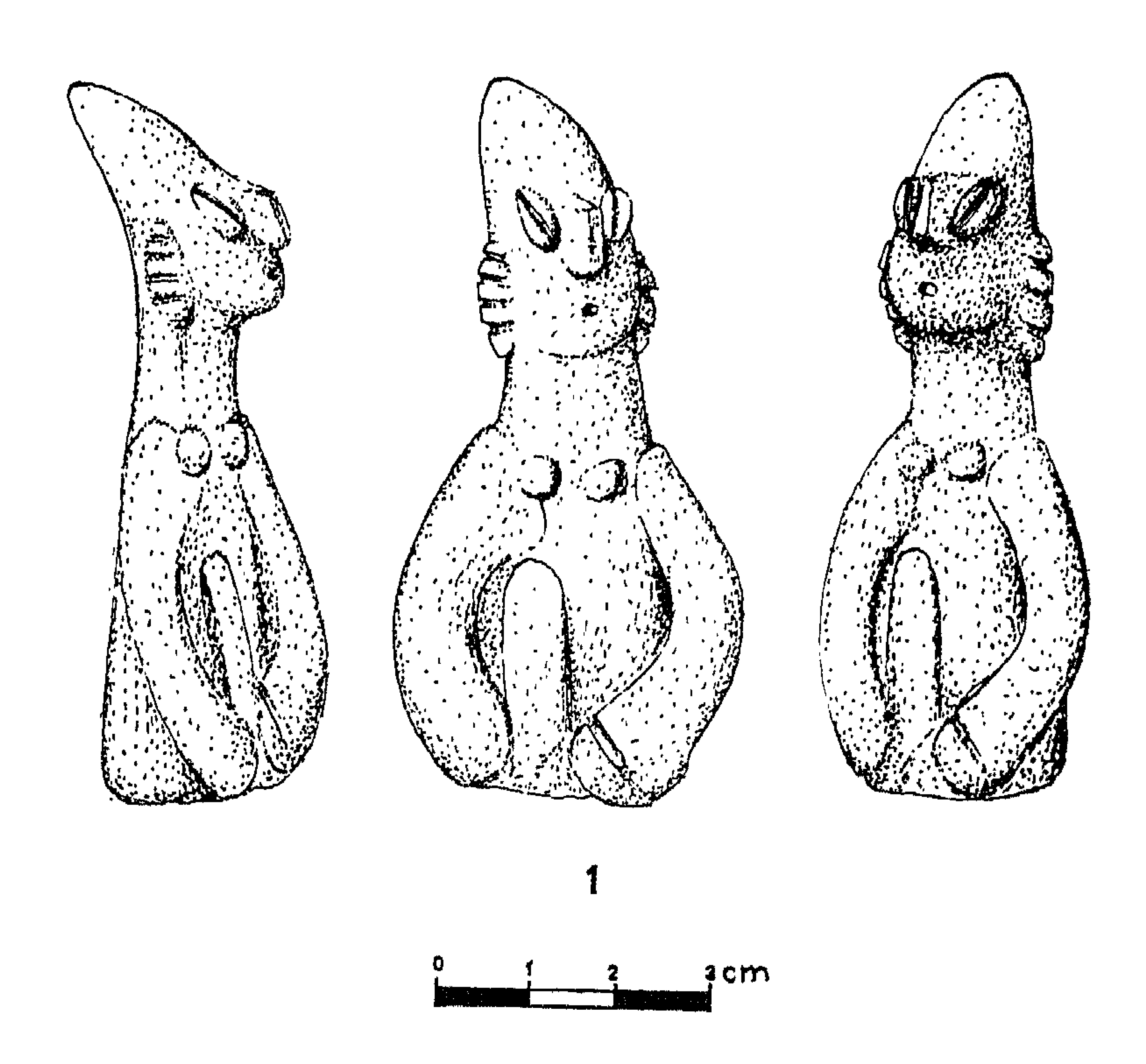
الشكل ٢٧ : تل الرماد، تماثيل: ١-٢ من الطين النيء ٣- من العظم ، عن كونتنسون .

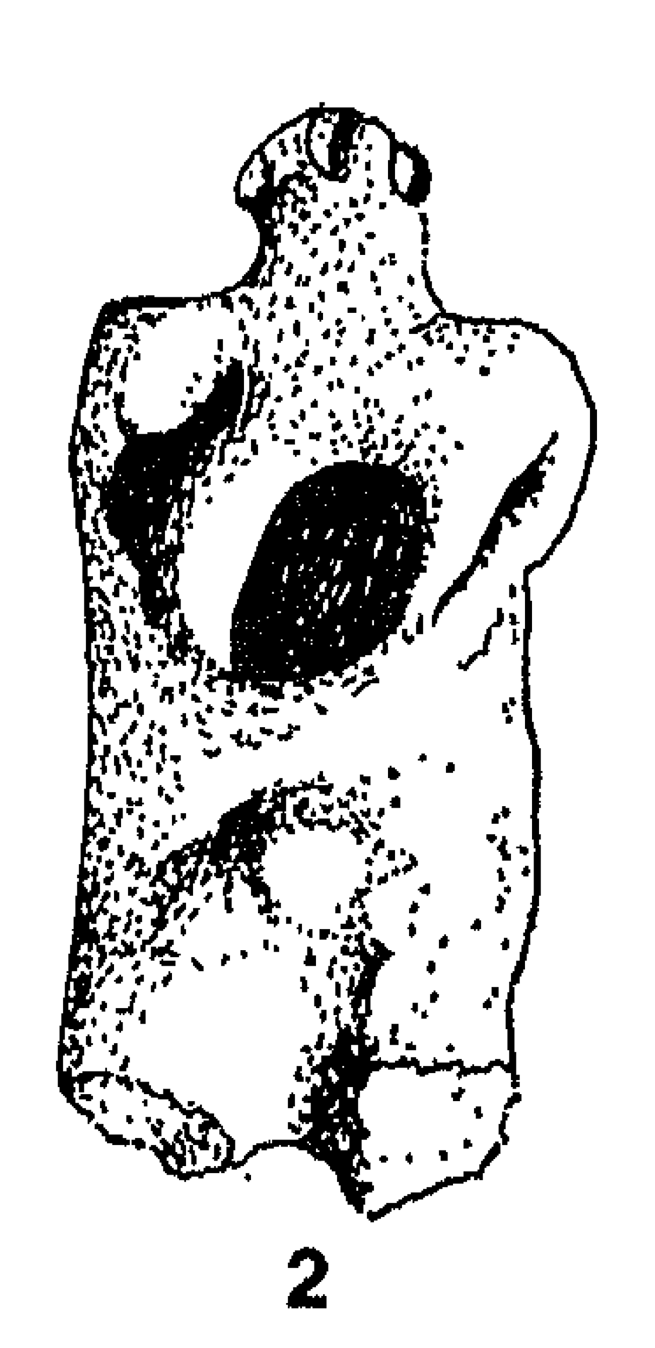
هناك تمثالان من جبيل ، يؤرّخان كما رأينا ، على النيوليت القديم ويشكلان النموذج اللبناني لهذا النوع من التماثيل (الشكل ٢٨ رقم ١ ،٢) التمثال الأفضل صنعاً (رقم ١) له نفس نموذج الرأس المخروطي والمائل إلى الخلف كما في تل الرماد ، إلا أن هذا الميلان هنا هو أقل بروزاً ، الوجه على شكل مثلث وتفصله عن الرقبة ذقن واضحة العيون من كرات بيضوية محزّزة على شكل حبة القهوة ، وموضوعة بشكل مائل ، الأنف معقوف ومشار إليه بقطعة من الطين . والآذان اشير لها عبر كرات متطاولة محززة إلى أربع اجزاء أفقية يصعب تحديد دلالتها . والفم تدل عليه نقطة . وبقية الجسم تقتصر على صدر فيه نهود مشار إليها بكرتين . بينما تميل الأذرع إلى الأسفل والامام ، والمعصم مشار إليه ، على يد واحدة ، بحز وتكاد اليدان تلتقيان على البطن . وفي المنطقة الفاصلة بينهما ، والبالغة ٥ مم يرتفع ، بشكل عمودي ، جسم متطاول ومسطح ، اضيف لاحقاً ، طوله ٢سم ، من الصعب أن لا يُرى فيه تجسيد لعضو الذكر وهكذا فإن هذا التمثال جمع ، بشكل غريب ، صفات الجنسين .

أما التمثال الثاني ، من الطين النيء فهو أكثر غموضاً ، ومن غير المستبعد أن يمثل شكلاً ذكراً أشير إلى جنسه ، في مكان الكسر الحالي ، وبالمقابل فإن الأذرع (؟) النحيلة تميل نحو حفرة في البطن . وكما في التمثال الأول كانت العيون من الكرات المتطاولة ولكن الرأس ، غير مائل ، وضامر وفيه شق في وسطه ، يذكر بشق مماثل من تل الرماد ، يقسم الجمجمة إلى قسمين ، وأرجل التمثال مكسورة ، وقد أرّخ هذان التمثالان على حوالي ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد .

تماثيل طينية من فلسطين : «الام الرهيبة»

إن التماثيل الفلسطينية ، هي احدث قليلاً من تماثيل جبيل إذ أنها تؤرخ على حوالي ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، وهي تقدم ايضاً نموذجاً أكثر اكتمالاً وتعبيراً . بالاضافة الى الحصى المنحوتة فقد اعطت السويه الثانية من منهاتا العديد من





الشكل ٢٨ : جبيل، تماثيل من الطين من النيوليت القديم ، عن دونان .

التماثيل من الطين المشوي (الصورة ٢٩ ـ ٣٠) وهي في معظمها تماثيل نسائية[١] حسب بيرو (1964 pl. XVIII, 1966-a p. 60. 1967 p.12) وهناك تماثيل أخرى أتت من شارهاغولان ، اضافة الى تمثال وجده كابلان (Kaplan) في تل أبيب (Anati, ibid, p 267 et 275) . إن الطابع الخاص جداً لهذه التماثيل يختلف جداً عن تماثيل السويات ٦ ـ ٣ في منهاتا ، وهو بعيد جداً عن الواقعية لأنه عمد إلى مبالغة تشكيلية ، لم تُعرف لا من جبيل ولا من تل الرماد ، فقد تألف الجسم من اجزاء الصقت مع بعضها عبر كرات طينية مقوْلبة ، وحصل تشويه مقصود لبعض الصفات وخاصة الوجه . لقد مثلت النساء بدينة واقفة أو جالسة ووصل طولها في منهاتا حتى ثلاثين سنتيمتراً .

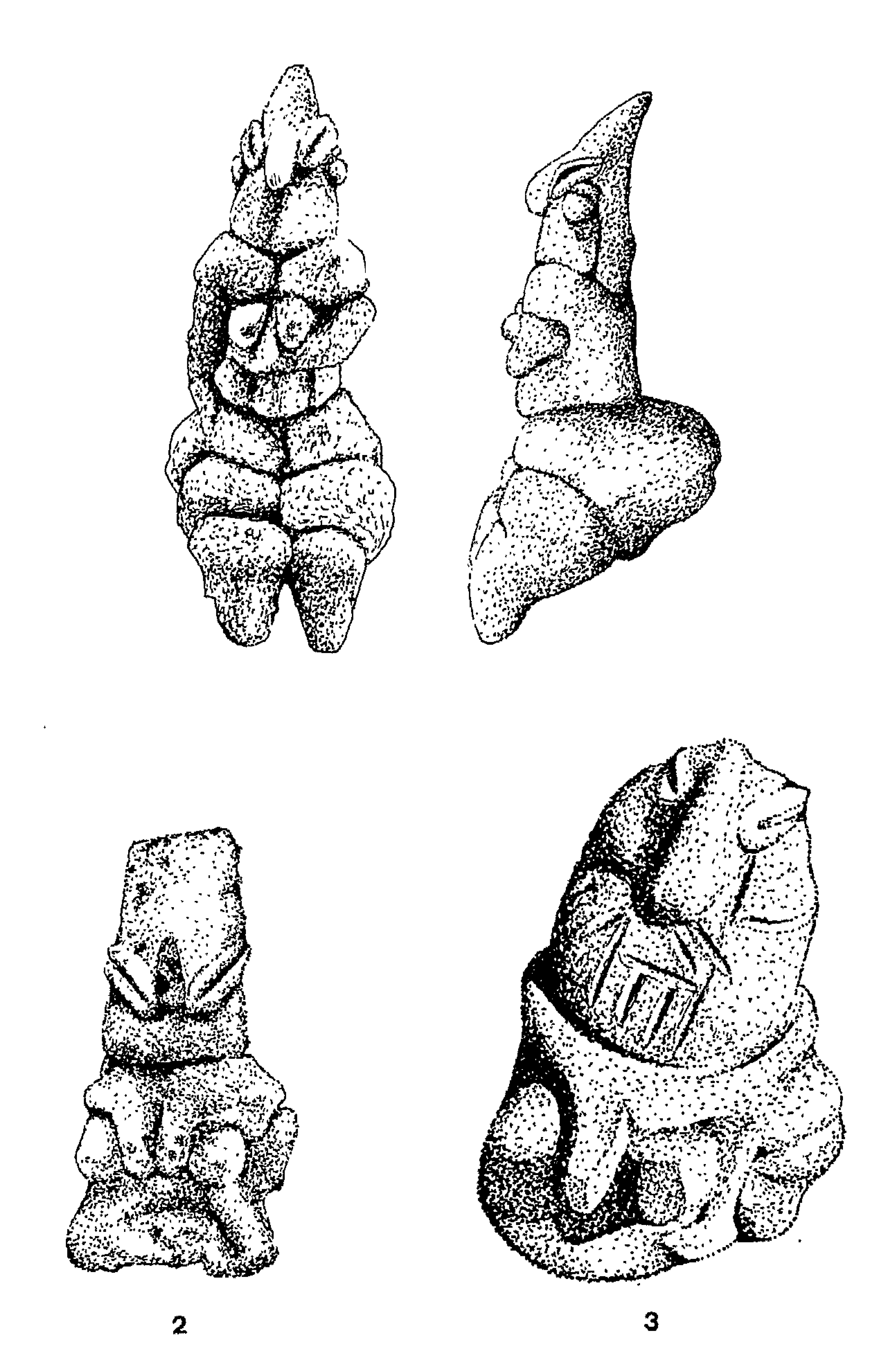
وقد أُبرز البطن والنهود بخاصة وكانت الأذرع مثنية وترفع النهود احياناً (الشكل ٢٩ رقم ١) وقد عومل الوجه وبشكل مقصود ليظهر مرعباً بأنفه الضخم وآذانه التي على شكل كرات دائرية ملصقة من الجهتين وعيونه المشكلة من كرات مائلة ومحزوزة طولانياً وفق الطريقة المسماة «عين الحية» التي لمسنا الظهور الأول لها في تل الرماد وجبيل كما أسلفنا . الشكل العام للرأس مثلث ، نهايته متطاولة بشكل قوي نحو الأعلى وإلى الخلف ، الفم مشار إليه عبر كرة افقية ، في شارهاغولان (الشكل ٣٠ رقم ١) أو بواسطة حز بسيط ، في تل أبيب (الشكل ٢٩ رقم ٣) بينما مثل الفم على الرأس في منهاتا (الشكل ٣٠ رقم ٢) وهناك حزوز على تمثال تل أبيب تبدو ، للوهلة الأولى ، انها تشير الى الشوارب واللحية ولكن من الأرجح أن هذه الحزوز كانت تهدف الى اظهار تقاسيم مختلف أجزاء الوجه .

إن هذا التصميم المسبق ، على المبالغة وتحوير الصفات الانسانية حسب نظام محدد ومتفق عليه ومتطلع نحو تعبير غريب ، يؤكد على الصفة الساحرة لهذه التماثيل ويبرز ، بشكل كاف ، طابعها الشيطاني .

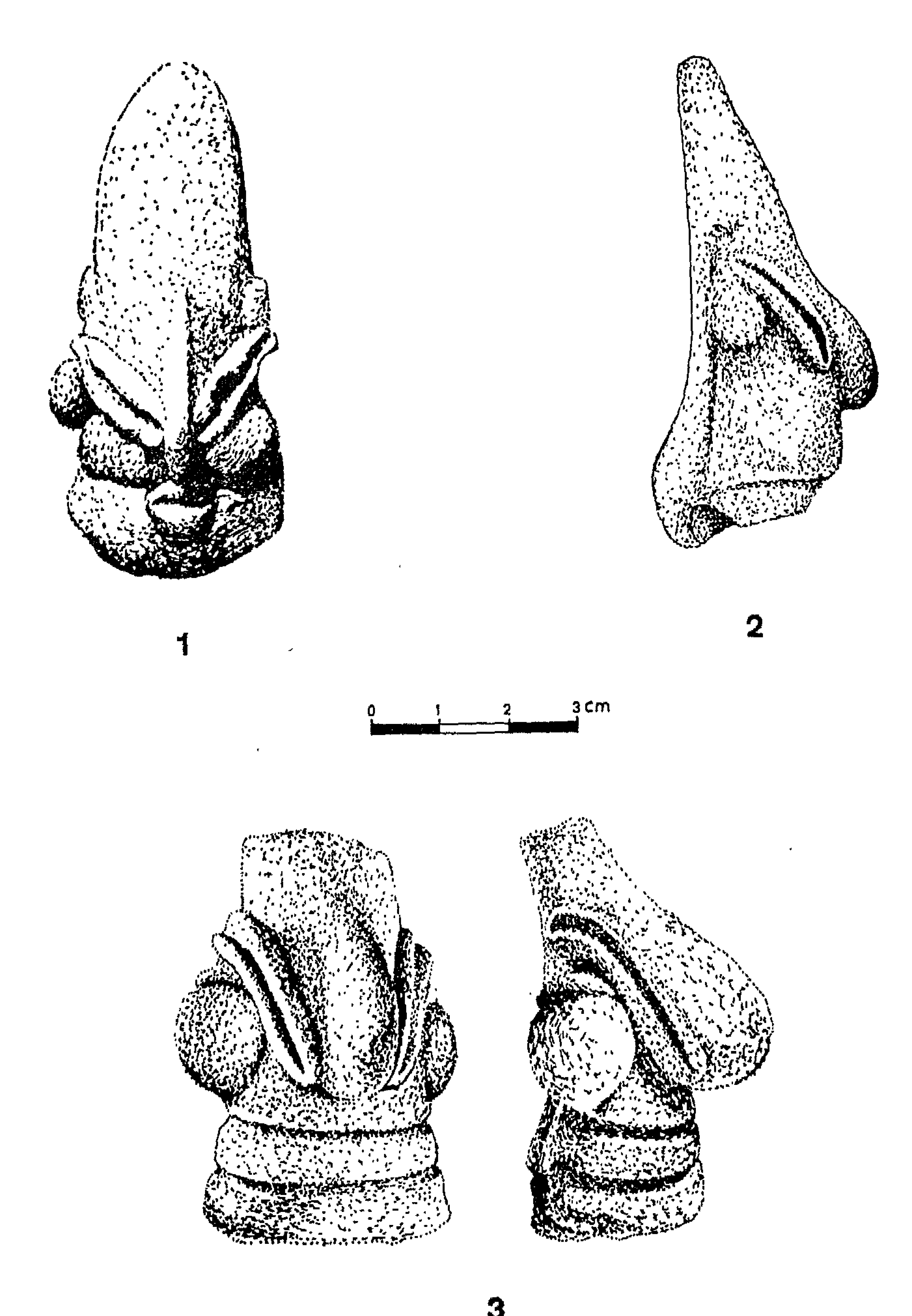
وعليه فإن تسمية الام الرهيبة (Mére térrible) المأخوذة من مفردات التحليل النفسي هي مناسبة تماماً .

---

(١) إن نتائج تنقيبات منهاتا لازالت في مرحلة النشر الأولي ولا يوجد أي جرد تفصيلي لهذه التماثيل . وينقصنا بخاصة توثيق الأنواع القليلة ، والتي ليست نسائية .



الشكل ٢٩ : آلهة جالسة من الطين من فلسطين ، ١-٢ ، منهاتا ٢، ٣ تل ابيب (عن كليشة بيرو رقم ١، ٢ وعن أناني رقم ٣) .



الشكل ٣٠: تماثيل من الطين من فلسطين ، ١ شارهاغولان ٢-٣ منهاتا ٢ ، عن كليشة أناني (رقم ١) عن بيرو (رقم ٢-٣) .

إن المقارنة بين التماثيل الطينية والتماثيل المنفذة على الحصى تعطي تشابهاً واقعياً،رغم الاختلاف في المادة وفي الاسلوب ، فإن الاشارة للعيون ، في التماثيل الحجرية ، عبر حزوز طويلة وغالباً مائلة ، من الممكن أن تذكر بعين الافعى ، في التماثيل الطينية . كما أن الاشارة المتكررة لمنطقة الحالب بخطين واحد يشير إلى الفخذ وآخر إلى أسفل البطن (الشكل ٢١ رقم ٢-٣) في التماثيل الحجرية يمكن أن تذكر بطريقة تقسيم الجسم ، عبر كرات ، في التماثيل الطينية (الصورة ٢٩ - رقم ١) إن الشكل المثلث عموماً ، لبعض التماثيل ، على الحصى ، من النموذج الأول (الشكل ٢١) يذكر بشكل واضح «بالربة الجالسة» وهذا التقارب يظهر أكثر ، وضوحاً إذا قارنا المنظر الجانبي للتمثال الحجري رقم ١ في الشكل ٢١ مع تمثال الالهة من الطين رقم ١ في الشكل ٢٩ من منهاتا .

وأخيراً فإن تطاول نهاية الجمجمة في تمثال منهاتا[١] ، الذي لم يخطر على بال أحد أن يعطيه تفسير «القضيب» يشبه النهايات المخروطية المقصودة في بعض الحصى البيضوية (الشكل ٢٤ رقم ٤) أو المتطاولة (رقم ٥) .

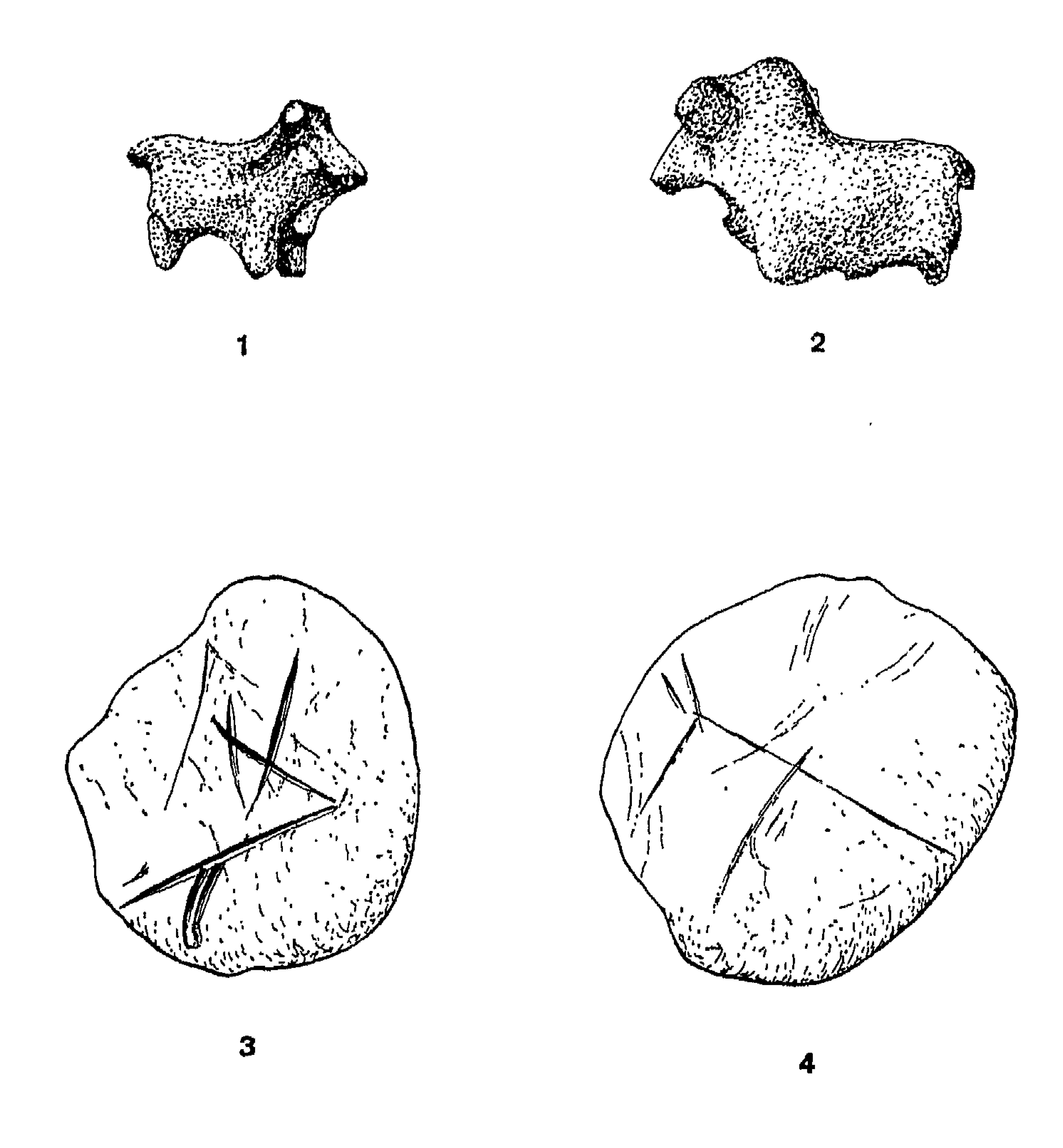
تمثيل الحيوانات :

لقد استمر تمثيل الحيوانات في عصر النيوليت الفخاري (الشكل ٣١) ويبدو ان هذه التماثيل ، بقدر ما تسمح التقارير المنشورة بالحكم ، قد كان لها أهمية ثانوية قياساً إلى التطور الكبير للتماثيل ذات الشكل الانساني المعاصرة لها .

ولدينا بدءاً من النيوليت القديم في جبيل بضعة تماثيل من الطين النيء ، لكن طابعها المهْمل ، لا يسمح بتحديد دقيق لنوعها مع أن شكلها الغليظ يذكر على الأرجح بالبقريات .

---

(١) حسب بيرو (1967. p 12) فإن هذا التطاول يذكر بقبعة للرأس ، وهذا غير مستحيل ولكن التحويرات العديدة والمقصودة في التماثيل تجعل التفسير عبر اجزاء من الرداء ، ربما ، غير مجد .



الشكل ٣١: النيوليت الفخاري من فلسطين ، تماثيل حيوانات من الطين من منهاتا ٢ (رقم ١-٢) وعلى الحصى من شارهاغولان (رقم ٣-٤) ١، ٢ عن كليشة بيرو ، ٣، ٤ عن ستكليس .

وقد نشر بيرو من منهاتا ٢ تمثالاً من الطين النيء أتى من الجزء الأسفل للسوية (2B) يدل الحنك على أنه بقرة (رقم ١) إن تماثيل هذه السوية هي في أغلب الأحيان من الطين النيء ويمثل بعضها ، حسب بيرو ، ثيراناً لها حدبة (Perrot 1967, p. 12) ونقدم هنا (رقم ٢) رسماً «لثور بحدبة» اعتماداً على صورة نشرها بيرو . ان تمثيل هذا النوع ، المسمى ايضاً درباني (Zebu) يبدو ، شاذاً ، في فلسطين في ذلك العصر البعيد[١] . من الاشارة لجنسه يظهر أنه ثور ، ومن المحتمل أن تكون الحدبة ليست إلا مبالغة ، كما في الطابع التعبيري لمنهاتا ٢ ، في رسفاد غارب هذا الحيوان (رقبة مليئة بالدم)[٢] . إن هذه المبالغة تؤكد على «الفحولة» المرعبة وتشكل نقيض المبالغة في الصفات الانثوية في تماثيل الآلهة الطينية . ونذكر أخيراً ، بين التماثيل الحيوانية ، رأساً حيوانياً من الحجر (1968 pl. IV) .

ومن جهة ثانية فهناك حجران من شارهاغولان تبدو عليهما ملامح حيوانات منحوتة . في الحالة الاولى (رقم ٣) يمكن أن نميز بلا تردد ثوراً وفي الحالة الثانية (رقم ٤) يرى ستكليس عنزة برية . وأخيراً فقد عثر في السوية الثالثة من تل الرماد على قرنين من الطين النيء (Contenson et van lieré 1964) .

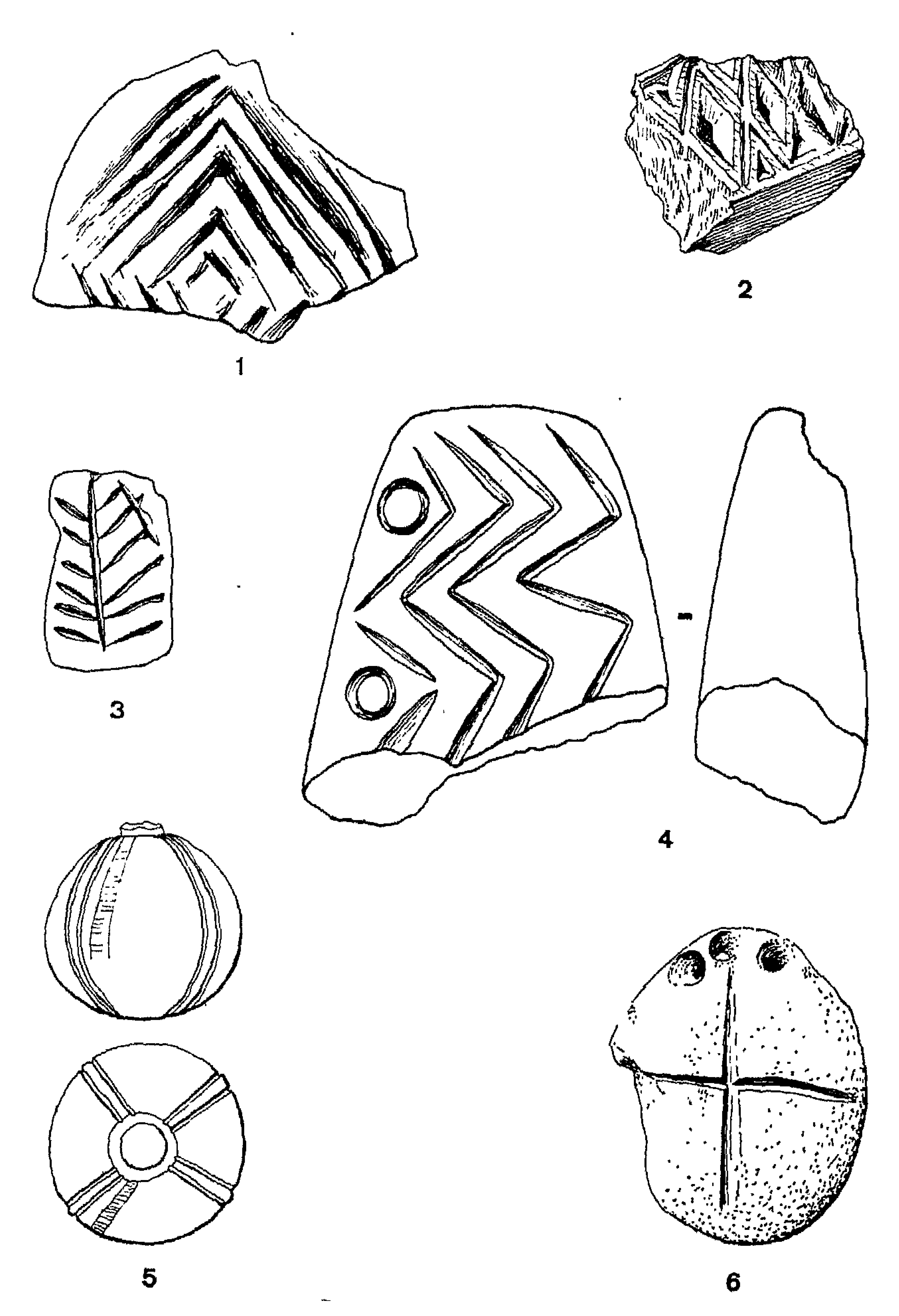
مواد منوعة :

لا يمكننا إلا أن نشير إلى الرسوم الهندسية التي نقشت على الحجر وبكثرة في كل المواقع التي ذكرناها (الشكل ٣٢) ولكن دون أن نستطيع تفسير هذه الرسوم . في بعض الأحيان كانت النقوش ناعمة ، متوازية أو متصالبة ، على حصى مسطحة أو دائرية (Stekelis 1951. pl IV- V et Fig 11) ، وفي أحيان أخرى أيضاً ظهرت هذه النقوش عميقة في الحجر الكلسي وغطت سطحه بزخرفة هندسية اكثر

---

(١) وجود هذا الحيوان في الشرق الأدنى غير مؤكد إلا في القرن الثامن عشر ق.م من ماري (Ducos 1961) .

(٢) اشكال مبالغ فيها ومشابهة ، رسمها حديثاً غويا Goya حول مصارعة الثيران .



الشكل ٣٢: النيوليت في سورية ـ فلسطين، حزوز هندسية على الحجر ١، ٦ شارهاغولان ، ٢ تل الجديدB، ٣ رأس الشمرة ٤٧، ٥ جبيل النيوليت القديم (٢ عن بريدوود، ٣ عن كليشة كونتنسون، ١، ٦ عن كليشة أناتي).

تعقيداً ، وربما كان لها دلالة رمزية لكنها غامضة علينا ، كما في حال الشكل ٣٢ رقم ٤ من جبيل المؤلف من دائرتين صغيرتين، تعلوه أربعة خطوط مزدوجة تشبه خطوط الحواجب ، وهذا شكل رائع يبدو أنه النموذج الذي سبق أشكالاً ظهرت فيما بعد لـ «عين الالهة» (Eye- Goddess) (Grawford 1957, Fig 2,19) من تل براك في سورية في الألف الثالث ق.م، أو للزخارف الايبريه على العظم أو الفخار من نموذج لوس ميلار (Los Millares) . ومن غير المستغرب أن يكون هذا الشكل تجسيداً للإلهة ، من خلال عيونها ، بعد أن رأينا تماثيل النموذج الرابع .

وقد ظهرت نفس الطريقة في شارهاغولان (رقم ١) حيث نحتت أشكال لها أربع زوايا على شكل مربعات متداخلة . وهناك مواضيع أخرى اكثر تعقيداً ، زخرفت أحجاراً من رأس الشمرة (رقم ١٣ ومن تل الجديدة رقم ٢)[١] .

وأخيراً فقد أتى من عصر النيوليت القديم في جبيل أثر آخر غريب جداً ، من الحجر المصقول ، وهو عبارة عن دائرة صغيرة (رقم ٥) قطرها ٣ سم مقسمة إلى أربعة أجزاء بواسطة حزوز مزدوجة تلتقي على شكل زر دائري . في احد الأجزاء يلاحظ شكل يشبه السلّم . إن استخدام هذه القطعة ، بشكلها هذا ، وحتى كقلادة ، يبدو مستبعداً ، ومن المحتمل أنها تمثل تصويراً كونياً ما وهناك قلادة اخرى من شارهاغولان قسمت ايضاً ، بواسطة صليب ، إلى اربعة اجزاء وزوِّدت بثلاثة ثقوب لتعليقها (رقم ٦) .

---

(١) نذكر أن اشكالاً مشابهة ومؤلفة من خطوط هندسية عميقة قد زخرفت الاختام التي لها شكل الزورق ، من النيوليت القديم في جبيل (Dunand 1945 pl XIV) . كما وجدت اختام من الحجر القاسي نقش عليها الكبش ، على امتداد عصر النيوليت ، ومن العمق وحتى جبيل . . (Braidwood, R et L 1960 Fig 37-68) (schaeffer et coll 1962 Fig 32) إن الاشكال الموصوفة هنا هي اكبر ولا وجود للكبش فيها ويمكن أن تكون ، كما الأختام ، أدوات مخصصة للطبع الملون على الأقمشة . لأنها لم تستخدم للزخرفة على الطين ، ولكن ذلك لا يلغي احتمال وجود دلالة رمزية لها .

الشعائر الجنائزية

لقد عرفت سورية ـ فلسطين في الألف السادس والخامس ، تجانساً كبيراً في شعائر الدفن . وفي كل الأحوال فإن الصدفة في الاكتشافات جعلت القسم الأكبر من الوثائق الجنائزية يأتي ، عكس الحال فيما يخص اثاث العبادة ، من الساحل السوري (رأس الشمرة وتل الجديدة) ومن جبيل ، وذلك اكثر من فلسطين . وتعتبر جبيل الموقع الوحيد الذي قدم وثائق في المجالين تتعلق سواء بأثاث العبادة أو بالشعائر الجنائزية .

إن القاعدة العامة هي القبور الفردية للجثة في وضعية مثنية وغالباً ما ترافقها أواني تضحية . وقد توقف استخدام القبور الجماعية وتوقف ايضاً الدفن الثنائي ، باستثناء جبيل في عصر النيوليت الأوسط مما يثير قضايا خاصة .

قبور رأس الشمرة :

إن القبر الوحيد المعروف من رأس الشمرة أتي من السويه IVA المؤرخة على نهاية الألف الخامس أي بين النيوليت الأوسط والنيوليت الحديث في جبيل ، فقد عثر في الطبقة العليا على قبر شخص يافع في وضعية مثنية ، ولم تكن ترافقه إلا «عدة قطع من الصدف والصوان والاوبسيديان» (Contensoo 1962 p 494) ، كما وجد قبر آخر ، ليافع ، غير محفوظ بشكل جيد ، في الطبقة الدنيا لنفس السوية (نفس المصدر) .

قبور تل الجديدة :

لقد كشفت التنقيبات الواسعة لبريدوود (1960 Braidwood) في سهل العمق في سورية الشمالية عن عدة قبور وجدت في سويات مختلفة وهي :

١ ـ في سوية العمق B المعاصرة للنيوليت القديم في جبيل ، وجد قبر لطفل عمره ثلاث سنوات ونصف وضعت جثته مثنية ، على الجانب الأيسر ، وأمام وجهه إناء صغير بني لامع (نفس المصدر ص ٩٩) .

٢ ـ فوق السوية السابقة مباشرة وضمن ما سمي «الترسبات المختلطة الأولى» (First MixedRange) العائدة للسوية B أو C عثر على ثلاثة قبور فردية في وضعية مثنية أيضاً . على ركبة أحد الهياكل وجد اناء لامع ، وعلى رأس هيكل آخر وجد إناء فخاري ، وآخر من الحجر قرب عظام الحوض .

٣ ـ من المرحلة D المعاصرة جزئياً للنيوليت الأوسط في جبيل وجد قبر طفل ساعده الايمن ممتد على طول الجسم والساعد الأيسر[1] مثني على الركبتين بينما ثنيت افخاذه بقوة ، ووضع مقابل الركبة لوح عظمي من كتف حيوان .

قبور جبيل :

إن قبور النيوليت القديم الأوسط في جبيل ، التي لم ينشر اغلبها ، تدل على نفس الشعائر تماماً . فقد دفنت الهياكل في قبور ترابية وأحياناً حجرية (Dunand 1958 p. 584) وكانت القبور الفردية هي القاعدة العامة تقريباً[2] والجثث كانت مثنية ، بقوة أحياناً ، بعض الأفراد دفنوا مع اسلحتهم (خناجر وبلطات بازلتية) . والعديد من الهياكل حملت بيدها آنية أو عدة أوانٍ تضحية .

ومع أن العديد من هذه القبور الفردية وجد في داخل بعض المنازل فليس ذلك إلا مصادفة في التوضعات ، لأنه لم يدفن في داخل البيوت المسكونة .

بيت الموتى في النيوليت الأوسط في جبيل :

إن هذا البيت الغريب (Dunad 1961 p. 77, Cauvin 1969 p 209) يؤرخ على بداية النيوليت الأوسط ويتألف من غرفة مركزية كبيرة تحيط بها غرف أصغر لقد وجدت

---

(١) وردت الأيمن والقصد، ربما الساعد الايسر .

(٢) هناك استثناء واحد لقبر من عصر النيوليت القديم وجد سنة ١٩٥٠ وفيه أربعة هياكل صفت الواحد مقابل الآخر (Dunand 1955 p.3) ولكن الدفن حصل بنفس الوقت ولم يكن دفناً ثنائياً .

في الغرفة المركزية كمية هامة من التربة الحمراء ، المنقولة من أسفل التل ، والتي تغطيها عدة سويات من التربة المليَّسة ، وقد عثر في هذه السويات على أكثر من ثلاثين هيكلاً مكدَّساً ، بلا إنتظام . علماً بأن الفحص الدقيق للعظام ، المهشمة جداً والمختلطة على مايبدو ، أظهر ارتباطات تشريحية طبيعية . في زاوية إحدى الغرف المجاورة كشف عن توضع لجماجم ، في وسط نوع من حوض مستطيل يحدِّده جدار صغير . ولم يعثر على أي أثاث وإنما ضمن التربة المليَّسة وجدت عدة قطع فخارية وصوانية تعود الى النيوليت الأوسط ، ولكن ليس هناك ما يدل على أنها وضعت هنا بشكل مقصود ، رافقتها عدة قطع فخارية مزخرفة بالصدف من عصر النيوليت القديم ، وذلك في الطبقة السفلى .

إن الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من هذا التوضع الخاص تظهر وكأنها تناقض كل القواعد التي ذكرناها حتى الآن :

١ ـ فهو بناء أحد استخداماته الرئيسية جنائزي . وفيه حالة فريدة ، من جبيل ، لقبر جماعي .

٢ ـ وهو يمثل الآثار الأخيرة في جبيل لاستخدام التربة المليَّسة الموروثة عن عصر النيوليت القديم ، وإنما لم يستخدمها سكان النيوليت الأوسط ، مع أن هذا البناء قد أشيد في بداية النيوليت الأوسط كما دلت على ذلك قطع الفخار القديمة ، التي وجدت مصادفة ، في الطبقة الدنيا . ويعتقد أن الوظيفة الرئيسية للطبقات المتتالية من التربة المليَّسة هو تغطية الودائع الجنائزية في البيت .

٣ ـ إن الجماجم هي الدليل الوحيد ، من الألف الخامس في جبيل ، على تقليد ديني هام يعود إلى عصر النيوليت ماقبل الفخاري الفلسطيني ، أو السوري . ولكن القبور الفردية التي وصفناها في مكان آخر ، كانت كلها بجماجم ، كما أنه لم يؤكد وجود الدفن الثنائي .

٤ ـ وأخيراً فإن هذا البيت ، الذي أُعطي قوة مقدسة ، من خلال التربة الحمراء المنقولة له والتوضعات الجنائزية ، كان يتمتع بسلطة دينية جاذبة في القرية . وكانت القبور الفردية كثيفة التواجد في منطقة محدَّدة بجواره مباشرة

بشكل يتناقض مع انتشار قبور النيوليت القديم التي توزعت بانتظام على كل مساحة المستوطنة .

استنتاجات حول ديانة الألف السادس والخامس

نحن نتذكر المعطيات الأولى ، لسكان عصر ماقبل الفخار في فلسطين ، حول وجود عقيدة المرأة المقدسة ، هذه المعطيات بقيت نادرة لدرجة لا نستطيع معها التقرير فيما إذا كان ذلك يدل على أنها كانت عقيدة ثانوية ، أم أن السبب هو طبيعة التعبير التشكيلي عن تلك العقيدة .

إن الانتشار المتميز « لعبادة الجماجم» حجب عن اعيننا عقيدة الالهة ولكن في الألف الخامس برزت هذه العقيدة إلى الصف الأول واصبح واضحاً ، حتى بدون توثيقات احصائية ، ان صورة الالهة ، تهيمن على بقية الأنواع سواء في الكم أو في الكيف .

الإلهة النيوليتية :

إن الظهور اللاحق لأشكال الالهة في شرق البحر المتوسط يؤكد الأهمية الكبيرة لها ، في عصور ماقبل التاريخ ، في آسيا التي اعتبرها الكثير من المؤرخين ، ومنذ زمن بعيد ، الموطن الأصلي لهذه الالهة . ومن الواضح أن تجسيد المرأة ، سواء في سورية ـ فلسطين أو في الأناضول[١] كان ، في الألف السادس والخامس ، تجسيداً مقدساً وليس تصويراً عادياً للمرأة . لقد أُختزلت صور هذه المرأة في شاتال هويوك ، عبر تكوين ضخم احتل منطقة الصدر من الهياكل ، أو

(١) لقد وجدت علاقات باكرة بين هاتين المنطقتين فقد استوردت جبيل في عصر النيوليت القديم الاوبسيديان من مصادره في شاتال هويوك في الأناضول (Renfrew, Dixon et Cann 1966) كما انه يوجد تشابه في انماط الاسلحة بين هذين الموقعين، (Cauvin 1969)

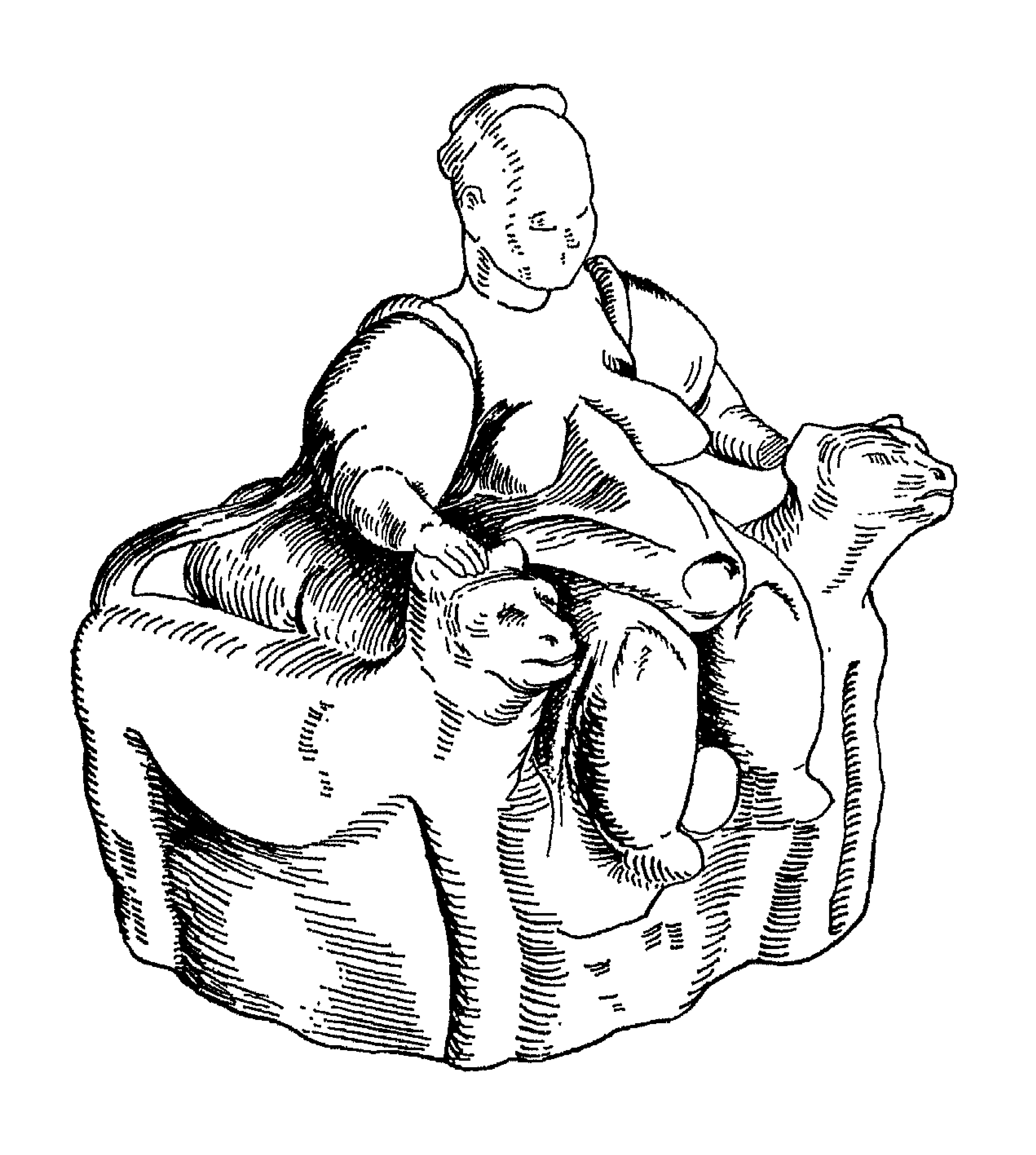
من خلال تماثيل ، اسلوبها أكثر واقعية ، اظهرتها وقد جلست ، بشكل كهنوتي ، على الفهود (الشكل ٣٣) ومن هنا يظهر الترافق المتناقض و «غير الطبيعي» للمرأة والحيوانات المتوحشة ، إضافة الى المبالغة العامة في الأشكال مما خلق عنصراً سحرياً دل على قدسيتها ، وفي منهاتا ، حيث لا تترافق الالهة مع الحيوانات ، لاحظنا وجود الانطباع «الشياطي» الناتج ليس فقط عن المبالغة في التصوير وإنما عن التشويه الاصطلاحي للصفات التشريحية للمرأة ، ومن جهة أخرى ، وكما في شاتال هويوك ورأس الشمرة ، فقد مُثلت الالهة هنا جالسة . ونحن نعلم أن «فينوس الاورينياسية» كانت بدينة ، ولكن عادة إظهار المرأة جالسة على جزء منها (مقعدها) لم تظهر قبل عصر النيوليت ماقبل الفخار الذي أعطى نماذجها الأولى .

إن هذه الوضعية ستصبح الرمز الأساسي ، إذا صح القول ، للحضور المقدس ، وذلك بقدر ماتكون ، تلك الوضعية ، المعبر الأفضل عن العظمة الهادئة . وعليه فإن كل اشكال الآلهة ، المتربعة على العرش التي ظهرت فيما بعد تعود إلى هذه الصورة الأولى من عصور ما قبل التاريخ[1] كما أن هذا المقعد ذا الأصل الديني ، اصبح يرمز للمَلَكية الانسانية .

إن هذه الوضعية الموعدة ، مع اثاثها المكمِّل ، العرش ، ذي المستقبل الرمزي الواسع تجعلنا نتساءل عن معناها البدائي في عصر النيوليت الذي ظهرت فيه . لقد مثلت إلهة شاتال ، أحياناً وهي في وضعية الولادة ، ولكن ذلك ليس إلا حالة خاصة لأن الالهة الجالسة لا تلد دائماً ، بل أن الاله الذكر ، غير البدين والذي صور بشكل أقل ، قد أُظهر في وضعية مشابهة أيضاً (Mellaart, ibid, pl 84,85) . إن إلهة منهاتا لا تلد ايضاً ولكنها أحياناً (الشكل ٢٩ رقم ١) تُظهر نهودها بارزة في وضع مشابه لبعض تماثيل شاتال هويوك (ibid Fiq 53) . إن رمز الأمومة في هذه التماثيل لا يمكن إلغاؤه ولكن مجرد الوضعية الجالسة لا تكفي لتأكيده .

---

(١) ايزيس بالمصري تعني «الجالسة» كما مثلت الالهة سيبل ، أو الالهة السورية أتارغاتيس هيرابوليس ، على حيوانات متوحشة كما في شاتال (انظر Lucien, De dea syria) وفي العصر الفارسي كان العرش الفارغ من الحجر ، في المعابد الفينيقية ، يدل على الالهة .



الشكل ٣٣: إلهة شاتال هويوك عن ميلارت .

ونحن نتساءل فيما إذا كان هذا توافق عفوي بين «استقرار» الالهة واستقرار عابديها . وبدون أن نبتعد بالخيال كثيراً فإننا نتذكر أن هذا العصر كان عصر «استقرار» البشرية وبدء اعتمادها في بحثها عن غذائها على استثمار ينسجم مع البيئة المستقرة ولابد أن الناس تأثروا ، باللاشعور ، بهذه الحالة الجديدة فعدَّلوا فكرتهم عن الطبيعة وقلَّلوا ، في علاقتهم معها ، من دور التصور العفوي ، الذي عُرِف في العصر النطوفي ، في تجسيد الاله (Instance supreme) على شكل حيوان سريع (رمز التنقل وعدم الاستقرار) . وفي العصور التاريخية فإن رمز الالهة قد ارتبط كثيراً بالجبل كمقر لهذه الالهة . ويعتقد ميلارت (نفس المصدر ص ٦٥) أن هذه العلاقة قد أشير لها في شاتال هويوك أيضاً . لقد كان الجبل رمزاً ، وجد في كل مكان ، وهو يمثل حقيقة ثابتة ، يهيمن بضخامته على ما يجاوره من مناطق ، ويعتبر أحد «المعايير الرئيسية» للفكر الديني . وعلى نفس المنوال يبدو أنه بدءاً من النيوليت ، اعتبرت الآلهة كسلطة «مستقرة» تحكم منطقة قريبة ودائمة مع كل الكائنات التي تعيش فيها .

دعونا الآن نترك مضمون هذه الصورة إلى شكلها . لقد لاحظنا أن بعض الحصى المتطاولة ، التي مُثلت عليها الالهة بشكل مختزل كانت على شكل مثلث وأن نهايتها كانت مصنوعة بشكل مخروطي . وفي مواقع أخرى : رأس الشمرة ، شارهاغولان ، وبخاصة تل الرماد ، كانت التماثيل على شكل مثلث له رأس رفيع على قاعدة مضخَّمة . وفي التماثيل الطينية من منهاتا ، تل الرماد وجبيل نصادف تشويهاً غريباً للجمجمة التي تمتد الى أعلى والخلف على شكل مخروطي . فلو أردنا أن نفسر هذه الاشكال على أنها رمز قضيب الذكر فإن ذلك لن يكون تفسيراً كافياً . فإذا أراد النيوليتيون تمثيل القضيب فعلاً لكان بوسعهم أن يبرزوا ذلك بتفاصيل أوضح كانوا قادرين عليها تماماً ، ولكنهم لم يفعلوا . لذلك فإن علم الآثار لا يستطيع قسر الخيال خوفاً من أن يملي على الفن القديم تصوراته وأفكاره الحالية . إن دراسة مقارنة سوف تكون مثمرة ، دون الخروج من منطقة الشرق الأدنى النيوليتي ، إذا كشفت بين هذه الملاحظات المتفرقة عن اتجاه عام نحو نماذج مختلفة جداً . إن فن شاتال هويوك ، ذا الصبغة الطبيعية ، لا يمكن ان يقدم في

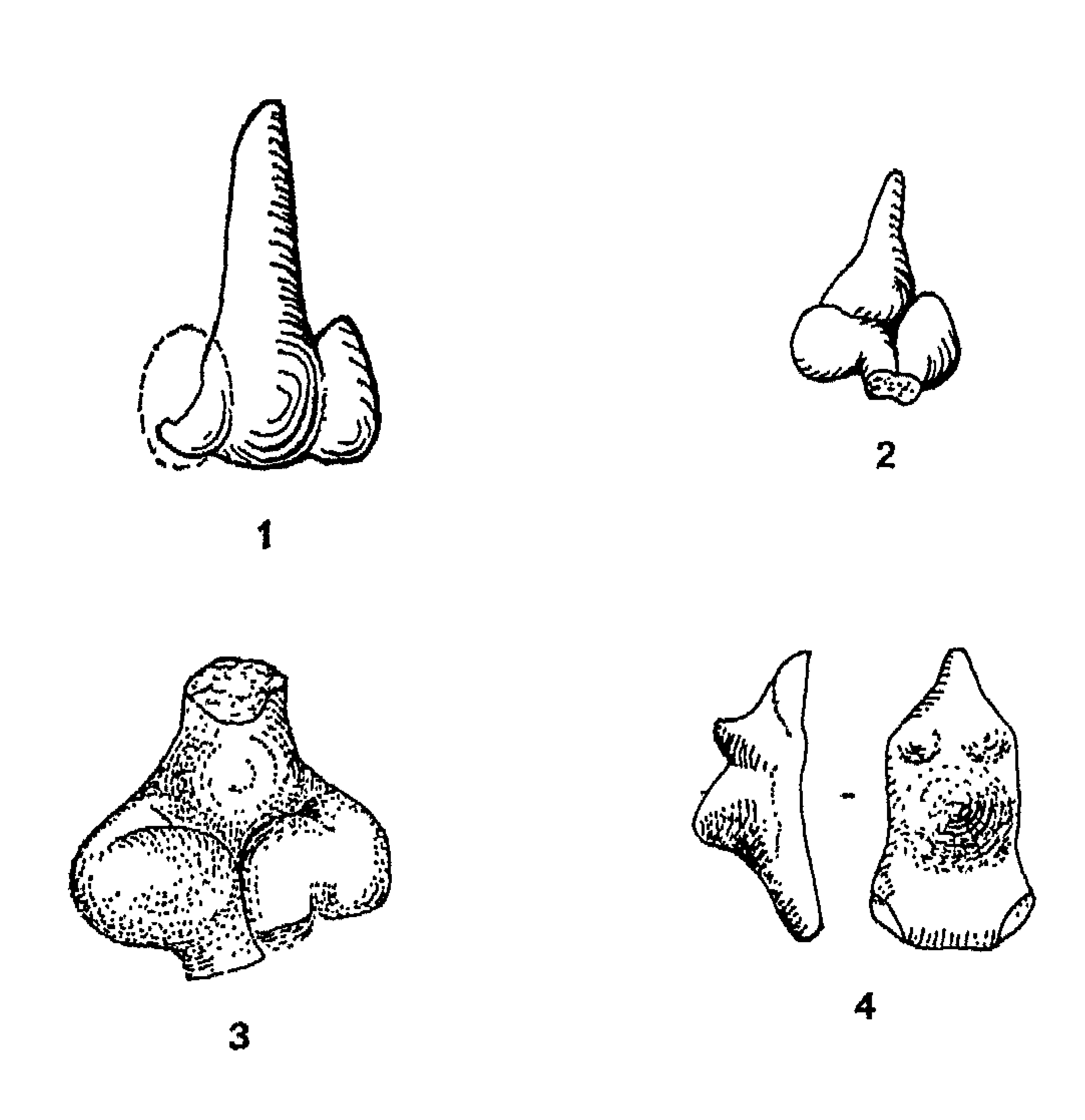
هذا الاطار مساعدة كبيرة . ولكن بلاد الرافدين ، في عصر تل خلف اعطت ، كما رأينا ، تماثيل غريبة ، للإلهة الجالسة (الشكل ٣٤ رقم ١ ـ ٣) أو المختزلة الملامح (رقم ١) أو ، على العكس ، الواقعية جداً (رقم ٢ ـ ٣) وقد ظهرت الاطراف السفلى ، لهذه التماثيل ، متناقضة بشكل غريب مع القسم الأعلى من الجسم ذا الطابع التجريدي والضامر . وهذا الاتجاه هو نفسه الذي ساد في تماثيل النيوليت الايراني (الشكل ٣٤ رقم ٥) ثم فيما بعد في فن السيكلاد (Cyclades) واخذ شكل تطاول شاذ للرقبة[1] .

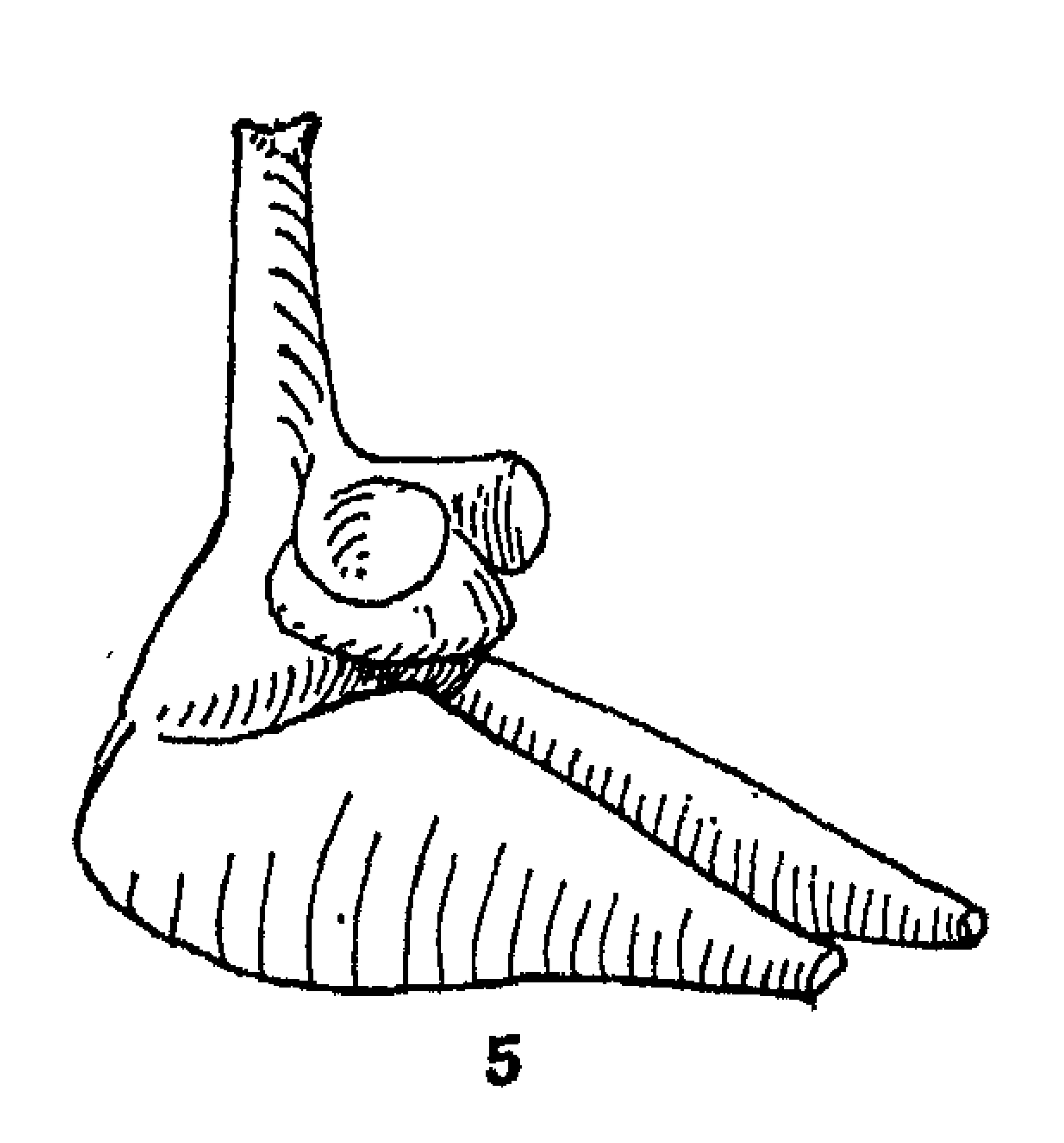
هناك حتماً موضوع(Théme)وحيد وإنما جسِّد بشكل متباين . ولكننا لن ندرك هذه الوحدة إلا إذا امتنعنا نهائياً عن وضع النماذج التجريبية (الواقعية) ، التي نعتقد أنها متضمَّنة ، في المقام الأول .

إن بدانة التماثيل الباليوليتية لا علاقة لها ، كما نعلم ، بدخول قبائل البشمن إلى منطقة بيريغو (Perigord) .. وقد اظهر لورواغوران بشكل كاف (1965-a p64) أن هذا النوع من الأشكال لم يكن في ذلك الوقت اكثر موضوعية فالنهود ، والبطن ، والعانة كانت تأتي في اطار دائرة تتناظر فيها الأقسام الرقيقة للصدر والأفخاذ . كما أن الشكل العام للتماثيل كان مغزلياً وعلى نفس المبدأ فإن المهم في الإلهة النيوليتية هو نوع معين من البنى «المكانية» التي نستشف من خلالها ايديولوجيا ثابتة ، إن مبادىء هذه البنى تختلف في النيوليت عنها في الباليوليت . ومن السهل أن نتأكد بأن اكثرية التماثيل قد نحتت في إطار مثلث الشكل ، تواجدت فيه القاعدة العريضة الى جانب الرأس الرفيع . وانطلاقاً من ذلك يمكن أن نفهم ليس فقط الرابطة التخيلية التي يمكن ان تكون قد وجدت بين الالهة والجبل ، «بصحنه» الضخم (قاعدته) واندفاعه نحو السماء ، الذي استعير للتعبير عن اندفاع الروح ، وإنما نفهم الكسوة الطبيعية (الملابس) التي تزين التماثيل

---

(١) بعد ذلك بزمن طويل ، عندما ساد الفن المتزن الذي لا يسمح بالتلاعب كثيراً بالشكل البشري ، حوَّر الفينيقيون الالهة التي تتربع على حيوانات متوحشة وهي تحمل برجاً على رأسها ، وذلك رمزاً للارتفاع . وبهذا الشكل ايضاً مثلت سيبيل (cybéle) .





الشكل ٣٤: تماثيل نسائية من الشرق الأدنى، ١-٤ تل العربجية ، ٥ تبه ساراب (١-٤ عن ملوان ، ٥ متحف طهران) .

والتي احتلت مكانها الطبيعي ، ولكن الثانوي ، مع أن هامشاً كبيراً من الحرية قد ترك للتقاليد المحلية في اختيار وسائل التعبير .

إن اعتبار الالهة ترتدي قبعة حادة الرأس ، غريبة ، ليس بحد ذاته تفسيراً بلا معنى . فقد وجدت هذه القبعة بشكل واضح ومميز عن الرأس ، على التماثيل النسائية ، العارية ، والقليلة المبالغة ، من عصر حسونة في تل الصوان في بلاد الرافدين (Mellaart, 1965, Fig 38-39) لقد كان هذا هو الحل الذي وجده الفنانون الرافديون من اجل خلق نموذج اساسي لم يكن مقتصراً عليهم . ويمكن أن نقول بأن الرافديين كانوا اكثر واقعية في تمثيل الأشكال الطبيعية ، من النيوليتيين في منهاتا بحيث اضافوا قطعة من رداء (القبعة) كتبرير استدلالي لتطاول الرأس .

إن التماثيل الجالسة ، في إطار مثلث يرتكز على قاعدته ، أو الصيغة المخروطية للرأس تدل على نفس الموضوع الهندسي المفضّل للالهة في سورية - فلسطين في الألف السادس والخامس . ونحن لا نستطيع القول بأن كل التماثيل تعكس هذا الاطار البسيط ولكن التماثيل التي تعكسه هي الأكثر عدداً وهي غالباً أكثر اكتمالاً .

إضافة لذلك فإن الانطباع العام بالوحدة ، الذي إذا أُخذ بشكل مجرد عن نماذجه المحلية ، ينطبق على البلدان المجاورة ، كما أن تنوع التماثيل هو حقيقة اخرى حيث انه في اطار الحصى المنحوتة فقط امكن تمييز ستة نماذج مختلفة ممثّلة كلها في موقع شـارهاغولان . إن هذا التنوع يطرح بدوره مشكلة . إن الظهور المتكرر لصفات معينة ، بين نموذج وآخر ، يدل على جوهر واحد ، كما أن ، التركيز المتباين جداً على هذا الجزء من الجسم أو ذاك يعكس الرغبة من اظهار صفات مختلفة . فالرأس كان ضامراً في النموذج الأول ، بما ينطبق كثيراً على الشكل المثلي ، بينما ، في النموذج الرابع ، ابرز هذا الرأس فقط مع اهتمام خاص بالعيون ، في حين ابرز ، في النموذج السادس ، شق الفرج . وهنا ايضاً فإن هاتشيلار وشاتال هويوك تساعدانا في فهم هذه الظاهرة ، حيث بجانب الربة الكهنوتية المتربعة على حيواناتها المتوحشة وجد حشد من التماثيل الأخرى ، التي نفّذت بمهارة أكبر منها في فلسطين ، بفضل الواقعية التي كانت قاعدة عامة ،

فظهرت هذه الالهة متناوبة في دور ، الأم ، المطعمة ، العاشقة ، الحزينة ، وغير ذلك من الصفات التي اصبحت كل منها فيها بعد ، تخص إلهة بعينها ولكنها في هذا العصر لا تعدو عن كونها مظاهر متعددة لشخصية قادرة على كل شيء .

من كل هذه المواضيع التفصيلية المتداخلة ، فإن تفرُّد مناطق سورية وفلسطين ، قياساً إلى الأناضول ، يقوم على تطوير خاص للالهة ، سواء في التماثيل الحجرية أو الطينية ، كاشارة محتملة للسلطة الخارقة . إن العيون لم تتمتع بميزة خاصة في فن هاتشيلار وشاتال ولكن هذا الموضوع ظهر في بلاد الرافدين حيث رسمت العين الضخمة على رأس ضامر في تمثال من عصر حلف من تبه غورا (Goff, ibid, fig, 107) وفي النيوليت الايراني ربما ابرزت العيون في أعلى الرقبة المفرطة في الطول (الشكل ٣٤ رقم ٥) . إن اكثر النماذج تعبيراً عن «الالهة ام العيون» (Déesse aux yeux) (Craword) أتـى من تل براك في سورية ، في الألف الثالث وتؤكد هذه التماثيل ، الهندسية ايضاً ، ليس فقط رمزية العيون ، ولكن أيضاً الشكل المثلث الدقيق، حيث التسريحة الحادة التي تتألف من اشكال مثل «خطوط الحواجب» المتتالية والتي تشبه الزخارف الهندسية التي وجدت على تمثال حجري من جبيل (الصورة ٣٢ رقم ٤) هو اقدم بحوالي الفي سنة . إن تل براك لا يقدم لنا إلا حالة خاصة ، لتقليد ايقوني (Iconographique) موجود في كل مكان ، ولكننا لن نقدم هنا أمثلة اخرى عنه ، ويعود في جذوره الى عصر النيوليت في المشرق . إن العيون التي عوملت بشكل غير واقعي تلتقي مع الطابع «الرهيب» للآلهات في التماثيل الطينية من منهاتا[1] وهذا في الواقع تفرّد آخر لفلسطين تميز بالتركيز ، اكثر من أية حضارة مشرقية في ذلك الوقت ، على ابراز الرعب الذي يمكن أن يوحي بالالوهية . لكن الموضوع نفسه لم يكن فلسطينياً فقط ، كما أن الصفات الخيرة والشريرة للإلهة لم تكن مفصولة عن بعضها في أي مكان حينئذ .

لقد لاحظ جف ، الترافق الحميم ، في بلاد الرافدين ، بين رموز الحياة

---

(١) نفس الطابع استمر في الكالكوليت ، على التماثيل الطينية التي لها وجه مثل وجه الحية من عصر العبيد (Goff, ibid, fig 218) .

ورموز العدوان والموت . وفي شاتال هويوك كانت النهود الطينية ، المنحوتة في الجدران تخبىء مناقير أو فكوك حيوانات دموية كالعقبان ، والسرعوب ، والثعلب والخنزير البري[1] (Mellaart, 1967, p. 101, 107) وقد ظهرت هذه الازدواجية في فلسطين في عصر النيوليت ، ثم فيما بعد في الكالكوليت ، في عصر العبيد، من خلال تصوير كامل للربة المرعبة ، ولكنها مغذِّية ، ومرضعة ، كما دل على ذلك ابراز الثديين .

مشكلة الاله الذكر :

إن من النتائج الهامة لتنقيبات ميلارت في تاريخ الديانات ، هو اظهارها بأن الوجود المستقل للشريك الذكر ، إلى جانب الإلهة ، يعود في الأناضول إلى الألف السادس . مع أن هذا الاله كان ، بالتأكيد ، أقل تميزاً وتجسيداً من الالهة . ولكن توجد منحوتات كبيرة تمثل زوجاً رئيسياً ، أحدهما إلهة ، (نفس المصدر ص ٢٣)وبقربها عدة تماثيل انسانية الشكل مذكرة ، أو شخص له لحية بشعر واحياناً ثور (نفس المصدر 88, 89, 91) إن الثور نفسه قد ظهر على جدران المعابد ويمكن أن يمثل البديل ، ذو الشكل الحيواني ، لنفس الجوهر ، .[2] كما انه لوحظ تمازج ، موازٍ ، بين الإلهة والفهد .

ولسوء الحظ فليست لدينا من سورية وفلسطين أية اقترانات دالة مشابهة ، تسمح لنا بأن نوضح فكرة الثنائي في شاتاك هويوك . إن الشكل ، المذكر ، ربما ، من جبيل (الشكل ٢٨ رقم ٢) هو غامض بذاته لدرجة يصعب أن نستخلص منه أشياءً هامة ، واما التمثال الآخر ، من نفس الموقع (رقم ١) الذي

(١) إن الرمزية الدموية للخنزير البري تعكس بلا شك التجارب الفاشلة للصيادين في وجه الطرائد المنفردة . وفي العصور التاريخية اصبح الخنزير البري قاتلاً لآتيس وادونيس (Frazer 1926) .

(٢) إن امتزاج الرب ـ الثور ـ الرعد اصبح فيما بعد أحد الرموز ـ المفتاح في جنوب غرب آسيا كما دلت على ذلك نصوص رأس الشمرة حول الرب الفينيقي حدد .

يظهر مخنثاً ، يمكن أن يدل على عدم التمييز بين الصفات المذكرة والمؤنثة في تلك المرحلة الدينية الباكرة (إن جبيل في النيوليت القديم أقدم من منهاتا ٢) . وهذا يلتقي مع فرضية المدرسة الجونغية (نسبة الى Jung[١]) حول تاريخ الديانات (Neumann 1955) ومن جهة اخرى فإنه ليس من غير المحتمل أن يشكل التقعر المحفور على بطن التمثال الأول (الشكل ٢٨ رقم ٢) ، مع العضو المذكر المشار إليه على نفس التمثال ، تجسيداً لهذا الجنس الثنائي الأصلي . ونحن لا نعرف شيئاً عن التماثيل المذكرة من منهاتا ٢ . ولكن فيما يتعلق بتمثيل الحيوانات فهو بالتأكيد كثير لكنه ، غالباً ، قليل التعبير ، والتماثيل هي من النوع الهش كونها مشكّلة من قطع من الطين النيء المكيف مما يجعلها قليلة المقاومة ومتحوِّلة ، كما لم ينشر الآثاريون حتى الآن إلا القليل منها . ويتشكل لدينا انطباع من قراءة تقارير الحفريات انه ، على العكس من عصر ماقبل الفخار ، حيث مثلت انواع حيوانية متعددة إلى حدٍ كافٍ ، فقد كانت البقريات الحيوانات الرئيسية التي هيمنت في هذا العصر . ومن جهة ثانية فإن بعض القطع من منهاتا ٢ (الشكل ٣١ رقم ٢) تدل على أن الناس كانوا حساسين حول الانطباع المؤثر للثور الذكر الذي قاموا ، أيضاً بتضخيم صفاته هذه ، عندما صوروه ، مما يدل على التطور الاسلوبي الواضح قياساً إلى الحيادية المطلقة التي ميزت الفن الحيواني في العصر النطوفي ، وهذا يقابل بدوره المبالغة في تضخيم الصفات الانثوية عند الالهة . لكن هذا لا يكفي للبرهنة على أن الإله الذكر كان موجوداً بشكل مستقل منذ ذلك الوقت ولا على احتمال كون الثور ، كما في الأناضول ، احدى صور هذا الإله .

المعتقدات الجنائزية :

من وجود الأواني الفخارية في القبور لدينا برهان على أن التضحيات الغذائية قد رافقت الموتى ، وأن القبر نفسه شكّل نقطة الانطلاق في استمرار هؤلاء الموتى أو في اقامتهم الدائمة . وهذا يمكن أن يشير إلى اعتقاد في حياة الموتى ، تحت الأرض ، حسب مفاهيم ذلك العصر .

---

(١) المترجم .

وفي هذه الحالة فإن هذا الاعتقاد لابد انه اخذ شكلا جديداً بالمقارنة مع عصر النيوليت ماقبل الفخار ، الذي غابت فيه الأضاحي من قرب هياكل أريحا وتل الرماد ، لأن الأواني الفخارية التي تضم مثل هذه الأضاحي لم تكن معروفة بعد . كما أن حقيقة اخراج جزء من الهيكل ، الرأس ، وحفظه في الهواء الطلق ، تجسيداً للاعتقاد بالبقاء ، تدل على توجه مختلف ساد في عصر ماقبل الفخار ، حول مابعد الموت .

إن مجمع العظام ، وفيه الجماجم ، في جبيل في عصر النيوليت الأوسط في الألف الخامس ، قد يكون دليلاً على استمرار الماضي الديني البعيد[١] .

إن حالة مجمع العظام (Ossuaire) في جبيل هي ليست دفناً بمعنى الكلمة وإنما تجمع لكميات كبيرة من العظام والجماجم في بناء اصبح منذ حينه نوعاً من «بيت الموتى» . كما كان الحال في عصر النيوليت ماقبل الفخار ، وكما تؤكد ذلك الأمثلة الاتنولوجية ، ولكننا لا نفهم سبب غياب هذا النوع من الدفن في عصر النيوليت القديم في جبيل[٢] وقضية اخرى غريبة ، وهي أن وجود هذه التوضعات الجنائزية في النيوليت الأوسط ، لا يلغي وجود الدفن الفردي الذي ميز جبيل في النيوليت القديم (الكلاسيكي) كما أن الجماجم الموجودة في المجمع ، ليس فقط لا تعود لهياكل وجدت هنا أو هناك في الموقع ، ولكن لا يبدو ، أيضاً ، أن هذه الجماجم قد اقتطعت من الهياكل التي وجدت معها في البيت المذكور نفسه . . وهكذا فقد عُرِفت ، في جبيل ، في عصر النيوليت الأوسط ثلاثة أنماط من عادات الدفن ، بعد الموت ، وهي : قبور فردية ، وقبور جماعية ، ودفن للجماجم . وكنا قد أشرنا في مكان آخر (Cauvin 1969, p. 210)إلى تفسيرنا لهذا

---

(١) لقد استمرت في جبيل التربة المكلسة ، كما رأينا ، علماً بأن هذا النوع من التربة قد أُقلِع عن استخدامه في مجال البناء في ذلك العصر ، وهكذا نلاحظ أن التقاليد الدينية حافظت ، كما هو غالباً ، على ما هجرته الحياة اليومية .

(٢) يوجد هيكل من عصر النيوليت القديم (p72) تميز بمخططه وبوفرة الحصى المنحوتة ولكن لم يعثر فيه على أي اثاث جنائزي .

التواجد الغريب لهذه الشعائر مجتمعة . ومن جهة ثانية فإن القبور الجماعية ، في أرضيات البيت ، لم تكن قبوراً ثنائية ، وهي لم تستمر وقتاً طويلاً ، ومن المحتمل أنها تمثل عملية دفن لعدة أشخاص ماتوا معاً اثر حادث قتل ما . هذه الواقعة حصلت في بداية النيوليت الأوسط بما يترافق مع التجديد المفاجىء لتقنيات صنع الفخار والبناء ، وبدرجة أقل الصوان ، الذي حدث في حينه في جبيل ومن المحتمل أن تكون لذلك علاقة بقدوم سكان جدد .

ومن جهة أخرى فإن الفخار الجديد يعكس في اشكاله التأثير القوي لحضارة تل حلف الرافدية (نفس المصدر ص ٤١) وقد بدأ هذا التأثير الحلفي ، بالظهور ، في حوالي ٤٥٠٠ ق.م ، في كل مواقع الساحل السوري وحتى ساحل كيليكيا حيث ظهر في السوية XIX من موقع مرسين (الشكل ٧، رقم ٢) . ومن الواضح أن هذا التأثير قد أدى إلى تغيير في الشعائر الجنائزية في مرسين . التي وجدت فيها ، السوية XIX ، القبور الفردية وفيها التضحيات ، كما في منطقتنا المدروسة ، التي استمرت على امتداد عصور ماقبل التاريخ . كما تحدث غارستانغ (1953, p111) عن قبر جماعي استثنائي ، ضم عدداً كبيراً من الجثث المحروقة معاً (القبر رقم ٦) ، وقد اقام هذا الباحث علاقة بين ما أسماه «الضربة الحلفية» وبين هذا «الهلاك» ممثلاً بذلك القبر .

إن حرق الجثث هو بالتأكيد شيء مختلف عن ما عرفناه في «بيت الموتى» في جبيل . ولكن الموت في كلا الحالتين ، جبيل ومرسين ، لا يتوافق مطلقاً مع العادات المحلية السائدة ، وهو متشابه من حيث انه يدل على موت مجموعة من الناس بضربة واحدة . وفيما يخص مرسين فهو حسب غارستانغ ، وببساطة ، دليل احتلال القرية من قبل قادمين جدد . ونحن نتساءل فيما إذا كان نفس السبب حصل في جبيل ، مما سيسهل علينا تفسير ذلك التقليد النادر .

الخاتمة

التطور الديني من الألف التاسع حتى الخامس ق.م

لقد حاولنا خلال الصفحات السابقة أن نقوم بعمل البالنتولوجي (paléntholoque) ولم نتناول المشاكل الفلسفية المتعلقة بجوهر الموقف الديني ولا درجة عمقه ، الأقل أو الأكثر ، راديكالية ، في التاريخ . وسواء قدَّرنا بأن البنى الدينية هي دائمة بحد ذاتها ، وأن دور اللحظة التاريخية ، أو الحضارة هو ليس إلا تسهيل سيادة بنى معينة أو اعتبرنا ، على العكس من ذلك ، بأن مجموعة الشروط الطبيعية والاجتماعية التي يعيشها الانسان في وسطه تكفي لكل انواع الابداع النفسي ، تبقى أهمية الشروط ليست موضع شك من أحد مِثْلها مثل مبدأ تطور الصيغ الدينية الموازي لتحولات البيئة .

وهكذا فإنه يمكن في إطار الخمسة آلاف عام ، التي تشكل الحقل الكرونولوجي لدراستنا ، التحقق فيما إذا كان بالامكان تلمس مثل هذا التطور ومعرفة ماهيته .

إن هيمنة تماثيل الحيوانات الوحشية (Thériomorphes) عند صيادي الألف التاسع هي الشيء الثابت الأول ، ويظهر أن ذلك يضعنا في إطار تقاليد الباليوليت الغربي ، على الرغم من البعد بين العصرين .

إن تشكيلة الأنواع الحيوانية الممثّلة هي محدودة جداً هنا كما أن هيمنة «الحيوانات المجترة السريعة» ، وربما إقتصارها على واحد ، هي واضحة الظهور ، فلقد هيمن الغزال ، مما يعكس حالة ترتكز على الصيد ولكن دلالة هذا الحيوان ترسو على مجالات اخرى (العلاقة مع الالتقاط ، المظهر الجنائزي) . إن الملاحظات الحاصلة من قبل الاتنولوجيين حول حالات مشابهة أظهرت بأن هذا «الرسو» ليس نادراً وأن البحث عن الطريدة التي ترقى لشرف التجسيد الميتولوجي[١] يمكن أن يشكل بنفس الوقت «نموذجاً» لتصرفات وشعائر مختلفة جداً .

إن التماثيل الانسانية هي نادرة أو مختزلة لدرجة يصعب تفسيرها بشكل مفصّل . إلا أنها تشير على الأقل إلى أن تأليه الحيوانات لم يكن إلا أحد مظاهر الديانة النطوفية ولكنه على مايبدو ، كان المظهر الأكثر أهمية. ولكن يلاحظ بأن الموقع الأكثر تطوراً على طريق الاستقرار ، وهو موقع عين الملاحة ، الذي كان منذ الألف التاسع قرية مشادة ، هذا الموقع لم يقدم إلا تماثيل إنسانية . وهذا يتناسب مع استنتاجنا العام السابق في دراستنا الشاملة والذي يقول : يوجد تلازم بين تقدم الاستقرار والمكانة المتصاعدة التي احتلها تمثيل الالهةبأشكال انسانية .

إن تقرير هذا التوازي اكثر سهولة من تفسيره . إن ظاهرة التمثيل الأقل عدداً وعناية للحيوانات في النيوليت لا يدل على ارتباط أقل بين الانسان والمملكة الحيوانية . وكون هذه الظاهرة أتت من عين الملاحة ، التي بقي اقتصادها الغذائي مشابهاً لاقتصاد سكان كهوف جبل الكرمل ، يكفي لرفض مثل ذلك التفسير . بل إن معظم قرى عصر ماقبل الفخار لم تكن تعيش من انتاج الغذاء ، وكان اقتصادها قائماً على الصيد والالتقاط مثل عين الملاّحة ، مما يدل على أن تفوق الأشكال الانسانية كتعبير عن «الإله» لا يمكن أن يعكس إلا تحولاً فكرياً . إن

(١) لم يترك النطوفيون فناً جدارياً وعليه فلا وجود لمشاهد صيد ولكن مثل هذه المشاهد قد حفرت على الصخور في أطراف الصحراء الفلسطينية . الانواع الاقدم منها تعود للنيوليت وهي تمثل الماعز البري وتعود حسب المؤلفين لسكان كان نمط حياتهم قريباً من النطوفيين لان مناخ مناطقهم الصحراوية لم يساعدهم على ممارسة الزراعة (Anati 1963) .

صورة الانسان لم تحل ، بشكل كامل وببساطة ، مكان الشكل الحيواني ، الذي بقي رغم ذلك سائداً ولكنه تابع للصورة الانسانية ، التي تدل على قيام فكر ، وخيال ، جديدين من المُغري البحث ، ولو فرضياً ، عن أسبابها .

منذ اكتشافات بيرو في فلسطين ، فإنه لا يمكن ، ببساطة ، ارجاع التحولات الجوهرية في الشرق الأدنى إلى ظهور الاقتصاد الغذائي الانتاجي . هذه النظرة جرّت منذ عهد قريب اخطاء في التقدير ، إذ اعتبرت المجتمعات الفلسطينية ، في الألف الثامن ق.م ، أنها مارست الزراعة والتدجين لمجرد كونها عاشت في قرى دائمة . ولكننا نعلم الآن أن انتاج الغذاء لم يكن إلا أحد عناصر عملية اشمل ونتيجة اولى للإستقرار . ولكن لم يشكل نقطة انطلاق لهذا الاستقرار .

فالجوهري إذن هو الاستقرار نفسه ، والهام ، في عين الملاحة ، هو عدد سكانها الذي تراوح بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠ شخصاً والذين اعتبرهم بيرو قرية . ومع ظهور البناء قامت تجمعات بشرية كثيفة ودائمة . وليس مهماً بأن سكان اريحا في عصر النيوليت ماقبل الفخار آ لم يتقنوا الزراعة ولا نظام الري المعقّد ، الذي تنسبه لهم كينيون ، وليس مهماً فيما إذا كان برج أريحا الضخم بناءاً دفاعياً أو عادياً المهم هو أن هذا البرج لا يستطيع أن يبنيه رجل ولا عائلة ، بل هو نتيجة عمل جماعي هام للمجتمع بأكمله .

وهكذا فإنه من الدقة أن نفكر مع كينيون بأن التجديد الكبير الذي تقدمه اريحا يجب البحث عنه في إطار التركيب الاجتماعي أي العلاقات بين الناس والتنظيم الجماعي ، الذي لم يصل بعد إلى مستوى مرحلة «العمران» وذلك خلافاً لما استنتجت هذه الباحثة ، في البداية ، عندما اعتبرت أريحا المدينة الأولى في التاريخ . لقد بيَّنا أيضاً في دراستنا للأدوات الحجرية (1969) أن تطور مراحل الاستقرار قد حصل مع ازدياد احتمال التعاون والتبادل الأوسع الذي قام بين اناس مجتمعين ومستقرين . إن السيادة المتصاعدة على الطبيعة ، والتي أول شواهدها الزراعة والتدجين ، ماكان يمكن أن ترى النور إلا بفعل الخبرة المكتسبة من العمل الجماعي في مجالات اخرى ، تعتبر العمارة اكثرها وضوحاً لنا . ثم اتى

النشاط الانتاجي والتخصصي للمجتمعات ليقوي هذا التضامن بين الناس ويزيد منْ انتقالهم إلى مناطق أوسع .

إن هذا التطور ، ذا الأثر الكبير على مستقبل الانسانية ، لا يمكن أن يحصل دون جهد جماعي متعاون في كل الميادين . إن «علم النفس القديم» «Paléopsychologie» الذي ينقلنا إلى آراء لوك ولامنغ ـ امبرير ، لابد أن يكون له دوره في هذا المجال . إن الصور المقدسة ، لم يحصل اختيارها بالتأكيد بموجب انتقاء مقصود وواع لدورها العملي ، بل أن تقديسها يعبر أيضاً عن متطلبات نظام نفسي متكامل وهو ليس مرتبطاً ، من حيث تركيبه وأبعاده ، بحالة تجريبية محددة .

إن تجديد الأشكال المصورة في مرحلة ما من عصور ماقبل التاريخ له أهمية كبرى عندما نحاول تحديد «العامل» الانساني للتطور الملحوظ ، في الوقت الذي تساعد العلوم الطبيعية على تحديد الديكور الخارجي لفعل هذا العامل ، بينما تبين التكنولوجيا وسائله المادية . وهكذا فليس مصادفة أن يتعاصر في الشرق الأدنى ، تحرر البشرية من اعتمادها «الأمومي» على الطبيعة والخضوع لارادة وقيادة هذه الطبيعة لتصبح «السيد المالك» لها ، حسب قول ديكارت ، يتعاصر ، مع الدور المتصاعد لتصوير الانسان بين الأشكال المقدسة .

(١) إن دورنا «الاتنولوجي القديم» هو ببساطة ، اظهار هذا التعاصر واثبات وجوده ، منذ التجمعات القروية الأولى ، ذات العلاقات الاجتماعية الأوسع ، والعمل الجماعي ، الزراعي أو غيره ، المتصاعد القيمة ، وذلك بفضل هذا النمط الجديد من العيش .

---

(١) لقد أظهر علم النفس (Psychologie des Profondeurs) أن الرمز الحيواني يعبر ، في النفس عن الأشياء الغريبة وغير المكتملة في عالم الوعي . وهكذا تسير الأمور وكأن البشرية ، في طريقها نحو المزيد من الوعي قد قامت ، في ذلك العصر الذي نتحدث عنه ، بعملية تفرُّدية جماعية ، تشبه في تركيبها التفرُّد الفردي وأن الانتقال من الرمز الحيواني الى الرمز الانساني قد توافق مع تزايد القوة الناشطة في الوعي (Jung 1953) .

الاستنتاج الثاني يتعلق بالهيمنة المتزايدة الوضوح ، بين الأشكال الانسانية ، للإلهة الانثى التي فُضِّل تمثيلها بوضعية جالسة . هذا الواقع ظهر بعد أن هيمنت الأشكال الانسانية ، لكن قلة الوثائق لا تساعدنا على تحديد زمن تلك الظاهرة بشكل اكيد . لقد مثل النطوفيون كما رأينا ، إما زوجاً من الناس أو أشخاصاً لا ينتمون إلى جنس معين . وفي النيوليت ماقبل الفخار آ (الشكل ٨) تبدو انثوية بعض التماثيل اكثر احتمالاً ، بينما الوضعية الجالسة مستبعدة في حالة واحدة ولكنها ممكنة جداً في الحالة الثانية ، إلا أنه ومنذ الألف السابع ، في أريحا ورأس الشمرة ، بدأت تظهر عقيدة الإلهة التي مُثِّلت بشكل مختزل ولكنها تجلس على قاعدة عريضة جداً ، احتلت فيها بعد القسم الأمامي من التمثال .

إن انتشار هذا الموضوع يبدو هذه المرة مرتبطاً تاريخياً بالزراعة ولكن ذلك لا يعني أنها كانت إلهة زراعية وأن قدرتها اقتصرت على ذلك الميدان[١] إن الشخصية التي جسدت كقوة عليا كان لها ، وهذا أمر طبيعي ، سلطة متعددة المظاهر في الطبيعة والحياة والموت . ولكن الجديد ، قياساً إلى الأشكال الباليوليتية السابقة ، هو المظهر الثابت والمهيمن لهذه الشخصية الذي اوحت به طبيعة وضعيتها الجالسة . وإذا كان علينا أن نحدد اثر الزراعة في انتشار هذه الصورة فإننا نقترح فرضية تكثيف الاستقرار نفسه . هذا الاستقرار الذي اقتصر قبل الفي عام على المسكن فقط ، لكنه وسَّع من الآن فصاعداً ، بفضل العمل في الحقول ، السلطة الانسانية على الأرض المحيطة ايضاً . ولابد أن احساساً ، غير واعٍ بعد ، بالتملك قد انعكس على الإلهة واعطاها صفات «مَلَكية» وعليه فإنه ليس من العبث أن نربط بين ظهور الأشكال المقدسة وبين التحولات الأخرى في الوسط الطبيعي والاجتماعي . ومن جهة اخرى فقد عبرت الديانة عن نفسها من خلال

---

(١) لم يظهر في سورية وفلسطين أي رمز زراعي واضح قبل الالف الرابع ، في الكالكوليت، ومثل هذا الرمز اقتصر أيضاً على الميدان الشعائري عبر استخدام جرار الحبوب الكبيرة لدفن الموتى في جبيل (Dunad 1958) ، وربما في فلسطين من خلال مستودع عظام من الطين يشبه شكل مخزن الغلال (Sukenik, 1931, Perrot 1961) .

عبادة الأموات . التي يشهد عليها الدفن الشعائري والذي يمثل بحد ذاته الاعتقاد باستمرار الحياة ، ولما لذلك من علاقة مع وضعية الميت في القبر ، التي عرفت في الشرق الأدنى ، والتي تشبه وضع الجنين في الرحم . كما أن الاستخدام المتكرر للمغره أو للتربة الحمراء كعنصر جنائزي يمكن أن يرمز إلى الدم وانبعاث الحياة ، وهذه كلها امور انتشرت بشكل عادي وعام . إن «رفض الموت» فكرة مترسخة بشكل عميق في النفس البشرية ، في كل العصبور ، لذلك فليس من السهل أن نبحث عن تطور له دلالته ، لفكرة مابعد الموت ، إذا أخذنا بخاصةبعين الاعتبار جهلنا للتصورات الحقيقية المتعلقة بهذه الفكرة . وعليه يمكن أن نقرر بأن الشعائر قد تغيرت عبر ثلاث مراحل مميزة : في المرحلة الأولى ، تواجدت ، القبور البسيطة إلى جابب الدفن الثنائي الجماعي الذي ضم العديد من العظام وبخاصةالجماجم ، وكان ذلك لدى النطوفيين ، وورثتهم المباشرين سكان عصر النيوليت ماقبل الفخار آ . المرحلة الثانية تعود إلى عصر النيوليت ماقبل الفخار ب وفيها بقي استخدام القبور الثنائية ولكن حُفِظت الجماجم في الهواء الطلق ، مقوْلبة وموضوعة على تماثيل أحياناً . وفي المرحلة الثالثة تم الرجوع إلى القبور البسيطة ، وبدون أن تُفْصل الجماجم كما زُوِّد الموتى بالأضاحي الغذائية .

ويمكن أن يحصل ، كما جرى في المرحلة الثانية ، أن تبلغ الشعائر الجنائزية درجة من الأهمية بحيث تطفو بشكل قوي على الجو الديني للعصر وتصبح الظاهرة الجوهرية ، ان لم تكن الوحيدة ، فيه . إن الاهتمام الذي أعير في عصر النيوليت ماقبل الفخار ب للجماجم ، والارتباط المتطور لعالم الموتى مع حياة القرية ، وتواجد الشكل الكلاسيكي للإلهة (التي مثلت منذ ذلك الوقت في اريحا والبيضا) ، إلى جانب حشد من الأشكال المذكرة والمؤنثة التي لا يهيمن فيها جنس على الآخر ، والتي تختلف تماماً عن الاشكال المقدسة التي تابعنا ظهورها البطيء بدءاً من عصر النيوليت ماقبل الفخار آ ، كل هذه الصفات تميز بشكل قوي ديانة ذلك العصر . إننا نعلم بأن الصعوبة الرئيسية تتعلق بتحديد فيما إذا كانت بعض الأشكال تعود لبشر أم لآلهة (انظر Ucko 1962) . فالرأس الدائري المليَّس بالكلس

من اريحا ، هو قريب ، في طابعه الواقعي والمميز ، كما رأينا ، إلى الجماجم المقوْلبة كما أن فن التماثيل ، من منهاتا ٦ وتل الرماد ، أعطى اهتماماً له دلالته ، للرأس على شكل قرص مُكبَّر . وهكذا يظهر بأن هذه التماثيل تلتزم ، بالأنتروبولوجيا الدينية التي تعطي الجماجم الدور الرمزي الذي عرفناه ، اكثر من التزامها بعلم اللاهوت الذي يعمل أيضاً على الاستخراج البطيء لصورة الالهة ذات الأشكال الاصطلاحية المختلفة تماماً . ويظهر ، عكس ماتدل الديانات التاريخية اللاحقة في الشرق ، أن الشكل الانساني للإله الذكر قد حظي باهتمام باكر لدرجة ان تعدد صوره أدى الى خفض عدد الاشكال الانثوية . إن صورة الابن ـ الزوج هي متأخرة ، ولكن شاتال هويوك أظهرت أنها أقدم مما ظن مع أنها لم تكن إلا البزوغ الأول من نوعه ، في الأناضول في الألف السادس . وما لم تقدم لنا فلسطين في الألف السابع نظاماً ميتولوجياً متميزاً ، بشكل قاطع ، عن البقية ، وهذا لم تؤكده دراستنا ، فإننا نظن بأن التماثيل ، ذات العلاقة ، تدل على ميدان فكري آخر هو «عبادة الأجداد» التي تؤكدها الشعائر الجنائزية أيضاً ، وان هذه التماثيل كانت ، ربما ، تمثل هؤلاء الأجداد . إن اريحا وتل الرماد تظهر قريبة من المجتمعات التي تمارس عقيدة ، «عبادة الأرواح» التي يعتبرها تايلور الصيغة الأكثر بدائية للدين . ولكن على مايبدو فإن هذه العقيدة ليست «بدائية» . لأنها انتشرت في عصر ماقبل الفخار ، في اطار مجتمع قروي منظم وزَّعت مساحة قراه حسب وظائفها ، واحتفظت فيه المقدسات ، والأموات ، بمكانها الخاص الذي جسدته المعابد الأولى . وعلى هامش هذه العقيدة فقد ظهرت منذ ذلك الوقت صورة الام المقدسة التي جسَّدت ، عبر آلاف السنين التالية ، جوهر ورع وقلق المزارعين النيوليتيين .

BIBLIOGRAPHIE

ALBRIGHT (W.F.)

1951 *De l'Age de la Pierre à la Chrétienté,* un vol., 303 pp., Paris, Payot.

AMIET (P.)

1961 *La glyptique mésopotamienne archaïque,* un vol. 455 pp., 113 pl. Paris. Ed. C.N.R.S.

ANATI (E.)

1963 *Palestine before the Hebrews,* un vol., 453 pp., fig., et cartes, New York A.A. Knopf.

BALFET (H.)

1962 *Céramique ancienne au Proche-Orient : VI^e-III^e millénaires (études techniques).* Thèse, Faculté des Lettres, Paris.

BAR-YOSEF (O.)

1971 Me'arat Hayonim, *R.B.,* t. 78, n° 4, pp. 411-412.

BATE : voir GARROD et BATE, 1937.

BEHRENS (H.)

1963 Neolitish-frühmetallzeitliche Tierskelettfunde aus dem Nilgebiet und ihre religionsgeschichtliche Bedeutung, *Zeitschrift für äegyptische Sprache und Altertumskunde,* t. 88, pp. 75-83.

BOURDIER (F.)

1967 *Préhistoire de France,* un vol., 412 pp., 152 fig., Paris, Flammarion.

1968 Préhistoire des religions, *Raison présente,* n° 7, pp. 97-105.

BRAIDWOOD (R.J.)

1940 Report on two sondages on the coast of Syria, south of Tartous, *Syria,* pp. 183-221.

BRAIDWOOD (R.J. et L.S.)

1960 *Excavations in the plain of Antioch* (1). *The earlier assemblages phases A-J,* un vol., 601 pp., 89 pl., 384 fig., Chicago, University of Chicago Press.

BRAIDWOOD (R.J.) et HOWE (B.)

1960 Prehistoric investigations in Iraqi Kurdistan, *Studies in ancient oriental civilization*, n° 31, 184 pp., 29 pl. Oriental Institute of the University of Chicago.

BREUIL (H.)

1906 Le passage de la figure à l'ornement dans la céramique peinte des couches archaïques de Maissian et de Suse. *13e Congrès d'anthropologie et d'archéologie préhistoriques*, Monaco, pp. 332-344.

CAUVIN (J.)

1962 Prospection dans le Hauran (Syrie), *Cahiers ligures de Préhistoire et d'archéologie*, n° 12, pp. 282-284, 1 fig.

1963 Les industries lithiques du tell de Byblos (Liban), *L'Anthropologie*, t. 66, n° 5-6, pp. 488-502, 5 fig.

1969 *Les outillages néolithiques de Byblos et du littoral libanais*, un vol., 360 pp., 161 fig., 6 pl., Paris, A. Maisonneuve.

CAUVIN (M.-C.)

1966 L'industrie natoufienne de Mallaha (Eynan). Note préliminaire, *L'Anthropologie*, t. 70, n° 5-6, pp. 485-493, 3 fig.

CHILDE (V.G.)

1954 *New light on the most ancient east*, un vol., 254 pp., 40 pl., 2 cartes, Londres, Routledge et Kegan Paul Ltd.

CLUTTON-BROCK (J.)

1962 Near eastern canids and the affinities of the natufian dogs. *Zeitschrift für Tierzüchung and Züchtungsbiologie*, t. 76, n° 23 pp. 326-333, 8 fig.

CONRAD (J.R.)

1961 *Le culte du taureau de la préhistoire aux corridas espagnoles*, un vol., 222 pp., 40 fig., Paris, Payot.

CONTENSON (H. de)

1962 Poursuite des recherches dans le sondage à l'Ouest du Temple de Baal, 1955-1960, Rapport préliminaire, *Ugaritica*, t. 4, pp. 477-519, 46 fig., 1 carte.

1967 3e campagne à Tell Ramad, 1966. Rapport préliminaire. *Annales archéologiques de Syrie*, t. 17, pp. 17-24.

1969 6e campagne à Tell Ramad en 1969. Rapport préliminaire. *Ibid.*, t. 19, pp. 31-36, 16 pl.

CONTENSON (H. de) et Van LIERE (W.J.)

1964 Sondages à Tell Ramad en 1963. Rapport préliminaire. *Annales archéologiques de Syrie*, t. 14, pp. 109-124, 12 pl.

1966 a - Premiers pas vers une chronologie absolue à Tell Ramad, *A.A.A.S.*, t. 16, n° 2, 2 pp., 1 pl.

b - Seconde campagne à Tell Ramad, 1965, Rapport préliminaire, *A.A.A.S.*, t. 16 n° 2, 8 pp., 5 pl.

c - Les trois premières campagnes de fouilles à Tell Ramad (Syrie), *C.R. Acad.*, pp. 531-536, 4 fig.

COPELAND (L.) et WESCOMBE (J.)

1966 Inventory of stone-age sites in Lebanon, 2e partie, North, South and East Central Lebanon, *Mélanges de l'U.S.J.*, t. 42, n° 1, 174 pp., 41 fig.

CRAWFORD (O.G.S.)

The Eye Goddess, un vol., 168 pp., 46 pl., Londres, Phoenix House Ltd.

DOLLFUS (G.) et LECHEVALLIER (M.)

1969 Les deux premières campagnes de fouilles à Abou Gosh. *Syria*, t. 46, n° 3-4, pp. 277-287, 5 fig., 3 pl.

DUCOS (P.)

1961 La faune, *in* PARROT (A.). *Le Palais de Mari*, Paris, Geuthner.

1966 Los huesos de animales, *in* ECHEGARAY, 1966 (voir Echegaray), pp. 155-164.

1968 L'origine des animaux domestiques en Palestine, un vol., 191 pp., 29 fig., 14 pl., *Publications de l'Institut de Préhistoire de l'Université de Bordeaux*, mémoire n° 6, Bordeaux, Delmas.

1969 Methodology and results of the study of the earliest domesticated animals in the Near East (Palestine), pp. 265-275, in UCKO (P.J.) et DIMBLEBY (G.W.), *The domestication and exploitation of plants and animals*, Chicago, Aldine.

DUNAND (M.)

1945 Byblia grammata, *Etudes et documents d'archéologie*, t. 2, 195 pp., 54 fig., 16 pl., Beyrouth.

1955 Rapport préliminaire sur les fouilles de Byblos en 1952, *B.M.B.*, pp. 1-3.

1958 *Fouilles de Byblos*, t. 2, 1933-1938, pp. 479-1082, fig. 516-1190, Paris, A. Maisonneuve.

1961 Rapports préliminaires sur les fouilles de Byblos en 1957, 1958, 1959. *B.M.B.*, t. 16, pp. 69-85, 15 pl.

ECHEGARAY (J.G.)

1966 *Excavaciones en la terraza de « El Khiam » (Jordania)*, t. 2 : *los niveles meso-neoliticos, estudio de la fauna, flora y analysis de las tierras del yacimiento*, un vol., 226 pp., 49 fig., 11 pl., Madrid, Bibliotheca praehistorica hispana.

EHRICH (R.W.)

1967 *Chronologies in Old World Archaeology*, un vol., 557 pp., Chicago, The University of Chicago Press.

ELIADE (M.)

1952 *Images et symboles*, un vol., 235 pp., Paris, Gallimard.

1953 a - *Traité d'Histoire des Religions*, un vol., 405 pp., Paris, Payot.
b - La Terre Mère et les hiérogamies cosmiques, *Eranos Jahrbuch*, t. 22, pp. 57-95.

FLEISCH (H.)

1952 Néolithique du Proche-Orient (avec rapport de M. DUNAND sur les fouilles de Byblos). *B.S.P.F.*, t. 49, pp. 212-216, 2 fig.

FRAZER (J.)

1926 *Atys et Osiris*, Paris, Geuthner.

GARROD (D.A.E.)

1930 Note on three objects of mesolithic age from a cave in Palestine, *Man*, pp. 77-78.

1932 A new mesolithic industry : the natufian of Palestine, *J.R.A.I.*, t. 62, pp. 257-269, 5 fig., 4 pl., 2 plans.

1942 Excavations at the cave of Shukbah, Palestine, 1928, *P.P.S. n.s.*, t. 8, pp. 1-15, 4 fig.

1957 The natufian culture : the life and economy of a mesolithic people in the Near East. *Proceedings of the British academy*, t. 43, pp. 211-227, 9 pl.

GARROD (D.A.E.) et BATE (D.M.A.)

1937 *The stone age of Mount Carmel, Excavations at the wady el Mughara* : t. 1, 240 pp., 8 fig., 55 pl., Oxford.

GARSTANG (J.)

1913 voir LUCIEN.

1935 a - L'art néolithique à Jéricho, Syria, t. 16, pp. 353-357, 3 pl.
b - Jéricho : city and necropolis, fifth report, *Annals of archaeology and anthropology*, t. 22, p. 71, Liverpool.

1953 *Prehistoric Mersin*, un vol., 271 pp., 161 fig., 33 pl., 1 carte, Oxford, Clarendon Press.

GARSTANG (J.) et GARSTANG (J.B.E.)

1940 *The story of Jericho*, un vol., 200 pp., 24 fig., 19 pl., Londres, Hodder & Stoughton Ltd.

GOFF (B.L.)

1963 *Symbols of prehistoric Mesopotamia*, un vol., 276 pp., 728 fig., New Haven et Londres, Yale University Press.

GOLDMAN (B.)

1963 Typology of the Mother Goddess figurines, *Jahrbuch für prähistorische und ethnographische Kunst*, n° 20, pp. 8-15.

HELBAEK (H.)

1966 Pre-pottery neolithic farming at Beidha, a preliminary report, *P.E.Q.*, t. 98, n° 1, pp. 61-66.

HOURS (F.)

1966 Les débuts du Néolithique au Proche-Orient. *Travaux et Jours*, 20, pp. 3-23.

HUYGHE (R.)

1958 *Dialogue avec le visible*, un vol., 447 pp., Paris, Flammarion.

INGOLT (H.)

1940 Rapport préliminaire sur sept campagnes de fouilles à Hama en Syrie, *Det Kgl. Dan. Vid. Selskab. Archaeo.-Kunsht. Meddelser*, 111, 1, pp. 1-154, Copenhague, Munksgaard.

JAMES (E.O.)

1960 a - *Mythes et rites dans le Proche-Orient ancien*, un vol., 316 pp., Paris, Payot.

b - *Le culte de la déesse-mère*, un vol., 295 pp., Paris, Payot.

JENSEN (A.E.)

1954 *Mythes et cultes chez les peuples primitifs*, un vol., 381 pp., Paris, Payot.

JUNG (C.G.)

1953 *Métamorphoses de l'âme et ses symboles*, un vol., 771 pp., Genève, Georg & Cie.

KAPLAN (J.)

1953 Archaeological survey on the left bank of the Yarkon river, *E.I.*, t. 2, p. 159.

1955 Exploration archéologique de Tel Aviv, Jaffa, *R.B.*, t. 62, pp. 92-99.

KENYON (K.)

1957 *Digging up Jericho*, un vol., 267 pp., 18 fig., 64 pl., Londres, Ernest Benn Ltd.

1959 Earliest Jericho, *Antiquity*, t. 129, pp. 8-9.

1960 *Archaeology in the Holy Land*, un vol., 326 pp., 66 fig., 56 pl., Londres, Ernest Benn Ltd.

KIRKBRIDE (D.)

1966 Five seasons at the pre-pottery Neolithic village of Beidha in Jordan, *P.E.Q.*, t. 98, n° 1, pp. 8-61, 22 fig., 20 pl.

1967 Beidha 1965 : an interim report. *P.E.Q.*, t. 99, pp. 5-13, 2 fig., 6 pl.

LAMING-EMPERAIRE (A.)

1962 *La signification de l'art rupestre paléolithique*, un vol., 424 pp., 50 fig., 10 tabl., 24 pl., Paris, Ed. Picard.

LEROI-GOURHAN (A.)

1964 a - *Les religions de la Préhistoire*, un vol., 154 pp., 16 fig., Paris, P.U.F.
b - *Le geste et la parole, t. 1 : Technique et Langage*, un vol., 323 pp., 105 fig., Paris, Albin Michel.

1965 a - *Préhistoire de l'art occidental*, un vol., 159 pp., 739 photos, Paris, Mazenod.
b - *Le geste et la parole, t. 2 : la mémoire et les rythmes*, un vol., 285 pp., 153 fig., Paris, Albin Michel.

1967 Une nouvelle signification de l'art paléolithique. Interview de N. Skrotzky, *Cahiers des Explorateurs*, n° 19, Décembre, pp. 3-7.

LEVI-STRAUSS (C.)

1962 *Le totémisme aujourd'hui*, un vol., 154 pp., Paris, P.U.F.

LEVY (G.R.)

1948 *The Gate of Horn*, un vol., 349 pp., 122 fig., 32 pl., Londres, Faber & Faber.

LUCIEN

1913 *De dea Syria*, trad. anglaise et notes par GARSTANG (J.), 111 pp., Londres, Constable et Cie.

LYS (D.)

1959 *Nèphèsh. Histoire de l'âme dans la révélation d'Israël au sein des religions proche-orientales,* un vol., 214 pp., Paris, P.U.F.

MALLOWAN (M.E.L.)

1936 The excavations at tell Chagaz Bazar and an archaeological survey of the Habur region, 1934-1935, *Iraq,* t. 3, 86 pp., 29 fig., 1 pl.

MALLOWAN (M.E.L.) et ROSE (J.)

1935 Excavations at tell Arpachiyah, 1933, *Iraq,* t. 2, pp. 1-178, 79 fig., 22 pl.

MELLAART (J.)

1961 Excavations at Hacilar. Fourth preliminary report, 1960, *Anatolian studies,* t. 11, pp. 39-75, 16 pl.

1965 *Earliest civilisations of the Near East,* un vol., 143 pp., 108 fig., Londres, Thames & Hudson.

1967 *Çatal Hüyük, a neolithic town in Anatolia,* un vol., 232 pp., 56 fig., 15 pl. en couleur, 121 en noir, Londres, Thames & Hudson.

NEUMANN (E.)

1955 *The Great Mother, an analysis of the archetype,* un vol., 381 pp., 74 fig., 185 pl., Londres, Routledge & Kegan Paul Ltd.

NEUVILLE (R.)

1933 Statuette érotique du Désert de Judée, *L'Anthropologie,* t. 43, pp. 558-560, 1 fig.

1951 Le Paléolithique et le Mésolithique du Désert de Judée, *Archives de l'I.P.H.,* n° 24, un vol., 270 pp., 79 fig., 20 pl., Paris, Masson.

PERKINS (D.)

1966 The fauna from Madamagh and Beidha, a preliminary report, *in* KIRKBRIDE, 1966, pp. 66-67.

PERROT (J.)

1951 La terrasse d'El Khiam, *in* NEUVILLE, 1951, pp. 134-178, 16 fig.

1957 Les fouilles d'Abou Matar près de Beersheba, *Syria,* t. 34, n° 1-2, pp. 1-38, 4 pl.

1958 L'aube de l'histoire à Beersheba, *Bible et Terre Sainte,* n° 9, pp. 8-19.

1961 Une tombe à ossuaires du IVe millénaire à Azor près de Tel Aviv, Rapport préliminaire, *Atiqot,* t. 3, 83 pp., 43 fig., 10 pl. h.t.

1964 Les deux premières campagnes de fouilles à Munhata (1962-1963). Premiers résultats. *Syria,* t. 41, pp. 323-345, 6 fig., 4 pl.

1966 a - La troisième campagne de fouilles à Munhata (1964), *Syria,* t. 43, n° 1-2, pp. 49-63, 7 fig., 2 pl.
b - Le gisement natoufien de Mallaha (Eynan), Israel, *L'Anthropologie,* t. 70, n° 5-6, pp. 437-483, 24 fig., 12 photos.

1967 Munhata, *Bible et Terre sainte,* n° 93, pp. 4-16, 2 cartes, 25 photos.

1968 Préhistoire palestinienne, *Supplément au Dictionnaire de la Bible,* pp. 286-446, 6 Pl., 46 fig. ; Paris, Letouzey et Ané.

PICARD (C.)

1948 *Les religions préhelléniques (Crète et Mycènes)*, un vol., 332 pp., Paris, P.U.F.

PRZYLUSKI (J.)

1950 *La grande déesse. Introduction à l'étude comparative des religions*, un vol., 219 pp., 21 fig., 24 photos, Paris, Payot.

RENFREW (C.), DIXON (J.E.), CANN (J.R.)

1966 Obsidian and early cultural contact in the Near East, *P.P.S.*, t. 32, pp. 30-72, 7 fig.

RUST (A.)

1950 *Die Höhlenfunde von Jabrud (Syrien)*, un vol., 154 pp., 110 pl., Neumünster, K. Wachholtz Verlag.

SCHAEFFER (C.F.A.)

1961 Les fondements pré et protohistoriques de Syrie du Néolithique précéramique au Bronze ancien, *Syria*, t. 38, pp. 7-22 et 221-242, 10 fig., 6 pl.

1962 Les fondements préhistoriques d'Ugarit du Néolithique précéramique au début du Bronze moyen. Observations stratigraphiques, chronologiques et céramologiques, *Ugaritica*, t. 4, pp. 151-251, 33 fig., 5 pl.

STEKELIS (M.)

1951 A new neolithic industry : the yarmukian of Palestine, *I.E.J.*, t. 1, pp. 1-19, 13 fig., 7 ph.

1952 Two more yarmoukians figurines, *I.E.J.*, pp. 216-217.

1960 The mesolithic art of Eretz Israël, *E.I.*, t. 6, pp. 21-24, 2 pl.

1961 a - Le Tahounien à la lumière des fouilles du Nahal Oren, *5e Congrès international de Pré et de Proto-histoire*, Hambourg, 1958, Berlin, Gebr. Mann, pp. 768-772, 1 pl.
b - Le problème du Natoufien à Nahal Oren, *Ibid.*, pp. 772-774, 2 pl.

STEKELIS (M.) et YIZRAELY (T.)

1963 Excavations at Nahal Oren. Preliminary report, *I.E.J.*, t. 13, n° 1, pp. 1-12, 6 fig., 3 pl.

SUKENIK (E.L.)

1931 A chalcolithic necropolis at Hadera, *J.P.O.S.*, t. 17, 15 pp.

TURVILLE-PETRE (F.)

1932 Excavations in the Mugharet el-Kebarah, *J.R.A.I.*, t. 62, pp. 271-276, 3 fig., 3 pl.

TZORI (N.)

1958 Neolithic and Chalcolithic sites in the valley of Beth-Shan, *P.E.Q.*, pp. 44-51, 4 fig., 4 pl.

UCKO (P.J.)

1962 The interpretation of prehistoric anthropomorphic figurines, *J.R.A.I.*, t. 92.

VAUFREY (R.)

1951 Etude paléontologique, *in* NEUVILLE 1951, pp. 198-217.

WACE (A.J.B.) & THOMPSON (M.S.)

1912 *Prehistoric Thessaly,* un vol., 272 pp., 134 fig., 6 pl., Cambridge University Press.

WERNERT (P.)

1948 Culte des crânes : représentation des esprits défunts et des ancêtres, signification des cavernes d'art préhistorique. *Histoire générale des religions,* pp. 53-97.

ZEUNER (F.E.)

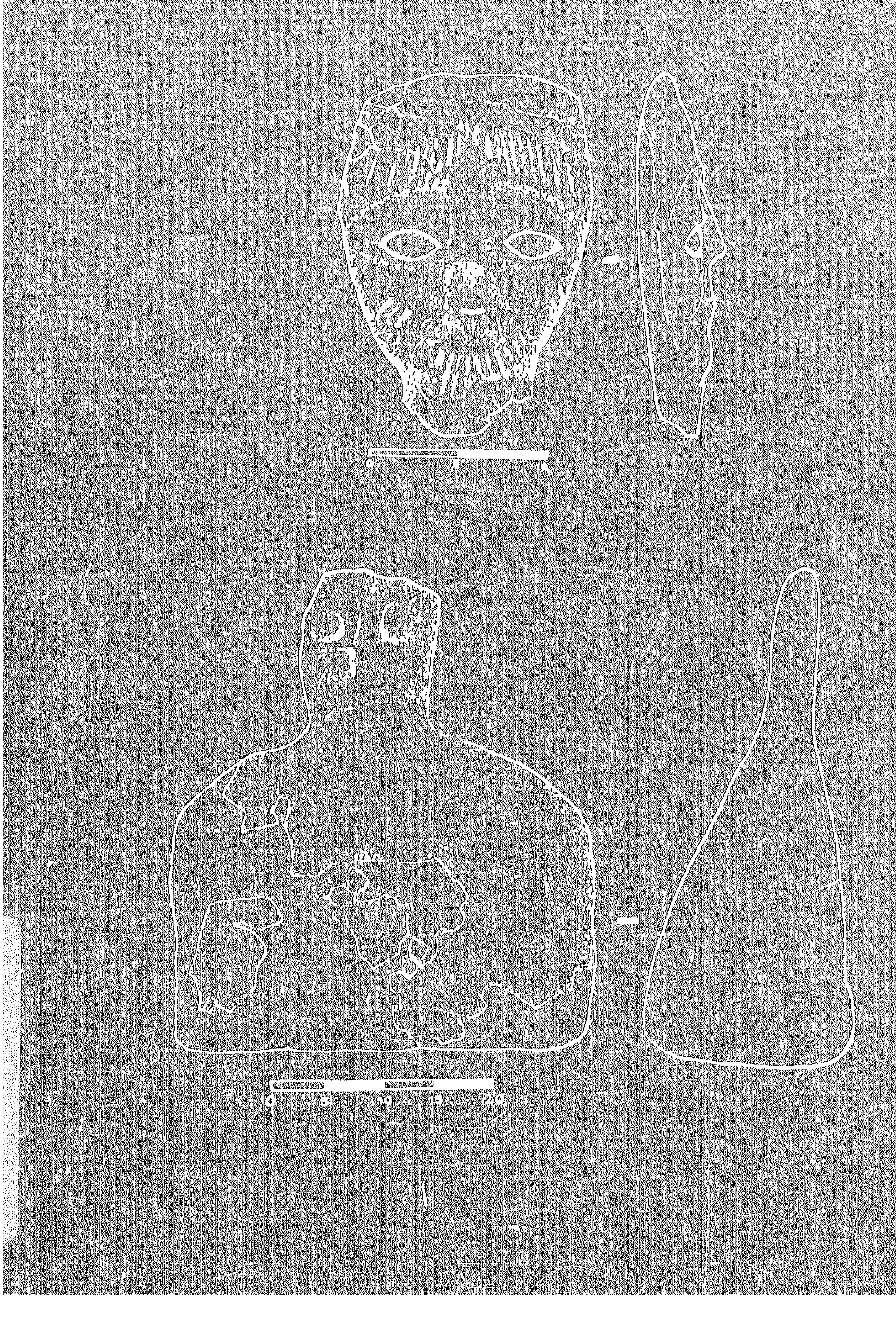
1963 *A history of domesticated animals,* un vol., 560 pp., Londres, Hutchinson.

ZUMOFFEN (G.)

1900 *La Phénicie avant les Phéniciens,* un vol., VI-126 pp., 44 fig., une carte et un vol., 15 pl., Beyrouth, Imprimerie catholique.

1910 Le Néolithique en Phénicie, *Anthropos,* t. 5, pp. 143-162, 9 fig., 4 pl.

الفهرس



0 5 10 15 20